سرد فلسطيني

مختارات نثرية

المتوكل طه

المجلس الأعلى للثقافة

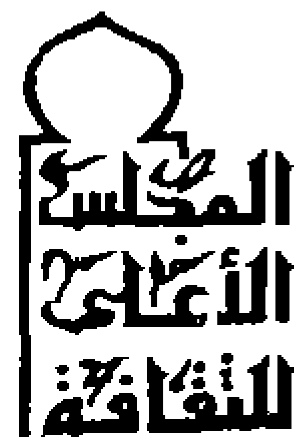


المجلس الأعلى للثقافة

سرد فلسطينى

(مختارات نثرية)

المتوكل طه



٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

طه ، المتوكل

سرد فلسطيني (مختارات نثرية) ، تأليف : المتوكل طه

[اختيار] أيمن أحمد محمود

ط ١ - القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٠

٣١٢ ص ، ٢٤ سم

١ - النثر العربي - فلسطين

(أ) محمود ، أيمن أحمد (اختيار)

(ب) العنوان ٨١٩,٩٥٦٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٣٠٠٠
الترقيم الدولي (I.S.B.N 978-977-479-760-0)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التي تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هي اجتهـادات أصحابها ، ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

الفهـــــرس

مختارات من كتاب

عباءة الورد

٢٠٠١

حنظلة الغسيل

إلى الشهيد محمود العمواسى

ليلٌ مطهم بشهوةِ النِّمرِ للحمِ الغزال. أربعةٌ وعشرونَ عامًا كانت كافيةً لأنْ ينتهى الخيالُ من لُعبَتِه المحمومة، مع ما تُمثِّله تلك المليحةُ من فتْنَةٍ وغموض. لهذا تنبّه الأقدمونَ واجترحوا الطقوسَ البهيجة حتى يخرجَ الإنسانُ من كَهْفِ العُذْريّةِ إلى نبعِ التوالدِ فى برّ الحياة.

وماذا غيرُ المَيّاسِ وفَم الياسمين وسوسن الزرافةِ ذلك الذى كان يضجُّ برغوته فى أحلامِ يقظةِ المتحفز، للدخولِ إلى المرأةِ الجاهزة، المعبأةِ بالقرنفلِ والزنجَبيل وعطْرِ الغُلالاتِ وحريرِ موقدِ الماس.

أربعةٌ وعشرونَ ربيعًا لم يصل الصيفُ إليها، ليبدأَ موسمُ الحصاد، وحتى يَرنّ خلخالُ المنجل، ويحزّ بأناقةٍ بالغةٍ ساقَ الشريانِ فتسرى القشعريرةُ فى أوصالِ النُّحاس. أربعةٌ وعشرون شتاءً لم يصل الغيمُ فيها إلى الرَعْدَةِ الكاوية، التى تُهيئُ الأرضَ للهَلَعِ اللذيذِ، ولينبتَ الصغارُ فى مواكبِ الحقول.

أربعةٌ وعشرونَ خريفًا كان أقساها خريف هذا العام! كان فصلاً مُختالاً، بدأ بغوايةِ الدخولِ إلى فِضَّةِ العِطْرِ وعَرَقِ الوادى، وانتهى بالأَخْذَةِ التى كانت ضَرْبَتُها مُصَوَّحة.

الآن ينهضُ حنظلة الغسيلُ من ترابِهِ العتيقِ، وقبلَ أن يُشَقْشِقَ الفجرُ، بِزَغَبِهِ، ليُجيبَ، مرّةً أُخرى، نداء مُنادى الحياة!!

..لم تَكُن العروسُ، المأخوذةُ بالتَحوُّلِ من الضفائرِ إلى انتظار الحَمْل، قد استفاقت بَعْد، مِن وَطْأَةِ هذا الدَفَقِ الحريفِ، وهذه الجدران، التى بالكادِ تنفَّسَتْ بهواءٍ جديد.

لم تستطع أكثرَ من مدٍّ يديها، برجاءٍ مكتوم، علّها تعيد حديدَ كتفِه إلى الخزانةِ المُرتَّبةِ بعنايةِ النَفْحَةِ المُسْتَبشرة.

لكنّه خرجَ، فسارَ النَمْلُ المتوحّشُ على جدرانِ قلبِها يأكُله، كأنَّ بروميثيوس قد حضَر للتوِّ لمشاركتِها هذه التراجيديا السرمدية.

غابت الشمسُ، أو لعلَّها لم تُشْرِق اليوم، بل ظَلّت في رداءِ البَحْرِ الغربيِ، تُمَشّطُ شَعرَها، تاركةً الشرق لشمسِ الدماءِ التي طَلعت، للمرةِ الألفِ، من شُروقِها الدائم. غابت الشمسُ، ولم تسمعْ المرأةُ التي اكتسبت هذه الصفةَ، قبل ثلاثِ ليالٍ فقط.. كان أبوها يناديها:

يا بنت! فَتُزْهِرُ في وجهِها نجمةُ الوَعْد. نادتها خالتُها الجديدةُ، أو أمُّ زوجِها أو عمتُها أو حماتُها، أو ناداها كلُ هؤلاء، لتشاركَهم طعامَ العَشاء، لكنَّ أخدودَ النَمْلِ كانَ يتسعُ في قلبِها الصغيرِ.

يقولون: للموتِ نداءٌ يسمعه من سيراهُ أو يلقاه، ربّما يكونُ هذا واقعيًا؟! والواقعيُّ أيضًا أنكَ تحسُّ هذا النداءَ، إذا حثَّ الخُطى عليهم، إنْ كانوا أحبابًا أو أهلاً أو قطعةً من قلوبنا.

.. ما بالُكَ أيّها النَملُ الأسودُ تتركُ كلَ الأرضِ، وتنفذُ إلى قلبي، لتأكلَ هذا الطريَّ النابضَ الذي لم يتحركْ إلاّ من ساعات؟ مَنْ دلَّكَ على تُفاحة ضلعي لتقضُمَها بضراوةٍ؟ وتُنخّلُهُ حتى يصبح حفنةً من رمل؟ لماذا أجَبْتَ سُليمانَ، وهو يَخبُّ بجيشه، ولم تُهيّئني لهذه الصعقةِ الماحقة؟ ربما حَمَلَتكَ سُورتُك في القلوب آياتٍ بيّنات، لكنَّ قلبي صغيرٌ على حَمْلِك. هل ماتَ وقتُ رجائِك؟ وهل سقطَ نصفُ القلبِ؟ أُخرجْ! لقد توقَّف نبضي، وها هي الجَلَبَةُ خارجَ البيتِ، أسمعُها تحمل مُحلةَ قلبِ القتيل، فافتحي يا عمتي، يا خالتي، يا امرأةَ عمي، يا حماتي، يا كلَّ هؤلاءِ، افتحي بواباتِ الدارِ، فلقد كانَ العُرْسُ ناقصًا.

دمعة الشهيد

إلى الشهيد جهاد سمحان

لم تستيقظ الأرملةُ الشابةُ من نُعاس الحُقْنة المهدّئة، التى سارع الطبيبُ بها، بعدما فحَّ خبرُ استشهاد زوجها الشاب، وأصبحت المرأةُ الصغيرةُ فى غيبوبتها الغائمة، لا تميّز سوى ظلال الجنازة العارمة، التى دخلت البيتَ ليودّع أهلُ الدار ابنَهم، وخرجت، كأنّما انفعال المشيعين وتوترهم لم يُمْهل الزوجة لأنْ تقفَ على قدميها، وتسيرَ باتجاهِ النعش، لتلقى النظرةَ الأخيرةَ على مَنْ كانَ قبلَ ساعاتٍ يتقلّب، بكامل سخونته وحركات نومه، أليفًا على ضفّة نومها، غير أن طفلةَ الشهيد التى بلغت العامينْ من عُمرها، زاحمت المشيعين والأقارب، وتمكّنت من الوصول إلى حافة النعش، فَصمَتَ الجميعُ، وساد هدوءٌ ثقيل، كسرته الطفلةُ بمناداتها لأبيها: بابا.. ومدّت يدَها الصغيرة إلى شَعرِه، كأنها تُمسّده أو تعبث به.. فتصاعد نشيجُ الحضور، وعلا بكاؤُهُم، وتقاطرت عيونُهم بسخاء.. حتى إن بعضَهم جاح وناح.. وفَقَد نصفَ عقله. أما النساءُ اللواتى كُنَّ خلفَ الرجال فى الصالون الموازى، فقد شَقَّ صراخُهن المفجعُ الجدرانَ والأبدانَ، ما ضاعفَ فى بكاءِ الرّجالِ الذى بدأ نشيجُه يَظْهرُ جليًا، كما أدى إلى أن يَفْقدِ الكثيرون ما تبقى من عقولهم. وظلت المرأةُ الشابة ذاهلةً، متجمّدةَ الملامح، لا تعى ما يدورُ حولها.

ومضت الجنازةُ إلى الجامع الكبير للصلاةِ عليها، دخل الكثيرون للصلاة، وظلَّ كثيرون ينتظرون، وتجمّعت النساءُ خلفَ صفوفِ الرجال.. ينتظرن أيضًا، غيرَ أنَّ دموعهن كانت تلمع، والأنينَ يعلو ويخفت، والمناديلَ تَمسح، دون جدوى، رَشْحَ العيونِ المتواصل..

وبعد حين، علا التكبيرُ، وحَمَلَ الرجالُ النعشَ.. وما أن طلَّ من بوابةِ الجامع، حتى تسلّلت امرأةٌ من بين صفوفِ المتدافعين، ووصلَت إلى النعش، وتعلّقت به، حتى اضطرَ حاملوه إلى أن ينزلوه إلى أرضِ الرصيف.. فانكبت تقبّل وجه الشهيد ورأسه، وتبكي بمرارةٍ وصوتٍ مخنوق، وظلَّ المشهدُ على حالِه حتى تقدَمت بعضُ النسوة، فرفعنَ المرأةَ من إبطيها، وذهبنَ بها إلى الصفوفِ الخلفيةِ حيثُ تقفُ النساء!

– مَنْ هذهِ المرأة؟

قالوا: تلكَ أمٌّ الشهيدِ الذى سقطَ قبل يومين.

– ماذا قالت لشهيدِ اليوم، ولماذا قبَّلته، ومسحت وجهَهُ بيدها غيرَ مرَّة؟

قالت النساء: إنّ شهيدَ اليوم هو ابنُها الثانى، أمّا لماذا قبَّلته، فلأنها أمُّه التى وَلَدته، أمَّا لماذا مَسَحَت وجهَهُ عدَّة مرَّات، فحتّى تمسحَ عن خَدِّه دمعةً قفزت مِنْ عَيْنه، عندما سمع ابنتهُ تناديه: بابا.

يعبد.. هلال العيد وبلال الأذان

إلى الشهيدين الشقيقين هلال وبلال أبو صلاح ابتَعَدتْ عن الطريق، وبالتأكيد طريق الشرّ، فأطلقوا عليها اسم يعبد!

والأرجح أنها بقيت فى مكانها، مثل المعبد، فكانت يعبد! البلدة الأم لثلاثين قرية وعزبة. لم يذكرها المؤرخون حتى مطلع القرن الثالث عشر للميلاد، لأن الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى، غاسل الأقصى بطيب الرماح، ومحرّره من الفرنجة، أقام «معسكر يعب» ليراقب الساحل الصليبى، آنذاك، أو ما سُمى «الممالك اللاتينية».

لهذا، نستطيع أن نفهم مسألتين؛ الأولى أن بلدة يعبد هى أول مَنْ حمل السلاح الشريف، والرشاشات فى الانتفاضة الأولى، باعتباره سلاحاً توالد من صدى معارك الشيخ المجاهد عز الدين القسّام الذى استشهد فى بطن وادى السريّس فى يعبد، ما يعنى تواصل هذه البلدة وإصرارها على الشهادة والمرابطة والجهاد، منذ صلاح الدين، مروراً بالقسّام وليس انتهاءً بالانتفاضة الأطول فى التاريخ، لأن يعبد ما زالت تقدّم، على طبق من صخر، مغسول بماء الرمّان، شهداءَها الأبرار الأزكى.

أما المسألة الثانية، فتقاسم عائلات يعبد الشرف الراشدى، وأعنى أن جذر عائلات يعبد يعود إلى أُصول النسب القُرشىّ، فهذه العائلة يمتد نسبها إلى أبى بكر الصديق، وتلك إلى الفاروق عمر، وهذى إلى عثمان، وهؤلاء إلى علىّ كرم الله وجهه، أو إلى خالد أو سعد، ما يعمّق مجرى الشهادة والبذل والإيثار فى ضلوع أبناء يعبد وبناتها، لأنّ صلصالهم مسكون بترابيّة الصحابة الخالدين.

ويعبد، التى جعلت ليل المحتلين جحيماً، تنام متيقظة، ووسادتها «جبل المُصلّى»

الواقع شرق البلدة، والمطلّ على أذيال مرج بنى عامر، ذلك الجبل الذى قيل: إن إبراهيم الخليل، عليه السلام، صلّى على ترابه، فكان سجّادته المرعة، مثلما يقال. إن أبا البشر آدم، عليه السلام، تلقّى من ربّه كلمات، هناك، فتاب عليه! وربما، ليس غريباً أن يختص هذا الجبل بنبات الشومر الحلو اللاذع، دون غيره من التلال أو الحواكير! كذلك، فإن «جبل المُصلّى» هو متراس البلد المبارك، الذى يردّ جنود الموت خائبين، فإذا وقف الشبان بحجارتهم أو بنادقهم على جبهة هذا الجبل انتصروا!! وأصبحت زخّات الموت الاحتلالى فقاعات تدفنها حجارة الجبل وترابه المقدس، وطالما ألقت الطائرات شواظها وقنابلها، دون أن تمسّ مزقة زعتر، أو هامة فتى متحفّز، بل تنطفئ القنابل، كأنما غُمست فى رمل مبلول.. ولا نبالغ!

أما «بطن الضبع» الواقع شمال يعبد، أو كما ينبغى أن يُلفظ: «بطن الظبع»، فإنه المنطقة الأكثر وعورة وغموضاً! وهنا، فى «بطن الظبع» يتعالى شجر البُطم والسرّيس، مثلما تنسرب مياه الأساطير والحكايات؛ عن الغول، أو الضبع الذى يهوس الرعاة، أو يأخذ الرجل إلى مغارته.. فلا يسترد وعيه حتى تضربه بوابة بيت الضبع على جبينه، فيوقظه دمُه. وعلى التلال المجاورة تتكوّر المفاحم، وسقائف الأغصان، وسيقان الشجر المقطّعة.. وحذارِ من فحم يعبد، فإنه أسرع اشتعالاً من سعير جهنم، أو وادى الويل المهول!

وماذا بعد؟

ثمة ميزة ليعبد، فهى لا تقدّم الشهداء أفراداً ووحداناً، بل توائم وجماعات! وعلى الباحثين فى نظريات الحاسّة السادسة، وما يسمى «التلبثى» أو توارد الخواطر، أن يأتوا إلى يعبد، الآن، ليدرسوا ظواهر الشهادة الساطعة، والتى كان أكثرها وميضاً وإيلاماً استشهاد الشقيقين التوأمين هلال وبلال أبو صلاح فى زمن واحد، اجتمعت فيه بغيةُ القتل فى باغة القاتلين، ونخلوا جسديهما، فى لحظة واحدة، رغم أن هلال كان فى مكان يبعد عن مكان بلال مسافة تزيد على الكيلومترين.. فكيف ذلك؟

قالوا – وصدق مَنْ قال –: إن هلال وبلال كانا أكثر من شقيقين، جاءا من رعدة واحدة، أو من رحم شريف واحد، بل كانا جسدين بروح واحدة تناسخت فيهما! ويشهد المعلمون فى المدرسة أنهما كانا يلفظان جواب السؤال معًا، ويرفعان أصابعهما للردّ معًا، ويحبّان الألوان نفسها، والمشاوير ذاتها، والطعام نفسه. كانا يسيران معًا، ولا يتكلمان، فثمة خيط ضوئى يصل بين حنجرتيهما وقلبيهما، لهذا، كانا فجأة ينظر كلاهما إلى الآخر، يبتسمان أو يسألان!!

وكان النعاس يقسم جناحيه عليهما، فيضع جناحًا على عينى هذا، وآخر على وجه ذاك، وكانا يستيقظان فى ثانية واحدة!! وكانا هادئين طيّبين بشوشين، لم يعشقا فتاة تعتلى سطوح البيت، أو تطأ الطرقات مثل القبّرة فى الربيع، لأنّ كلاً منهما أراد أن يترك لصاحبه نبض الزهرة الأولى، وحرقة الجمرة النابضة.. فآثر كل منهما الأمر للآخر..

وهكذا، لم تحظَ مليحة الحيّ ببرق النظرة من هذا أو ذاك.

وقبل أن يسقطا فى دقيقة محددة موسومة بالرصاص، نظر طويلاً كلاهما إلى الآخر، ومشيا بخطوات ثابتة متسقة، وفتحا الباب، وذهب كل منهما إلى مشواره الأخير.. ولم يودّعا بعضهما، لأنهما سيلتقيان، بعد قليل، جثتين تفيضان بالزبدة الحمراء، وستتحد روحاهما لتصعدا معًا إلى الله.

ثم قالوا: مضى هلال إلى مدخل البلدة الشرقى، ومضى بلال إلى مدخلها الغربى، كأن كلاً منهما سيضرب الأخطبوط فى رأسه المرعب، أو ليمنعا الأفعى الخرافية من أن تمدّ أجراس سُمّها إلى البيوت والطين والزرع البرىء.. وانفلت الرصاص.

كان هلال على موعد مع خمس رصاصات، نفذت من صدره إلى قلبه، وخرجت من ظهره، وكان بلال مع خمس رصاصات أخرى، نفذت من ذات الصدر والقلب والظهر.. وسقطا سروتين.. والدم ينضح سخيًا ساخنًا صافيًا من جذعيهما..

ونادى المنادى أن ادفنوهما معًا، فهما واحد فى واحد، غير أنهما تجاورا فى لحدين جارين، وعليهما سعفتان من نخلة واحدة.

* * *

يقول حارس المقبرة: ثمة قنديل، يشعّ ليلاً من فوق قبر هلال وبلال!

- لكنهما قبران، أيّها الحارس؟

بل قبرٌ واحد، فقد اتحد الشاهدان، ولملم تراب القبر رداءه، وحطّ على تراب القبر الآخر، وأصبح قبرًا واحدًا، يليق لأن يرتوى بمصحف واحد، أو فاتحة واحدة.. ألم تروا أن ثمة سعفة نخل واحدة؟ أين السعفة الثانية؟

يا حارس القبور المُضاءة بالبابونج، وصحن الجمر، والكتاب الواحد والبُطمة الشرسة، لقد رفع بلال الأذان اليعبدى لحجيج الانتفاضة، حتى لا ينهب صدى معركة الشيخ حجارةَ وادى السريس، بل ليحلّ صهيل الأبدان، وغناءُ الثاكل، فى كل الجنبات والتلال. وحتى يطلّ هلالُ العيد واضحًا، جليًا، يبشّر بأن الله افتدى الأقصى بكبش يعبد المُكحّل الجليل.

وثمة كلمات من حجرٍ، بها يتوب الله علينا، لتكون سجدةُ الأنبياء بدايةً لصلاةِ الجسد الغارقة فى شرايينها المفتوحة على الساحل والمرج والقرى الراضية المرضيّة.

تعقيب:

بعد أسبوعين بالتمام والكمال من استشهاد هلال وبلال، فُجعت شقيقة الشهيدين، مرةً أخرى، باستشهاد زوجها الشاب!

لم يعتذر عن موته

إلى الشهيد ثابت ثابت

يحق لعينى الفهد الخضراوين اللتين انطفأتا باغتيال د. ثابت الثابت، أن نَصبغ أسناننا بالسواد، حزنًا ومرارةً، وأن نهيل الرماد والتراب على رؤوسنا، وأن ينتحب القلب، ويجوح الصدر.. حتى لا يظل دمع فى الرأس.

مَنْ يُصدّق أن ثابتًا مات؟!

-أستغفر الله العظيم-

هل رأيتم رجلاً من ندى وريحان، ووجهًا من فرح الأطفال، وضحكة من رذاذ العيد؟

ذاك ثابت الثابت. وهل عانقتم نهراً فى جسد يضفضف بالنور والذهب؟ وهل أحببتم صلاةَ الشجر، أو لقاءَ البعيد العائد؟ وهل حملتم زهرةَ الحليب إلى الأمهات بأناقة وخشوع؟

لقد كان ثابت فى العناق المجيد، حتى سقط!

ثابت (أبو أحمد) مات. إذًا، لتدقّ الأجراس ألف ألف عام، ولتُكَبّر المآذن ألف ألف مثلها، وليكتبوا على مداخل المدن والبلاد: ثابت مات! فلتُرضع السروةُ ابنتها لبنًا من دمعها عليه، ولتُطلِق السباعُ قشعريرةَ الوديان بعويلها، لأن أبا الجبال مات، وأبا الينابيع مات، وأبا الطيور البريئة مات.

مَنْ رأى منكم أبا أحمد فى السجن؟

كثيرون، بالتأكيد!

كان تاج شمعة بحجم الإنسان، يحبّ الشِعر الواضح وأطفال السخرية، ويمتعض من الالتباس والغمغمة. قليل الكلام، دائم الابتسام، لم يُلقِ بالاً لقمصان السجن أو لزمهرير الهزيع. كان يفرك كفّيه، ويعاود الاطمئنان على المرضى، يجسّ نبضهم، ويعصر خرقة الماء، ويبسطها على جبين مَنْ وقع فى حمّى تردّد المناخ.

حُمْرةُ وجهه زائدة، كأنه مرهون لغضب أبدى، أو كأنه من سلالة «الزهراء» الطاهرة.

على مثله يبكى الرجال، وعند موته يموت الصبر، ويصبح الحزن وحشًا يفتت الكبد، ويحرق القلب.

مَنْ رأى أبا .أحمد؟

كان زهر الليمون الشتوى يسّاقط من أكمامه، ويطلّ النرجس من عنقه المشرّب بالمغيب، كانت عرائسُ الغموض تحفُّه، وتحمل خطوته إلى درج الصباح، فيظلّ واثقًا رائقًا يضوّع الطريق بالأريج.

كان فى المعتقل، يرقب رقعة الشطرنج، حتى إذا فرغ اللاعبان نصح الغالب والمغلوب، صوَّب لهما أخطاءهما، وعندما يطلبه أحد للمبارزة كان يقول له: إن بيادقى من لحم ودم، وأنا الحصان والقلعة والملك!

كيف سمحتَ لهم، أيّها الملك، أن يُقلّبوا جثمانك أمام عدسات الصحافة، ليظهروا للعالَم مكمن إصابتك ومداها.. ولم تبعدهم؟!

كنتَ مستسلمًا، ذراعاك على بطنك مقيّدتان، كنتَ حياديًا، ثم دفعوا بك إلى الصندوق المُعتم البارد!

انتظرتُ أن تدفعهم بعزيمة يديك، وأن تنهض بكامل نبيذك وعسلك، وأن تذهب إلى ملابسك، فترتديها من جديد، وتعود إلى إصلاح السيارة من ثقوب الرصاص الغليظ.

لماذا لم تفعلها وتنهض يا ثابت، لماذا؟

هل ذهبت إلى الجنّة؟!

حسنًا، طولكرم جنّة أيضاً، وأقسم بالله، لو أنكَ سمعتَ بكاء أبنائك وأهلك ونشيج صراخهم لكشفتَ غطاء النعش، ونزلت منه، وذهبت إليهم تعتذر لهم عن موتك!

لكنك لم.. ولن تعتذر، كأنك تريد بموتك أن تدفن قرن المظلمة والاستلاب، وتبعث بدمك الجلّنار ذكرى العاصفة المتجددة، حتى الأسوار والنشيد الأخير.

وهل نحن أحياء لنقول إنك ميت يا ثابت؟ وكيف نكون أحياء وصخرة المعراج محاطة بسنابك خيل الآخرين، ولم يرتفع حزننا الغولى فوق قامة الفقاعة، أو على ضباع أسبارطة التى تلعق دماءنا بأنيابها وخراطيم حديدها المُهلك.

وهل سنواصل السلام بعد قليل؟ لتتسرب الرغوة الفاسدة إلى رئتى القرى والصلوات، ونطوى صفحة وجهك الأرجوان؟

أرى حبّةً من كهرمان صدرك تسقط فى الطريق.. وبعد قليل، ستنفجر الأشجار، وينفضُ فتى العاصفة غصْنَ البرق، لتنثال على الدنيا أنوار المجد والخلاص! عندها، ربما، سنبكى رجلاً، كان ثابتًا على عهد التراب، وكان اسمه العالى المسجّى: ثابت ثابت!

الأب.. الأم.. وفتى القدس الشريف

إلى الشهيد فارس عودة

الأم..

ماذا حلمتِ يا امرأة؟ هل رأيتِ في منامك رؤيةً تبشّر بزفافِ ابنكِ الطفل؟ أم أن قلبَكِ يأكُلك عليه، حتى يعودَ من مدرسته يحمل حقيبته الصغيرة، فتضمّيه– وهو يعجب من هذا الحنان المنفعل المفاجئ – وفي عينيك صورة محمد الدرّة تمور بكامل رصاصها؟

عليك يا امرأة!! وعليكِ أن تردّي بالبسملةِ والآيات، عينَ البندقية، وتحيطي صغيرَك بالأدعيةِ والدموع ورجاءِ السماء، وعليك أن تستيقظي من نومك لتصرخي في وجهِ الكابوس، وفزعِ التوقّعاتِ الحيّة، وأن تضعي السيناريو، من أوّله حتى دفن الجثة الرانخة، واستقبال الجارات الباكيات، والهتافات القريبة المذبوحة!! وعليكِ أن تعرفي– سلفًا – أن الحياة ستعود بكل رتابتها، وستعيد أجهزةُ التلفاز والفضائياتُ أشرطة لقاءات المفاوضين والمفاوضات، الأحياء منهم والأموات.. ورغم هذا، عليك، كل يوم خميس، أن تحملي ضمةَ الورد البلدي، وتذهبي إلى الشاهد البرىء، لتُلقي عليه سلامَ الرضا والرحمة، وما تبقّى من دموع.

وأعرفُ، كأنني أراك، أنك ستبكين بسخاءٍ هادئ، كلما سقط شهيدٌ جديد، وستذهب عيناك، بلا وعي منك، إلى صورةِ ابنك المعلقة، وحدها، على الجدار، وسيخفتُ صوتُكِ شيئًا فشيئًا، وأنتِ تسألين بعتب عن أُمّة العرب، وجيوشِ الأعراب المنسية.

فهل أقول لك إن رؤيتك كانت أضغاث أحلام، وها هو ابنك يطرق بابَ الدار عائدًا من مدرسته!! فاستعيذى بالله من الشيطان.. وإياك وأحلامَ اليقظة السيئة!

الفتى..

للموت نداءٌ لا يسمعه إلا الفتيان، خصوصًا أولئك الذين هجّر الاحتلالُ الفاشىُّ طفولتَهم، أو ضربَ الجنودُ آباءهم أمام أعينهم..

فكان لا بدّ من الردّ بأقصى ما يمتلكه هؤلاء. لهذا يكون موتُهم أكثرَ وسامةً من ولادتهم، مثلما يكون خروجهم من بيوتهم دون إذن جميلاً ومبرورًا، ويجعل هذا العقوقَ آيةً للمغفرة والمباركة، كما يجعل دفاترَهم المدرسية وأشياءهم الصغيرة أيقوناتٍ تقدّسها العائلةُ، وتمسّدها برفق، وتحرص عليها كأنها حروف الله، أو رداء نبىّ.

أيها الولدُ الذى عبأَ حقيبتَه بالحجارة، وخبَّ إلى المتراس، لتورقَ الكتبُ بالدوالى والحنّاء. أيها الفتى الذى صبّوا فى رئتيه الغازَ المسيل للعار، فحرموه من هواء المراجيح، وفضاء مشاوير العصفور، ليس لك إلا أن تتعلّق بصخرة النشيد، ليقف أبوك المشروخُ بالمهانة والضعف، على أرض النموذج الراسخ الذى ينبغى أن يعلو ولا ينكسر.

أيها الولد الذى حطّ على شبّاكه دورىُّ النار، وأعطاه سرَّ النداء. انفث هذا الأوار فى كل الجهات، وامنحْ أمَّك المنديلَ المقدّس، الذى يكسر نومَ الهواء، أو يوقظ البعيدين المهزومين، وأكملْ حريقَ الأدغال، لينبت التفاحُ الطفلُ فى البستان، دون أن يجرح الدخانُ، أو ضحكاتُ الضبع فى الوديان صفحةَ الأسيل.

ويا فتى المقلاع وأقراص الشمس والنشيد، وصلت إلينا هديتُكَ التى فاضت بالعندم وحبات الرز، لخطوات الزفّة الكاملة، وستحمل أختُكَ الملحَ لتنعفه فى وجه الحسد، فلا بأس من الكَشْفِ.. وإطلاقِ ملامحك فى الطرقات، فقد عاد الدورىُّ وحطّ على شبّاك أخيك.

الأب..

لماذا تدارى دموعَك أمام أبنائك، والدم ينفرط ويعبئ الشاشة؟ هل تخاف من احتشاد القلب وانفجار الرمانة الساخنة؟؟ اخرج من البيت إذًا! أشعل السيجارة من عقب أختها، وتمشّ قليلا، واترك مسبحة عينيك تتساقط، واجهش قليلاً، ولا تدع أحداً يراك.

ولماذا كل هذا اللوم والتعذيب لذاتك؟ ماذا كان بوسعك أن تفعل أكثر؟ كان حقًا على الملايين خارج السياج أن يخجلوا من المرايا، وهم يحلقون ذقونهم صباح كل قصف. كان واجبًا على آكل مال السُحت، كانز المليارات، أن يدرك أنه ليس أكثر من أجير صفيق، يذبح الأغانى والنهار، ويهرق أعصاب البسطاء وكرامَتهم، ليبدو نبيًا للوحدة، أو مؤلّفًا فذًا للأنهار اليباب، أو الكلام التافه.

لا عليك أيها الرجل الذى تطحنه الجنازاتُ، ويمزع قلبَه العجز! يكفيك أنك توفر للشهداء كتفًا يحملهم إلى بوابات الجنّة، وتقف مع الثاكل المذهول، وتستلّ من خفة الكيس مبلغًا، تضعه فى يد جارك المستور، يكفيك أنك موجود بلحمك ودم أبنائك، على هذه الأرض، يكفيك أن زهرة قلبك تتوحّش أمام الدبابات، وتصبح أوراقُها سماواتٍ من بولاد، تحاول أن تردّ الطائرات عن الصغار الفَزِعين، والشيوخ المتراكضين فى حيرة الظهيرة المتوترة.

ولا عليك، فإنه يكفيك أنك تستطيع المشاركة، ولو بدمعةٍ خرساء، تشاطر بها الناس، وهم يسيرون بهمّة باسلة إلى الغد، ولا بأس إن رأتك زوجتُك أو أبناؤك، وأنت تبكى، فهذا أول الطوفان.

"شـو يعنـى مـات؟"

إلى الشهداء الأطفال

عشرون طفلاً فى الصف الأول الابتدائى اصطفوا بشكل منتظم، ربما لأول مرة، وهم يلجون بوابة ديوان آل زيد فى مدينة قلقيلية، كان الضحى قد اكتمل شروقه، وتم دفن الطفلين الشهيدين: محمود (٧ سنوات)، وشقيقه محمد (٦ سنوات) ليلة أمس، ووقف والدهما مع جموع المعزّين مشدوهًا كأنه تمثال يؤدى حركة لا إرادية فى مصافحة معزّيه.

ليلة أمس، وبالتحديد ساعات الغروب، كانت المواجهات الطاحنة على المدخل الجنوبى لقلقيلية فى كامل ألقها، تتمّم انفجارها العبقرى ردّا على استشهاد سامر العورتانى ابن الستة عشر ربيعًا، حيث كان أول الشهداء الذين سقطوا فى انتفاضة الأسرى والمعتقلين فى معركة الأمعاء الخاوية التى ابتدؤوها منذ أسبوعين، مطالبين بإطلاق سراحهم، من «الباستيلات» التى أمضى بعضهم فيها أكثر من ربع قرن – ثمة معتقلون فلسطينيون أمضوا ٢٥ عامًا فى الأسر وما زالوا معتقلين –.

ربما لم تكن المواجهات هى الأكثر سخونة فى قلقيلية، لكن الحافلة الإسرائيلية التى يقودها مستوطن يهودى يعتمر «الكيباه» قد جعلت المواجهات فى ساعات المساء الأكثر وهجًا وصخبًا والتحامًا وجسارة، حيث أقدم ذلك المستوطن بحافلته الهائجة وطحن تحت عجلاتها الطفلين الشقيقين عامدًا متعمدًا، حتى استعصى الأمر على الطبيب – لاحقًا – أيضعُ شقف اللحم المهروس مع جثة هذا أم ذاك.

أمّا ما غفلت عن ذكره وسائل الإعلام فهو أن أم الطفلين كانت تسير خلفهما متثاقلة بسبب حملها، ورأت بأم عينها طفليها وهما يتدحرجان تحت عجلات الحافلة الإسرائيلية، فوقعت مغشياً عليها، حيث أفاد طبيب المستشفى فى المدينة أنها فى حالة انهيار، وأجهضت، وحالتها صعبة.

أما الأب الثاكل فقد كان عائداً إلى بيته، قبل أن يقف اليوم فى صدر الديوان يتلقى العزاء بكل أولاده مرة واحدة، وقبل أن يبدو ساهماً محمرّ الجفون ذاهلاً.

أما أولئك الأطفال العشرون، أبناء الصف الأول ابتدائى، فهم زملاء محمود، جاءوا ليقدموا العزاء لأهله. دخلوا المكان خاشعين كأن خبر وفاة زميلهم هجّر طفولتهم، وأبدل ارتباكهم وسذاجتهم بثقة وهدوء. تقدموا من والد محمود، ابن صفهم، ومدّوا أياديهم الصغيرة مصافحين، دون أن يقولوا شيئًا.. غير أن واحداً منهم، وبعد أن أنهى مصافحته، استدار وسأل الرجل المحزون قائلاً: (شو يعنى مات؟ ثم استدرك: وإذا لم يعد فسأذهب أنا إليه وأزوره عند الموت).

وما كاد الطفل ينهى كلامه حتى تقاطرت الدموع من عيون الرجال؛ كل الرجال الذين كانوا فى الديوان يتابعون هذا المشهد.

أما المشهد الذى لم يلحظه أحد فهو، بالتأكيد، مشهد الأم بعد أن استيقظت من خدر البنج، إثر عملية الإجهاض التى أجريت لها.

أعراس قلقيلية المختلفة

إلى شهداء قلقيلية

في قلقيلية ما يوحي إلى الأعراس! ليس لأن فتيانها يولدون وهم يعرفون كل أشكال الرقص الفلكلوري والدبكة الشعبية، ويحفظون، عن ظهر قلب، دلعونا وظريف الطول، وليس لأن الزفّة القلقيلية، لا تعادلها زفّة في الأرض!! بل لأنّ أعراس قلقيلية مختلفة وكاوية وعالية، وللعرائس فيها رائحة الملائكة وزهر الليمون.

قلقيلية سرّ الأرض التي نهبوها عشيّة النكبة، فذهبت إلى شرق الجبال لتزرعها برتقالاً وعنبًا، وتضع في حضن كل صخرة زيتونةً ومسكب «شِجّيرية»، وتحيل الصوّان إلى بيارات مُمرعة، والحواكير الحجرية الجرداء إلى مروج لليمون واللوز.. ولم تترك قلقيلية شبراً إلاّ وترنّق بالخضراوات والفواكه الموسمية البعليّة، أو التي وصلت إليها مياه الآبار الارتوازية، الأكثر في فلسطين، لتجعل براريها لوحة مكتملة الاخضرار والندى.

قلقيلية التي اقتطعوا من لحمها عشرة آلاف دونم العام ١٩٤٨ اتسعت، وحملت عن يافا بياراتها وبرتقالها الحزين! بعد أن قدّمت كوكبة مكتملة من الشهداء، وشهدت الكثير من المعارك التي امتدت من راس العين جنوباً حتى الطيرة والطيبة شمالاً، وملَبّس وكفر سابا وغابة عزون غرباً. وظلّت قلقيلية تلوّح بقنديلها في ليل النائمين، ما دفع الدولة العبرية العام ١٩٥٦ إلى التسلل ونسف «العمارة» أو «المقاطعة» على رأس مَنْ فيها، فاستشهد سبعون رجلاً غير منقوصين! وقبل حرب حزيران المشؤومة ببعض سنوات، حاولت إسرائيل، غير مرّة، نسف محطات الوقود في قلقيلية، وكذلك تفجير

عدد من الآبار الارتوازية التى يبلغ عددها أكثر من خمسين بئرًا فى محافظة قلقيلية.

وقلقيلية التى أنبتت الرجل الضمير «أبا على إياد» ظلت أرضها تنبت أشجارًا شهيدة تموت واقفة.. ولا تركع! وإنّ مَنْ يرضع من برتقالها البلدى كأنما ينغسل قلبه من كل جُبن وسواد.

هذه قلقيلية التى أُحبّها، وأجاهر بمحبّتها وانتمائى إليها وإلى زفّاتها وحاراتها وأهلها، من «صوفين» شرقًا إلى «كنايات دحبور» غربًا، ومن «بيارة أبو الهزّاع» جنوبًا حتى «جنانة الحيوانات» شمالاً. أحبُّ فيها كل شىء، من «واد أبو اسكند» حتى «الراهنات»، ومن «الرزّازة» حتى «واد الصراصير»، ومن «واد الفُقع» حتى «الجامع العتيق»، ومن «السوق» إلى «المسلخ»، ومن «البيادر» إلى «الملعب»، ومن «السعدية» إلى «المرابطين»، ومن كل ذرّة إلى كل ذرّة.

قلقيلية، التى ودّعت خمسة شهداء مطلع الشهر الثانى لانتفاضة الأقصى، مرة واحدة، اعتلوا قائمة الشهداء مع الذين سبقوهم، تضيف أسبابًا أُخرى لمحبّتها والانتماء إليها والتهليل لاسمها، وأنا على يقين أن قلقيلية لا تنام على ضيم، بل ستجعل كل برتقالة قنبلة فى وجه الخونة والساديّين، وستكون كل ورقة ليمون عَلَمًا يرفرف فى سماء البلد وقلبها الحزين، وستجعل كل جنازة عُرْسًا صعبًا وزفّة لا تنتهى، حتى يُبشّر «زامور» البلد الناسَ؛ كل الناس الطيبين الرائعين الصادقين، أن هلال الحريّة قد طلّ، وغدًا عيد آخر، هو عيد دولة الشهداء الأبرار، وعاصمتها القدس.. التى تنتظر.

عنق النار

إلى الجريح محمد سميرات القيسى

أنّى تكون لى فرحةُ العرائس، وأنا أدخل بردَ الجدران بلا غصنٍ أو أفعى؟

* * *

حمامةٌ تمدّ عنقها فى بياض الليل، تتخيل كيف ستتمطى غضاريفها لتصبح باقرًا يجرف ويذرذر ويسحق، حتى بلوغ الغفوة..

وهذه ليست صورة عن الفحولة، بل هى عناد الوجود، وموطنه الأول.

أما الحوذىّ الشاب فلم يركب حصانه بعد، ولم يمتحن نبتةَ الأصيص، كان على موعدٍ مع وجه البلّور، بعد عامٍ أو أقل، ولم يكن يدرى أنهم سيجتثون قصبَ السكر من الحقل.

* * *

كان فى الصف الأول من المسيرة الهائلة المتأجّجة بالأناشيد والرايات، وراح حيث تسير الأقدام، وحدها، إلى موقع الاشتباك.. أشعل الفتيانُ إطارات عباد الشمس، ووضعوا الحاويات ستائر حديدية تقيهم شرَّ الدُمْدم والرصاص المقنّع بالبلاستيك الأسود، وأقاموا المتاريس الصخرية، وابتدأت حصة أخرى فى يوم دراسى دامٍ من أيام سنة الانتفاضة الجامعة. كان يقذف الحجارة، ويتقافز كالنسر بين موجات الغاز ورشّات الرصاص، وكان لا يلوى على جريح قبل أن يسدّد الحجر جيداً، كأنه يقول فى نفسه: الثأر أولاً.. وسالت جبهته كأعراف الخيل بالندى أو الشهد، وتعكّر دمه بالطحين الخانق، ولفّته الدنيا بأعاصيرها الشرسة، وعلت به حُمّى

العاصفة، كأنما اختلط الجمعان بين يديه، واصطهدت الساحةُ، تبشّر بالقيامة.
وسقط كأن ثلجًا ينزّ أسفل بطنه، فارتخى على الأرض.

* * *

ربما استيقظ، وربما رأى الملاءات البيضاء، ووجه الممرضة، وأحس أن قطنًا صلبًا يمسك أعضاءه، فتجمدت شفتاه، وخاف أن يكون ما كان بالفعل.

ولم تفلح كلمات الأطباء فى شرح الحالة، وأن ثمة أملاً بعيداً.. بارقًا بأن الحال ستعتدل، وستعود الأفعى إلى فحيحها الناعم.

نسى كل معانى النضال والوطن، ولم يستطع أن يواسى نفسه، أو يعزّى الموعد القريب، ورفض أن يزوره أحد.

نقلوه مع جرحى آخرين فى سيارة الإسعاف، إلى مشفى فى بلد قريب، وهناك، وبعد الفحص والمعاينة والتبؤّر فى التقارير والنتائج المخبرية، أيقن أنه سيفقد الرجل وإلى الأبد.

بعد خروجه من المشفى، حجّ إلى بيته كل الناس مهنئين، وفجأة أعلن والد خطيبته أن العُرْس سيكون الخميس القادم. أما هو فلم يدرِ ما يقول، وأصاب الحرج أهله، واختلط صوت التهانى بالزغاريد المتقطعة الخجولة.

وحده، كان يتحسس البقعة المعطوبة، ويدرك كم سيكون مخذولاً.. والعرق البارد يتصبب من جبينه.

لكن والد عروسه وأهل البلدة حملوها إليه، وطبعت بالعجين ورقة الليمون على بوابة الدار، ودخلت.

وبعد غيمتين من الأغنيات، وقف السؤال بينهما، وسط فوضى الحرير، وشعاع العطر الساطع!

* * *

نام، أو هكذا تراءى له، لكن طيراً شبّ من بين فخذيه، أيقظه، ونهض به.. وسار أمامه إلى حيث كان النبض يتحرّق بالكمّثرى!، حطّ عليها وأخذ منها أوصالها، وشرب آخر قطرة من نرجسها، كأنه أيل فرّ من برارى كنعان، قبل أربعين قرناً، يصل الآن إلى جدوله المسحور.

اشرب أيها الأيل من رقرقة الكريستال السائل، تلمّظ بسواحل الإبطين، وارشف ريحانة هذا المخضل بدمع الحبق، وتزيّا بعنف الصقر، يا سيد الغابات المحترقة!! أيها الناجي الوحيد من اكتمال الليل المبهم! أيها المُغنّى على ضفة النارين بالناى الجليل. اشرب أيها الأيل من صحن البيت المليء بدهن السراج الممهور بالحرقة وزيت الشهاب.

اتبع أيها الأيل ذيل النجمة وبوصلة النيازك، واحمل هداياك من حقلك الليلى إلى كهف النهار.. وادخل بقرنيك المتشعّبتين حتى أنسجة المستحيل، وأعلن هناك مذبحة الخوف، فالقيامة ممكنة، وها هو البوق يصوّح فى الأشهاد.. فاتبع شبق الأعناق الطائرة إلى سكَر النار.

لحية أبو اسماعين

إلى الشهيد عصام جودة

على أية قنطرة سترمى هذه الثكلى شَعرها الخشن؟! وعلى أية أُغنية عتيقة سيركب هذا الأب سرجَه المتهدّل، قبل أن ينعف دموعه الصعبة، تحت الخرّوبة العجوز؟!

ستنتفض لحيته، وترتجف يداه، وهو يمسح بكفّه الطينى هَرَم خدّه، فلا يشعر بوخز إبر وجهه الشائب المنتصب! يجول بعينيه الغائمتين بين سطور الزيتون، وقدماه تفخت أرض الربيع التى افترعها لتوّه، ببغلته المستسلمة.

سيُنهى حراثة المرج، وسيفغم حبّة البندورة، ويطحن بصحن قبضته فحلَ البصل، وسيبرد عرقُ جبينه رغم الموقدة الصغيرة التى يطبخ على أوارها إبريق الشاى الفاحم.

وسَيصلى الظهر، ويطيل التأمّل قبل السجود، وبعد الركوع، وسيذهب بعيداً، بعد أن يُنهى تمتمة الفاتحة التى يُردّدها عشرات المرّات، منذ أربعين عاماً، عن ظهر قلب.

وعند المغيب، يكون قد طبخ الشاى مرّة أخرى، وصلّى العصر، وركب دابّته، وعاد إلى البيت. وبعد أن يربط البغلة، ويُلقى أمامها صاع التبن والشعير، ويمسّد رقبتها البنيّة، يشطف يديه ووجهه ويُحسن الوضوء، وينفض يديه، قبل أن تناوله أم اسماعين البشكير النظيف، ويلبس قمباز الديوان، ويلفّ حزامه، ويتنحنح قبل أن يدلف من باب بيته إلى الجامع.

منذ شهر، لم يحلق أبو اسماعين لحيته التى اعتاد أن يكشطها بعد صلاة عصر كل يوم خميس.. ولعل هذه إشارة إلى العجوز الثاكل بأن أبا اسماعين لن يمدّ يده الخشنة إلى ذيل ثوبها الطاهر الطويل!

وأم اسماعين، رغم حزنها اليابس، تريد لهذا الشيخ أن يفعلها، ويمدّ يده.. حتى يخرج من صمت حزنه القاسى، لكنها تذكرت، فجأة، أن أبا اسماعين لم ينظر إلى وجهها منذ استشهاد اسماعين، وأنه صار يتأخر فى مرج الزيتون حتى المغيب؟!

وأم اسماعين التى كانت «تحضر» الأخبار، وتتابع المسلسل اليومى، الذى ما أنْ تنتهى الحلقة اليومية منه حتى يكون النُعاس قد مضى بها إلى الفراش، لم تعد تفتح جهاز التلفاز منذ صعقة الخبر، وامتلاء البيت بالمعزّيات النائحات.

وعندما أعلن الراديو أن غداً هو أول أيام شهر رمضان نزلت دموع أم اسماعين، ولم تستطع أن تضع فى فمها لقمة واحدة لحظة الإفطار، لكن أبا اسماعين، وبصوته العميق، أمرها، كالعادة، أن تمسح وجهها بالرحمن، «وتِسَمّى وتوكل..».

لعلها أكلت، وعادت رتابة السحور والإفطار، ومضت الأيام، كما هى ولحية أبى اسماعين تزداد بياضاً وكثافة.

* * *

اليوم هو الخميس! فلقد رجع أبو اسماعين من «الوَطَيات» مع تعلّق الشمس فى قلب السماء، وبعد صلاة العصر، توجه إلى «المزيّن» الحلاّق أبو عجرة، الذى رحّب به.. ودلح على لحيته كمية كبيرة من العطر الرخيص.. الذى لم يعجب أبا اسماعين، لأن العطر ربما يفسد الصيام.. مَنْ يدرى؟!

وما أن دخل أبو اسماعين من رمانة البيت حتى لاحظت أم اسماعين أن لوحة زوجها متغيّرة . آه، إنه حالق؟.. الحمد لله.

وعندما عاد أبو اسماعين من صلاة التراويح، كانت أم اسماعين قد قَرصت خدّيها، ومررت مرود السنام على عينيها، وتمنّت عليه، بصمت، أن ينظر إليها، لكنه، وبعد أن خلع قمبازه والحطّة والعقال وجوزبه. توجه نحو التلفاز، وكان بحيوية دلّت على نشاط يُبشّرُ بخير!! أضاء التلفاز، ولفّ على الفضائيات، واستقر على نشرة الأخبار التى أكدت أن المفاوضات ستُستأنف غداً فى أمريكا.. تمتم أبو اسماعين بكلمات ساخطة، وضغط على زرّ التلفاز، فاسودّت الشاشة.. أدركت أم اسماعين، التى كانت تجلس بعيدة عنه، أن نشرة الأخبار أفسدت ليلتها، وأنها «هدّت حيل» أبى اسماعين.. فرفعت يديها إلى السماء، قبل أن تردّ اللحاف على وجهها، وهى تدعو على التلفزيونات، وعلى تلك التى تُسمّى مفاوضات!

كل شىء لهم

إلى (كامل) محمد أحمد نزال

سبع عشرة سنة فى المعتقلات الإسرائيلية، وذبحتان صدريتان، ووجه متعب مهدوم، وامرأة تعمل فى مشغل صغير للخياطة، وولدان، وبنت ذات ضفائر كأنها أدغال الغيب.. كل هذا لا يكفى لكى يعود محمد أحمد نزال (كامل) من البلد الشقيق سوريا إلى قلقيلية، ويحصل، مثل باقى خلق الله، على (رقم وطنى)! ولا سبب سوى أنه لم يدخل فى دائرة هذا أو ذاك، ثم آثر السكوت، بعدما اكتشف سطوة الهامش، وعمق البئر السوداء.

ومحمد الذى ماتت أمه آمنة قبل بضعة أشهر، وأردتُ أن أعزّيه، كان غير حزين على وفاتها، رغم أنه لم يرها منذ أن تم تحريره العام ١٩٨٥ فى صفقة تبادل الأسرى، وبالتحديد عند آخر زيارة كانت قد زارته فيها فى معتقل نفحة الصحراوى، لم يكن حزينًا بقدر ما كان محبطًا ويائسًا، وعزاؤه، كما قال لى ببرود مكسور، أنها ماتت فى البلد!!

يا محمد! الذى نقلوه إلى المستشفى بعد الجلطة المباغتة الثانية، يا مَنْ أمضيت عشرين يومًا فى غرفة الإنعاش المكثف بين الموت والحياة، جاءنى صوتك الذابل المرتخى، الذى ينوء بالدمع الذابح على أطفالك الثلاثة، خوفًا من أن تموت فى مخيم اليرموك، وهم لم ينفضوا عن أجنحتهم زَغَب الحمام، وأمهم الغريبة لا تعرف أحدًا. لقد وصل إلى صوتك الرجراج الضعيف تطلب رقمًا وطنيًا كأنه الخلاص الأبدى

الأخير. أخاف يا ابن خالتى ألاّ تحصل عليه، وأخاف أن أبكى كثيراً كثيراً وكلمات الشاعر تطحن قلبى وهى تقول:

كأن شيئًا ما يقول: هنا الحدود.. كأن شيئًا ما يقولُ.. هذا لكل اللاجئين وكلّ هذا لليهود.

سر سعادة مسعودة

إلى عمّ حارتنا «أبو حسّان»

لم تكن «مسعودة» - أم حسّان جارتنا- جذلة ناشطة، والدموية ردّت إلى وجهها، كما يقولون، مثلما هي عليه هذه الأيام! رغم بلوغها الستين، والسبب، كما يتندّر رجال حارتنا، عند كل مساء، في ديوان العائلة، أن أبا حسّان «راجع شباب» ما شاء الله!! ولكن، كيف كان ذلك يا حسين يا أبا حسّان؟

يقول حسين أبو حسّان، وقد بلغ الثالثة والستين من عمره، إنه يعمل في ورش البناء داخل إسرائيل منذ ثلاثين عاماً، وكان خلال تلك السنوات يعود يومياً من الورشة وقد هدّه التعب، ونال منه الإرهاق، فما أن يصل إلى البيت، ويغتسل، ويضع بضع لُقيمات في فمه، حتى يذهب في نومه.. حتى إن مسعودة، أعربت عن سخطها وتبرّمها من عدم اهتمامه «بالبيت» فترات طويلة.. فهو - كما كانت تقول -: من الفَرْشة للورشة!! أما في الفترة الأخيرة، فإن أبا حسان يعود من الورشة كأنه لم يفعل شيئًا، فيغتسل ويأكل ويسهر، ويتابع شؤون البيت كاملةً!! حتى إنّ مسعودة باتت محسودة من جاراتها «الختياريات» على نشاط زوجها.. اللهُ يعطيه العافية.

والسبب يا أبا حسّان؟؟

يعتدل أبو حسّان في جلسته في الديوان، وبعد أن يعيد التحية على الموجودين مرتين وثلاثًا.. ويبشّ في وجه هذا ويهشّ لذاك، ويعيد ترتيب قمبازه ليستر سرواله الأبيض الناصع.. يبتسم، ويصمت قليلاً، ويقول:

كنتُ، وكلما سمعتُ أن العرب والمسلمين سيحققون النصر على اليهود، وتعود

البلاد، كنتُ «يا إخوان» أشدّ حالي، وأحرص على أن تكون العمارة التى نقوم ببنائها قوية ومتينة وجميلة.. لأنها ستصبح «ورثة» لأولادنا.. وللاجئين المساكين الذين سيعودون.. لهذا كنتُ أعود من الورشة تعبًا.. دون حيل. أما عندما كنتُ أسمع أن العرب والمسلمين باعوا البلاد ومشوا فى الصلح «معهم»، فإننى أقول فى نفسى. إن العمارات التى نبنيها هى لليهود، فلماذا أُتعب حالى.. لهذا كنتُ أرجع من الورشة نشيطًا، لم أبذل أىّ جهد.. هل فهمتم، يا جماعة الخير؟!

لكن أحد الخبثاء الجالسين فى صدر الديوان علّق قائلاً: إن تراجع العرب والمسلمين وهزيمتهم لصالح أم حسّان، أليس كذلك يا جماعة؟!

يضحك الجميع.. وما زال أبو حسان نشيطًا.. جداً.

سرير الدم إليه.. دون أسماء لم تكن كل هذه السنوات كافية حتى ترتوى هامة الحقد من امتصاص نسغ الوردة. ماذا يريدون أكثر؟

* * *

منذ أحد عشر عامًا لم تدخل الشمس إلى كوّة الزنزانة، ولم تهجر الحمامة هديلها الحزين، ولم تتنفس الأضلاع فى حواكير البلد، والصغار يذرعون الطرقات غير آبهين بالحجارة التى تشظّت، وأصبحت لعبتهم المشتهاة. أحد عشر عامًا والقضبان تضيق على المساحة المعبأة بالرطوبة والبرد والكوابيس.

كان الأمل الوحيد، وما زال، أن تتم عملية تبادل أسرى فلسطينيين بجنود إسرائيليين، وإلا فستسقط ريشة إثر أخرى من جناح العمر.

وسيقضى السجين «المؤبد» كاملاً، يقدّ عمره ساعة إثر أخرى، على رمل الأيام التى لا ترتوى.

ورغم الحيطة فى اللباس، وترك التدخين، والإكثار مما تيسر من طعام، ورغم الحذر من كسل الكآبة والإصرار على التريّض فى ساحة «الفورة»، فإن خاصرته بدأت تنغص عليه لياليه.

انتقل، بل اتسع وجع الخاصرة ليلفّ كالحزام النارى جذع الرجل، وباتت مسلّات الألم تقحف أمعاءه، وتخيطها بخيوط من مسد.. ولم تفلح نصائح الإخوة والرفاق الذين فشلت كل تنبؤاتهم بماهية مرضه، حتى منتصف تلك الليلة!!

أصرّ المعتقلون الذين وقفوا خلف بوابات غرف السجن، وعلى امتداد «الكارادور» الطويل، على أن تقوم إدارة السجن بنقل السجين الجزراوى الذى يحمل رقم (٤٨٦٧) – حيث المعتقلون أرقام فى سجون إسرائيل– وبعد أن هدد المعتقلون بالإضراب عن الطعام، وتعطيل مطبخ السجن والمغسلة، والاعتصام فى الغرف، والتوقف عن الخروج ساعة فى ساحة السجن والتى تسمى «الفورة»، وعدت إدارة السجن بعرض الجزراوى على طبيب السجن غداً صباحاً.

وبعد ظهيرة الغد سمحت إدارة المعتقل لأسيرين بحمل الجزراوى إلى عيادة السجن، فقام طبيب شاب متباطئًا كارهًا عمله بالكشف على الجزراوى الذى كان يئنّ من ألمه، ويتكوّر كالكرة جامعًا ذراعيه على بطنه، صارخًا بصوت مكتوم، وبعد حين، قال الطبيب لجندى أن يعود الأسيران، لأن الجزراوى سيبقى.

دخلت سيارة «البوسطة» إلى ساحة السجن، وهى سيارة معدّة لنقل الأسرى من مكان إلى آخر، لها نوافذ محصّنة بشبكة حديد، متوسطة الحجم، لها لون أزرق، ومكتوب عليها باللغتين الإنجليزية والعبرية «بوليس» مع نجمة داود الزرقاء.

وضعوا الجزراوى على أرض البوسطة ممدّداً دونما فرشة أو غطاء، وجلس على جانبى مقاعد البوسطة أربعة جنود بكامل عتادهم، ووضع أحدهم قدميه على الجانب الأيسر للجزراوى، حتى يثبته فى مكانه خوفاً من أن يتدحرج عند انطلاق البوسطة، ما شجّع الجندى الآخر على أن يحتل ببسطاريه جانب الجزراوى الأيمن.

* * *

أيها المصلوب بالأحذية الثقيلة على أرض الدورية الشرطية المُوَلْولِة فى طرقات المدن الهجينة، يأخذونك الآن إلى مشفى «المعبار» حيث الوجوه نافرة، والضمادات

سياط، والإبر شواظ من نار، سيشقون بطنك في هذا المشفى القميء الذي لا يصلح للكلاب.

هذا «المعبار» الذي كان اصطبلاً لخيول الانتداب جعلوه، بعد أن دهنوه بالأصفر ووضعوا فيه خمسة أسرّة، مشفى لعلاج ثمانية آلاف أسير فلسطيني وعربي.

عليك أيها الجزراوي أن تكون في مجزرة «المعبار» لحمة تصلح لموس الساديين. وعليك أن تتحمل كل التوقعات والاحتمالات، فربما ما قالوه عن «المعبار» صحيح. فهل سيكون لحمك صالحًا لاختبار دواء جديد؟ أم أنهم سيدربون الأطباء الجدد على ساحات بطنك وشقوق أمعائك؟ أم أنهم سيحقنون شرايينك بفيروس غامض يأكل بدنك، ويهشّم عظامك، ويحيلك إلى حفنة من عدم؟

لا خيار أيها الجزراوي إلا أن تحتمل، فالرب واحد، والموت واحد.

* * *

استيقظ الجزراوي بعينين غائمتين، فرأى أول ما رأى قطًا أسود يتبختر بين الأسرّة على الأرض الكابية، ودخلت عليه «خاتولا» الممرضة الخلاسية التي لها بشرة الرضيع، ووجه التفاح، ومن دون أن تكلّمه وضعت ميزان الحرارة في فمه، ومسكت رسغه بأصابعها، ثم ذهبت.

هل هذه الممرضة يهودية؟ كيف لها أن تكون بهذه البشاشة؟ ألم تنتبه، أيها الجزراوي، إنها أحضرت صحن الفاكهة، وبدأت تضع الموز بين شفتيك، وقطع «الكاكا» بين أسنانك؟ ألم تلحظ غصن يدها وهو يمسح وجهك وأنفك وفمك بمنديل مبلول؟ ماذا تريدين يا «خاتولا» مني؟ لقد قتلتُ ثلاثة جنود من جيش أسبارطة الذي يحتل أرضي، فكيف لك أن تكوني أمّا صغيرة أو غزالة تخرج من أدغالها لتحرس عافيتي بهذا الحنان؟

* * *

تأتى «خاتولا» لتبدّل الشاش الغارق بالدم واليود، وتمسح الجرح مراراً، فلماذا تسرى تلك القشعريرة فى بدنك يا جزراوى؟ لعلك تبالغ فى أن «خاتولا» لمست عشك؛ أسفل بطنك بيدها، ربما كان ذلك عارضاً غير مقصود، لكنّ «خاتولا» أعادت الكرّة غير مرّة، حتى شعر بيدها تسحب الغصن من كيس لحمه وتمسده، فلماذا استسلمت يا جزراوى؟ هل كنت تحلم؟ أم كانت «خاتولا» تختبر فحولتك، أو ردّة فعل فحولتك، لأن العملية الجراحية على صلة بجهازك التناسلى؟

لا! إن «خاتولا» تتعمد أن ترشّ البرق على رجولتى، وكادت تمرّغ فحولتى على شفتيها، لولا أننى أسندت ظهرى ودفعتها بغير وعى منى، لقد حاولت بالفعل، ولم تكن تلك تهيؤات المرض، أو مغالطات الخدر، فماذا سأفعل؟

يحق للجزراوى، ابن التاسعة والعشرين عاماً، أن يخشى كما خشى يوسف من زليخة، لكنه كاد يهوى فى «شُبّاكها» الذى سيؤدى به إلى السقوط. إن «خاتولا» هى الطُعم الذى سيأخذنى إلى الزرد المميت والقيد الحقيقى. لا.. يا «خاتولا»، لن تأخذى قلبى إلى غرف الخيانة، ولن تجعلنى شهوتى خائناً حتى ولو كانت لك عينا الخروبة الحلوة، أو كنت خارجة لتوّك من دغل الضباب مبتلّة الضفائر، حمراء الوجنتين، مندفعة الصدر.. ولك أصابع اللبلاب وشفاه طفلة.

لا.. يا «خاتولا».

لكن «خاتولا» تدخل على الجزراوى، وهى طلقة الوجه، فيبتشّ لها، تتشاغل بجرحه والاطمئنان عليه، وتمرّر بظهر يدها أعلى بطنه حتى تصل إلى ذقنه، وبكلتا يديها تحتضن وجهه الساخن وتقبّله، ثم تتركه بدلع مفرط، وتغلق الباب وراءها.

لقد هزمتك يا جزراوى!

لا، لن تهزمينى.

بل هزمتك!

حمل الجزراوى نفسه ودخل إلى الحمام، ونظر إلى المرآة، وهو زائغ دائخ.. ودون أن ينظر إلى الأسفل، أنزل بنطال بيجامته وسرواله الداخلى، وبيده اليسرى مسك عضوه ومطّه إلى الأمام، وبيده اليمنى حمل شفرة الحلاقة وهوى بها.. وصرخ!!

ربما سمعوا صراخه، ربما أسعفوه، وربما مكث شهراً آخر فى «المعبار» لم ير فيه «خاتولا»، لكنه عاد إلى السجن منكسراً، حتى اعتقد الأسرى أن أطباء «المعبار» حقنوه بمرض غامض، جعله ينزوى وينكفئ على نفسه.

وفى صبيحة هذا اليوم، استيقظ الجزراوى بكامل عافيته، حيث حمل الفوطة واتجه إلى مرحاض غرفة السجن، خلع ملابسه، وفتح صنبور الماء، فهبط من ماسورة معلّقة فى السقف ماء بارد، استحم الجزراوى، وأصبح بإمكانه أن يصلى صلاة الفجر جماعة مع المعتقلين الذين انتظروه حتى يزيل جنابته.

صلّى الجزراوى الصبح، وفتح ذراعيه إلى السماء، وبعد أن تمّمت إدارة السجن «العدد»، وتناول المعتقلون فطورهم، كان الجزراوى يجلس مع اللجنة الوطنية للمعتقلين التى تقود الأسرى، يحدّثهم عن «خاتولا» والقط الأسود الذى كان يتبختر بين الأسرّة.

شقة محمود فى بيت سميح

إلى أستاذى د. إبراهيم السعافين

وأخيراً، حصل صديقى وأستاذى الدكتور إبراهيم السعافين على «تصريح زيارة» إلى «مناطق» السلطة الفلسطينية. فرح حتى اختلطت مشاعره، وحضرت قصص أبيه وأُمه عن الفالوجة و «مقام سيدى أحمد» و «الضبع الأسود» و «سوق الخميس» و «أم النعاج»..

وأمضى ليلة سفره الى فلسطين قلقًا، استعصى عليه النوم، وجاءت اليقظة كاملة ناشطة.

لعله غضّ الطرف عن «لغة» التصريح التى كانت بالعبرية الفصحى، غير أن التواريخ كانت بالعربية البائدة، أو بالإنجليزية الحديثة الرشيدة!

وصل إلى الجسر، ودخل رام الله!! تجمّدت أحاسيسه كالتمثال الهشّ أو عرائس الجليد. وفى نهاية السهرة الأولى، عادت إليه حرارة الوعى، فبكى حتى رأيته طفلاً ضاع من يد والده.. وتاه.

فى بهو فندق رام الله الصغير، وجدته صباح اليوم التالى فى كامل زينته وأناقته، وبادرنى بالقول: إلى أين سنذهب.. طبعًا إلى الفالوجة، ها؟!

قلت: اليوم الجمعة، وسنذهب إلى حيفا وعكا والرامة لزيارة سميح القاسم، فقد اتفقت معه ليلة أمس على ذلك، فثمة دعوة على الغداء على شاطئ عكا.

ركبنا السيارة، وخلال ثلاث ساعات طوال الطريق كان «مجمّدًا» وحادًا فى كلماته القليلة التى تنطلق من فمه كالشهب الصغيرة الحارقة، لم يكن مصدّقًا لما يرى، ولم

يستوعب ما سمع وما لمس وشاهد!!

وصلنا إلى حيفا؛ من «وادى النسناس»، الذى تتوّجه «قبة البهائيين» ودرجها الأخضر المعجز إلى «الحلّيصة» فـ «الميناء»، وقصدنا عكا مروراً بـ «كريات آتا» و«موتسكين» و«كريات بيالك».

– هل تعرف مَنْ هو بيالك؟

– لم يُجب.. كان شارداً.

– قلت: بيالك شاعر صهيونى كبير، أطلقوا اسمه على أكبر شوارع مدنهم الجديدة، وها هم يقيمون مدينة تخليداً له!! فردّ فوراً:

وشعراؤنا يموتون فى المنفى!!

.. فى عكا، دخلنا جامع الجزار، وبعد صلاة الجمعة، ذهبنا بصحبة بعض الأصدقاء لتناول السمك قبالة الأسوار المقهورة التى قهرت نابليون ذات يوم.

وليتنا لم نذهب، لقد حوّل الساعتين ولحظات الجلسة الخرافية الرائعة إلى مناحة كربلائية.. على عكا وأهل عكا.

وأخيراً، وصلنا إلى الرامة التى تحمل فى يمينها البحر الأبيض، وفى يسارها بحيرة طبرية التى لها بطن الغزال، لنجد فى بيت سميح الشاعر الكبير محمود درويش وعدداً من مبدعى فلسطين ١٩٤٨.. ولتجتمع دهشة محمود درويش الذى لم يزر رامة سميح القاسم منذ أربعين عاماً، مع دهشة إبراهيم السعافين الذى يدخل الرامة وشمال فلسطين للمرة الأولى.. فالتغيرات و«الهضم الجغرافى» هائل ولا يمكن تخيّله.

وفى بيت سميح القاسم، هناك على تلة «جبل حيدر»، الذى يُشرف على البحر والجليل والبحيرة، قال القاسم: تعالوا معى، أريكم الغرفة التى بنيتها لمحمود منذ ثلاثين عاماً ليقيم فيها وأسميتها شقة محمود، وأضاف مشيراً إلى محمود: انتظرتك طويلاً هذه الغرفة يا صديقى!

كان المشهد مشحونًا ومحتقنًا بالمشاعر التى لا توصف عندما أشار سميح القاسم من نافذة بيته الغربية إلى تلة قريبة مزدحمة بالخضرة، عالية ومشرفة، ثم قال: هناك سأُدفن، هناك سيكون قبرى.. وسأظل مشرفًا على البحر من جهة اليمين، والبحيرة من جهة اليسار.

فى اليوم الثالث، ذهبنا إلى الخليل فى طريقنا إلى الفالوجة، كان يريد أنْ يرى مسقط رأسه، بعد واحدة وخمسين سنة من الغياب والهجر، ولكن تصريح إبراهيم السعافين لم يمكنه من الوصول إلى الفالوجة، فتصريحه يسمح له فقط بدخول «مناطق» السلطة الفلسطينية وليس دخول «أرض إسرائيل»! وهكذا واجهنا حاجز إسرائيلى منعنا من رؤية الفالوجة.. لتظل حتى هذه اللحظة مكانًا متخيلاً، يكبر ويصغر، يبتعد ويختفى ويظهر، حسب أحوال الروح.

عدنا إلى مدينة الخليل لنصلى فى الحرم الإبراهيمى الشريف، هناك حمله والده قبل ثمانية وخمسين عامًا ليسمّيه باسم النبى العظيم إبراهيم أبى الأنبياء.

وعلى مدخل الحرم الإبراهيمى، شاهدنا عشرات المستوطنين، بتلك القامات النحيلة، والبنادق الثقيلة، واللحى الطويلة، والعيون الممتلئة حقدًا وشرًا وشراسة، فمنعونا من الدخول للصلاة، ناقشناهم قليلاً، فإذا بفوهات البنادق تنتصب، ولهجة الكلام تشتد.. لم ندخل ولم نصلّ، وعاد صديقى بخيبة أمل شعرتها على أطراف أصابعه.

فى طريق العودة إلى رام الله، كانت المستوطنات المزروعة على أكتاف الجبال والهضاب المحيطة بالطريق تترك أثرًا عميقًا ومؤلمًا فى القلب.

لا شك أننا فكرنا معًا، عبر صمتنا ذاك، بغرفة محمود درويش فى بيت سميح.. تلك الغرفة التى تبدو أكثر اتساعًا وعمقًا من كل هذا.

دمع الثلج الساخن

إلى كل غريب

لم أعرفه، ولم أعدّ أتذكّر شيئًا منه، غير أن حجر الدمعة تلك ظلّ في حلقي حتى الساعة، بل ليتني أنسى جريان نهنهة دموع امرأته التي أحالت تلك الجلسة إلى «حفلة» نشيج وحنين مجنون.. وبالتأكيد لا أدرى أين هو الآن، أو ماذا كان اسمه.

كُنّا وفداً يمثّل اتحاد الكتّاب الفلسطينيين في مؤتمر للمبدعين دعت إليه إحدى الدول الاسكندنافية في ربيع ١٩٩٣، حيث الثلج يلد خضرته الغامقة، ويغسل، دون قصد، البنايات والشوارع ووجوه الناس.

وقبل سفرنا بيوم، دعانا سفير فلسطين هناك إلى بيته، وعند نزولنا من سيارته، قبالة البناية التي يقطن فيها، التقى السفير أحد معارفه صدفة، على ما يبدو، فاتّخذا زاوية يتمتمان فيها، ويسأل كلاهما الآخر عن أحوال وأمور. وفجأة، تقدّم ذلك الرجل بخطوات واسعة، وعانقنا دون سابق إنذار، وراح يُقبّلنا، كأنه يشمّ فينا شَعر أشقائه الذين فارقهم من عشرين عاماً.. فتراخينا له، وبادلناه العناق بأحسن منه.. ما أمكننا ذلك.

فتقدم السفير وعرّفنا بـ «أبي أحمد» اللاجئ السياسي الذى فرّ من بلده العربى، بعد أن قضى النظام البوليسى هناك على اثنين من أشقائه، وسجن والده! واستطاع أن يصل إلى بلد عربى آخر مجاور، وكان أنْ تزوّج ابنة صاحب البيت الذى استأجره، قبل أن يفطن النظام الآخر ويطارد أبا أحمد وعروسه.. ويفرّا لاجئين إلى هذا البلد الاسكندنافى البارد.

أصرّ أبو أحمد على أن «يعزمنا» إلى بيته على الغداء، فاعتذرنا، لكن إلحاحه وإلحافه وأيْمانه الغلاظ حالت دون أن نفلت من دعوته، حتى إننى لم أرَ رجلاً يدعو بطريقة أبى أحمد الطاغية والبسيطة والمباشرة، كأنّه يعرفنا منذ قرون، والتقانا بعد غياب هائل! نظرنا إلى سفيرنا لعلّه يجد لنا عذراً، أو يساهم فى تغيير وجهة نظر أبى أحمد، لكنه أوحى إلينا بالموافقة.

وصلنا ظهر اليوم التالى بمعيّة سفيرنا الطيّب الأنيق - وبعض السفراء يتمتعون بهذه الصفات- إلى بيت أبى أحمد، ودخلنا خَمْسَتُنا شقته، فاستقبلنا ابناه وابنته، وكان عمرهم يتراوح بين ثمانى سنوات واثنتى عشرة سنة، وأوسع لنا أبو أحمد فى صالون بيته.. وانتبهنا أن طاولة الطعام الموازية للصالون مُغطّاة بالصوانى والصحون، ولم نجلس تماماً، حتى جاءت أم أحمد تؤهّل وتسهّل بنا، فوقفنا ورددنا التحية باحترام بالغ يساوى دفء ترحابها وتهليلها بزيارتنا ودخول البَرَكَة إلى بيتهم، وأعترفُ أن لسانها الطَلَق أخجلنا وأحرجنا، لأننا لم نستطع أن نجاريها فى المجاملة واللطف وشهد الكلام الصادق الكريم.

جلسنا إلى المائدة، فأصابنا الحرج، لقد بالغت أم أحمد فى الكرم!

ثمة ستة أصناف رئيسة من الطعام؛ مقلوبة، وبامية، وورق دوالٍ وكوسا، ودجاج محشو، وملوخية، ورز مفلفل مع لحم ولبن عدا القُبّة والسلطات والمتبّلات والمخللات وأصناف الحلوى والفاكهة و... بدأنا باسم الله الأكل، لكننا توقفنا جميعنا عن المضغ، وأسقطنا الملاعق من أيدينا عندما شاهدنا أم أحمد تقف على رأس الطاولة تحمل فوطة المطبخ بيدها، وتنظر إلينا بفرح أو دهشة -لا أدرى- وتبكى بصمت.

قلتُ لها مباشرة: ما بك يا أم أحمد، ألا تجلسين لتشاركينا الطعام؟

لكنها كانت زائغة، ولم تنتبه إلى كلامى، فازددتُ حرجًا، وأفلتُّ الملعقة تمامًا من يدى.. قال السفير مازحًا وهو ينظر إليها: يبدو أنك تبكين على الطعام الذى لن يبقى منه شىء.

حاولنا أن نضحك لنزيل بذلك غمامة البكاء الذى ارتفع صوته، إذ إن أم أحمد انفجرت بالبكاء إلى حدّ أن أحداً لم يعد يجلس على كُرسيّه، أو يدرى ماذا سيفعل، ثم رأينا أبناءها الثلاثة يتعلّقون بها ويبكون، فيما وقف أبو أحمد عند زاوية الصالون يمجّ نار سيجارته ودموعه تتساقط.

بعد نصف ساعة أو يزيد، هدأ روع المرأة، وتقدّمت إلينا برجاء جديد أن نعود إلى المائدة، فاشترطنا، بمحبة ورجاء، أن تجالسنا.

لعلنا أكلنا، وربما رأينا أم أحمد تأكل، لكنّ خيطىْ دموعها لم ينقطعا، فتسارع لمسحهما، لكنهما يدفقان من جديد، بصمت.

– من أين يأتى كل هذا الدمع للإنسان؟!

فى الصالون، كانت قوالب الحلوى والفاكهة والكولا والقهوة والشاى، وكل شىء جاهز ونظيف ومرتّب، وراحت أم أحمد تضع فى الصحون وتصبّ فى الفناجين وتوزّع علينا، كأنها ترجونا أن نأكل ونشرب، وأصبحت الجلسة أكثر إلفة وحميمية وصراحة، وامتدت أكثر من خمس ساعات.. وخرجنا، لأنه لا بدّ من الخروج، لأننا كنّا نريد أن نبقى مع أسرة أبى أحمد حتى تقوم الساعة.

قبل أسابيع مرّ شهر رمضان وعيد الفطر، ولم يطرق أحد باب أبى أحمد. جلس الأبناء بملابسهم الجديدة فى الصالون، والكعك والفاكهة لم تلمسهما يد! وأبو أحمد لم يجد مكاناً يذهب إليه، ولم تسمع أم أحمد وقع أقدام خارج باب الشقة، ولم يرنّ جرس الهاتف، ومنذ عشر سنوات لم يدخل عربى شقة أبى أحمد باستثناء السفير وصديق قديم هاجر إلى كندا، ولم تحظ أم أحمد بجلسة رمضانية أو عيدية أو أرجوحة لأولادها الذين يتعلّمون النطق بالعربية منها ومن زوجها، ومن المحطّات الفضائية العربية! إنّهم لا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد، وتخيّل –تقول أم أحمد– لو جرى لى أو لأبى أحمد مكروه، ماذا سنفعل، وماذا سيجرى لهؤلاء –وتشير إلى أولادها– وتبكى.. فنبكى.

لم أرَ للكآبة والحزن اليابس وجهًا مثلما رأيته فى سحنة تلك المرأة، ولم أبكِ على صغير مثلما بكيتُ على تلك الوجوه الواجمة الصغيرة التى لا تعرف عن وطن آبائها وليل البلاد وأعيادها شيئًا.. غير النقاش المقتضب المكسور الدائر بين هذا المنفىّ وزوجته التى أودى بها الحنين.

ولا أدرى لماذا أرغب فى البكاء والصراخ المجنون كلّما تذكرت عائلة أبى أحمد، أو لماذا أتذكرهم الآن، غير أنى أرى فى يقظتى الآن ملايين الوجوه الطالعة التى يهدمها ضبابٌ وجدران وبرد وغربة لها قسوة لا تشبهها قسوة الحاجة، أو الموت، أو حتى قسوة المرض الممضّ العضال.. وسلامات يا أبا أحمد.

أيتام العرب

إلى العرب.. الأيتام

القلم..

ليس له بداية أو نهاية، إنه ممتدٌّ كالغناء أو الحزن أو الجنون، يبدأ مع يمام الصباح وينتهى مع صداع الكأس والسهرة الشهيّة، فيه حنّاء الجنة وعرق الأجساد الخاطئة، لاذع كالخيبة والذل والحاجة، وطافح كعين الماء أو فرحة العروس، يدخل إلى حضرته الطاعن والرضيع والقدّ المهدّم اللعوب، مثلما يخرج منه الناس أجمعون، فيما تظلّ الرغبة فيه ما لم يهيمن سلطان النعاس الغامض، يعكس العسل المتدفق من الشعراء أو الذين تعبوا من الظلام والأصفاد، لكنه قابل للتبديل، ويؤسس للنفاق، بل هو جسر التزلّف والانكسار، له بوابات لا تنتهى ونوافذ مضيئة، مثلما يترك بعضَ أعضائه للزمان والباحثين، بعضه أودى بصاحبه غير مرّة، وأكثره للأسواق والعبيد، ومَنْ يمسك تلابيبه يغرِ بالخلود، أنيق يتفلّت منه الطيب، وسفيه إلى حدّ السفاح، يندفع كالفهد، أو يتمهّل كالأسد الريّان، أو ينام كالرماد فى حضن المواقد.. وتذروه الريح، نتشرّبه مع الحليب وفى الصفوف أو فى بيوت العبادة، ومن دونه لا حياة. يغار عليه أبناؤه الذين استولدوه وكان أباهم وجدّ جدّهم، وفى حال قوتهم واشتداد عودهم يفجرونه بعبقرية إلى أن يصبح العُرى احتشامًا ومهابة، وفى حال تشظّيهم وتخلّفهم يتلهّون به، ويصبح معينهم فى التبرير والتزوير، وعندما يحطّ الخراب ويعلو حطامه ونواحه يتداخل كالألوان حتى لا تستبين لونًا واضحًا.. وما هى إلاّ أيام حتى يصفو ويظهر قوس قزح فى فضائه المديد، هو صلاة التائبين وجرأة الخارجين على العادة والنمط والهندسة المعروفة، مثلما هو لحمنا دون شرايين، وعظامنا دون دم أو نخاع،

هو غذاؤنا دون قمح أو لحم أو توت من شفاه النساء الصغيرات، إنه شكلنا الخطأ وقامتنا المنتصبة ورغبتنا في الصراخ على الحواف وفي مغاوير الجمر والشهد في الجسد، إنه نعمتنا ولعنتنا، كائننا الذي لا يهرم أو يموت. يحاول الأصحاء منا أن ينقوا بيدره من الغبار، ويذيبوا ذهب أعمارهم على صفائحه ليظل سيفه قاطعًا، وحدّه لامعًا، وجفنه مُخضلاً من الفرح والاكتفاء، إنه أضلاع الخطاب وفؤاده الواعي.. إنه الكتاب المحفوظ وجامعنا الواسع الباقي.. لكننا، رغم كل هذا، تركناه كاليتيم.

السيف..

عزيز قاطع مانع، مصقول بالنار والرقاب، يحمي الأنفة والكرامة والحُرمات، أعزّ الأعزاء، وأذلّ الأذلاء، أشعل النار في الرمال، وأطفأ الأثافي في بيوتات الخنوع، حمحمت له الخيول وعلا صهيلها الأنيق الموّار، وفتح المدائن مثلما حمى الثغور، تمنطقه الرجال فنافح، وهو في غمده عن حمام الدار ونخيل الواحات، وأشاع الزفة والسامر في ليل المضارب والبلدان.. هو ندّ القلم ومكمله ليكون البدر تمامًا في السماء، أعتق الرقاب ومنع الجوع والجور، أسس للخلافة والفتوحات، وأقام الحدود، وقارب بين شطري المستحيل، هو قابلة التاريخ وأغنيته وهمّته وبطشه وحكمته وعدله، وبدونه كُنّا سنغترب عن جذرنا وأضاعونا في الأصقاع، وأصبحنا الهنود الحُمر قبل مئات السنين وقبل أن يحلّ الأبيض الباهت على جديلة العذراء.

هو الأصدق من الحبر والأنباء، وهو رمز المنعة والدفع عن الحياض، رافع الظلم وكاسر الظلام، إن جاء وقته لا ينفع عنه بديل، فهو مرود عين الخنساء ومشطها العاجي، ومهلهل الجدران قبل أن يهلهل الزيرُ القصيد، وعُرس عنترة الصعب، وموائد الطائي وحصانه المذبوح للضيوف، به تكتمل الزينة والزغاريد وتفوح الأزرار وتختلج الغلالة على حياء مقصود. إنه منديل الدبكات وسراج الشيوخ الذي يردّ الغيّ والغرباء والطامعين، إنْ أصابه الصدأ يموت صاحبه وتُسبى نساؤه، وتهرّ عليه الكلاب، وإنْ شحذه حامله يصل الأعماق ويركب النجم البعيد ويدرك الندى والزهو والرضى،

ولا يطلع الحبق إلاّ من جرابه، ولا يشرب الصقر إلا من شفراته، من أضاعه ضَاع ويكى كالنساء.

ربما يحمل به قاطعُ الطريق على القافلة أو هودج الحُرَّة البتول، ويقطع به الوحشُ رأس الصغير أو الطير البرىء... لكنه إذا تساوت الرماح والقواطع فالغلبةُ للإيمان والحق... ونحن أضعنا ذلك... وتركنا الحامى مثلومًا لا ينفع عكازًا أو لنهشّ به على الأغنام... لقد تركناه... رغم كل ما ذكرناه كاليتيم.

وثمة أيتام آخرون ضاق بهم تاريخنا.

.. كانوا ثلاثة رجال

إلى الشقيرى والنبهانى والحسينى

حيوان الإسفنج البحرى حيوان عجيب، فقد احتار فيه علماء البيولوجيا قديماً، إذ اعتبروه نباتًا لأنه ثابت لا يتحرك، وينمو كما الأشجار، حيث إن كل قطعة منه، مهما تناهت فى الصغر، تمتلك القدرة الكاملة على النمو من جديد، ومرت قرون طويلة قبل أن يكتشف العلماء أنه حيوان ذو قدرات هائلة على النمو والحياة والاستمرار.

قدرة الإسفنج هذه على الحياة فى كل الأماكن، وتأسيس مجتمعات بعيدة ومختلفة، وتطوير هذه القدرة على البدء من جديد، تشبه فى وجوه ما حالة الفلسطينيين الذين منعوا من التطور الطبيعى، مثلما منعوا من التناسل والحياة على أرضهم، وأجبروا على الحياة بعيداً.. عن منابع المياه والسهول والجبال والمغاور والأسبلة.. فحمل الفلسطينى مكانه فى قلبه وتشرد تحت كل كوكب.

هذا التشرد، وهذا التشظى، لم يخلق تاريخًا فلسطينيًا واحداً، ولم يخلق حالة فلسطينية واحدة، بل خلق حالات وتواريخ، وحتى ذاكرة متعددة، وبعيداً عن الرومانسية المفرطة أو النظرة التسطيحية، فإن هناك مصالح متضاربة فى بعض الأحيان!!

ومن هذا المنطلق تبدو بعض المحاولات فى العودة إلى تاريخ ما قبل ١٩٤٨ كأنها محاولة توحيدية وتأطيرية وتجميعية للذاكرة والتاريخ والثوابت. ومن هذه المحاولات الاحتفال بالشعراء والكتاب والأمكنة الفلسطينية التى درست أو انطفأت.

ومع كل هذه الجهود الطيبة، إلا أننى لحظت تغييب أسماء أخرى كثيرة، غابت أو غُيِّبت بسبب السياسة مرة، أو الأيدلوجيا مرة أخرى، أو بسبب عدم الانتباه أو عدم استحضار الذكرى.

من هؤلاء، وعلى رأسهم، السياسى والمناضل الفلسطينى أحمد الشقيرى، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، الذى عاش حياة حافلة بأشكال النضال العسكرى والسياسى، واستطاع، لأسباب عديدة، أن يدفع باتجاه إقامة المنظمة وجعلها مظلة سياسية للفلسطينيين. وبالتأكيد، لن نحمله عبء الفشل، فقد كان ابن الستينيات أيام انفجار المد القومى بسيئاته وحسناته، وسيبقى الشقيرى فلسطينيًا انشغل بالمتاح وتعامل معه، وأسّس عليه، وبالتالى فهو ليس ابن رحلة فاشلة، وإنما كان نتاجًا طبيعيًا لمرحلة شعار عريق وكبير وطموح.

المفكر الفلسطينى الثانى الذى غُيّب تمامًا عن الأدبيات الفلسطينية أو الإشارات الثقافية هو الشيخ تقى الدين النبهانى، مؤسس حزب التحرير الإسلامى، وأحد أهم المفكرين الذين حاولوا، بصدق وجد وإصرار، الدفع بالفكر الإسلامى السنى إلى أقصى حالات تناقضه مع السائد والشائع، وهو كذلك أحد الذين هضموا بشكل يدعو إلى الدهشة تراث الأشعريين، ومن ثم ابن تيمية ومدرسته، ليجابه به الفكر العلمانى وما نتج عنه من أنماط تفكير وتنظيم وإدارة. المدهش فى الأمر أن ذكر النبهانى غائب تمامًا فى الإشارة إليه أو التعريف به - حتى إننا لم نُطلق اسمه على شارع أو مدرسة أو نادٍ ثقافى-. الفلسطينى الثالث المغيّب هو الحاج أمين الحسينى، الذى غيب إلى الدرجة التى يذكر فيها اسمه مع الشعارات الهوجاء، والعمل السياسى الفاشل، والتحالفات المغلوطة.

ولكن الحسينى استطاع يومًا ما أن يجمع معظم أهل فلسطين تحت لوائه (سيف الدين الحاج أمين)، واستطاع أيضًا أن يقود ثورة هذا الشعب، وأن يضع قضية فلسطين تحت كل الأنظار.

هل فشل الرجل؟! وماذا يستطيع رجل أن يفعل أمام تاريخ «مقرر» سلفًا؟! هل يستطيع رجل مثله أن ينسف اتفاقات العامين ١٩١٦ و١٩٢٠؟!

كان رجلاً سيئ الحظ بكل المعانى، وذهب يحمل سوء حظه وقلة حيلته أمام تاريخ له قوة غاشمة.. فى ظرف ردىء إلى أقصى الدرجات.

ما نقوله إن شعبنا، ككل شعب آخر، فشل فى نضالاته مرة أو مرات، حاول وجرب، أنجب رجالات، وخاض تجارب وصراعات، ولكن إرادته أكبر من حجمه، وإيمانه أكبر من واقعه، وطموحه أعلى من قامته، وهذا لا يعطى الحق فى النسيان أو التجاهل أو التغييب، إنهم فلسطينيون.. عاشوا كذلك.. وماتوا كذلك.. أليس كذلك؟؟

عن اختفاء الشاعر

إلى مَنْ يشبه لوركا

تصعدُ إلى سماوات البلد، لترى آثار أُمّةٍ اندحرت وباد أهلها، وبقيت «الحمراء» و«القصبة» ومِزَقُ البساتين التى كانت تضوِّعُ الأرض، تلك غرناطة الباقية رغم الإهمال والانكسار العنيف. هنا غرناطة، مرآة الأندلس والشغف العملاق.. الذى ما زال يتبختر ويصحو فيها.

وهنا الأعناق المعجونة بالسوسن، أو المذبوحة والمغطّاة بالثلج، وهنا كان الشاعر غارسيا لوركا.. الذى رغب فى أن تحرقه العاصفة.

أمّا القصّة من أوّلها، فإنها تبدأ مع الطفل «ريكاردو» الذى كان يحبّ الشِعر، وكان التقى لوركا فى كواليس المسرح، ليوقِّع له الشاعر الكبير لوركا ديوانه ويرجوه ألاّ ينساه. ربما كان لوركا طفلاً، أيضًا، كما كان ريكاردو.

ولمّا اشتعلت الحرب الأهلية وراح جنود «فرانكو» يقيمون هضابًا جديدة، هى القبور الجماعية للأبرياء المذبوحين من أهل غرناطة، عاد لوركا إليها، ولمّا لامته أمُّهُ على العودة وسط هذا الطوفان الذى لا يرحم، قصّ عليها ما قاله الخادم لسيّده عن الموت فى بغداد.

ولأن ريكاردو أراد أن يرى لوركا مرّة أخرى، اصطحب معه، وسط انتشار البنادق والموت، صديقه الطفل خورخى؛ ابن الضابط الذى كان يعطى الأوامر لقتل الناس، فجاءت رصاصات الجنود لتحصد أطفالاً كان خورخى من بينهم، وعندها لم يجد والده «العقيد ماناويل» الدمع الذى سيطفئ عذاب ضميره!! لكنّ ريكاردو حمل ذلك

الكتاب الذى وقعه له الشاعر لوركا، وألقاه فوق نعش خورخى.. ليدفن كتاب الشاعر مع الشهيد الصغير.

وفى غرناطة التى احترقت جدرانها، ويتّم جنودُها أبناءَ شقيقة لوركا، قال للذين جاؤوا لاعتقاله: لن أرضيكم بإظهار خوفى لكم! مثلما قال لقاتله سينيتينو: أين قمرى أيها القاتل؟! لكنّ القاتل، وبعد أن أطلق الرصاصة على رأس لوركا، غرز أصابعه وأخرج الرصاصة، ثم ألقاها فى كأس نبيذ وهتف: إنه دم شاعر.. بصحتك أيها العقيد!!

غرناطة! مَنْ يرك يتذكرك.. يا مدينةَ المسْك والأحزان، لماذا لم ترحمى ريكاردو؟ ولكنْ هل شفعتِ لشاعرك حتى ترحمى طفلك؟؟

غير أن طفلك يتبع شغف فتاةٍ تزهر لتصبح كل الغجريات، ويمضى وهو يتحسس فَراشةَ قُبْلتها على جبينه، وسيلتبس الأمر فى ذهنه؛ كيف لصاحب المطبعة «لوزانو» الذى أمر باعتقال لوركا حين كان ضابطًا أن يعيد طباعة أعمال لوركا الكاملة، ربما هى المفارقة الذابحة التى دفعت الضابط إلى أن يقتل الشاعر، ويُعيد طباعة أعماله الكاملة، ولا تناقض فى الأمر، لأنه لو لم يكن يفهم شِعره جيداً لما أمر باعتقاله وقتله.

وكظلّ، تتّسع زهرةُ الموت، وتصيد بأريجها النافذ قلوبَ كل من عرفوا الشاعر، وربّما انفتحت قلوبهم كالزهرة تحت سماء شعره، لكنهم عندما صمتوا، واستمرأوا اغتياله، وخافوا من أن ينبسوا ببنت شفة أمام جبروت الموت الظالم، جاءت طعنةُ الثور نهائية، لكنهم لما يسألوا الثور الهائج: أين قمرى؟

ويا غرناطة! إن ولادة طفل أندلسى مثل لوركا تبدو مسألة مشعّة، ومختلفة وأنيقة، إلى حدّ يصبح فيه موت ذلك الطفل الشاعر بسالة مرحة، ويظل ريكاردو فى كل مكان، يبحث عن سرٍّ اختفاء الشاعر، مثلما يبقى والده الضابط مصاباً بعجز كامل عن إجابة سؤال الشاعر الغامض: أين قمرى؟

ومـا زال الصـدى يردّد السـؤالَ فـى كل أرجـاء هذه المعـمـورة، من غـرناطة إلى بنجامين مولويز.. إلى كمال ناصر.. وإلى آخر بلد سيشهد موتًا جديداً لآلاف لم يعد بالإمكان إحصاء هضـاب قبورهم الجماعية، من غرناطة إلى فلسطين، وإلى ما شاء الموت.

أنفاس الأيل

إلى رام الله

ثمّة بلاد أخرى خارج بيت العنكبوت، أيها الفتى!

وثمّة نساء مكتملات يفضن بالجبنة والرمّان الحامض، وفى تلك البلاد سماء أخرى من بحرٍ شفيف يفضفض بالندى والنسائم وحمائم القرميد المعتّق.

مدينة صغيرة بحجم القلب، لكنها أميرة المدائن، كانت حلمًا مُشتهى، نلوب كى نكسر، فى أحلامنا، جرارَ الشهوة، ونلتقى البياض والجنون تحت أشجارها المسحورة. وتحيلنا المدينة إلى كائنات مسّها الهوس فجأة، لكنها تكتسب رغبة الانطلاق والاختلاف، فنخلع ثوب القرى باتجاه بوابات المدينة المشرعة، ونمشى الخيلاء خفّة وعياقة، مسرعين تحت ظلالها الهادئة، قبل أن تهجرنا الغفلة، ونصحو على فجيعة الحياة ومآسيها الثقيلة، وقبل أن يلفّقوا لهذه المدينة علبًا حجرية جديدة أضاعت صدرها المعشب وبساطها الباذخ ونوافيرها التى تحتفى بالطيور. وثمّة ضواحٍ جديدة جعّدت أجنحتها كأنما تجرّأت عليها السنوات، ودهمها الهرم، فاكتسبت مع الضوضاء غلظة، واغتربنا فيها قليلاً، وغارت أحلام الصبا!

وبقليل من الخطوات والإمعان، تلمع الطفولةُ ثانية فى أحيائها القديمة، وتبزغ مليحةً، كما كانت، رغم كل شيء.

رام الله.

* * *

نخرج من قوقعة الريف إلى فضاء المدينة التى ستجمعنا طلاّبًا فى جامعة بيرزيت، وتكون أمّهاتنا قد أعددن لنا ما تيسّر من حوائج البيت، وبعض الملابس الجديدة المضحكة، ووصايا لا تنتهى. ندخل الجامعة وتستقبلنا المدينة برسوخها واثقةً مطمئنةً فنتعرّف إلى البيجاما والسرير وفرشاة الأسنان، وتنسيق اللباس وتلميع الحذاء.. رام الله، إذًا، أوّل المدنية مثلما هى أول صعقة واختباء وقُبْلة.

كانت المدينة، قبل ربع قرن، هادئة كعباءة النبىّ، لا ضجيج ولا زحام ولا غبار، تحرس طرقاتِها المعبّدةَ أسرابُ الحور والمطّاط وحواكير اللوز والزيتون، وما أن تذرع أحد شوارعها ساعة الأصيل حتى تعبئ صدرك الفراشاتُ والأغانى البعيدة، وتمشى فى ليل شوارعها النهارية، فتأتيك نجمة تضع ذراعها بذراعك وتماشيك، لتشهد معك غسيل قلبك بالندى وعبير ليلة القدر والياسمين.

رام الله.

ثمّة عشق يكسر الأضلاع، تمامًا، ذاك هو عشق رام الله، أن تحبّها أو تحبك أو تكون شاهدة على اشتباك خرزتين على ثوبها المُقصّب.

هذا العشق لا تدريه، بل يخرّ مثل النيزك فى شريانك، فيعكّر دمك بسُكّر رام الله أو نبيذها الخفيف. عشق طائش يأتيك من معركة غير قائمة، لكنّه ينفذ إلى أضلاعك، ويئزّ مثل نحل الصيف.

أمّا نحن الذين جئنا من القرى والأرياف فإننا سريعو الارتباك، نتلعثم إن صافحنا إحداهنّ، فكيف لنا، إذًا، أن نكسر تلك الجوزة التى تدفُّ بضفائرها بين أيدينا.

فى هذه المدينة كنّا نتمّم شهواتنا ونكمل زينتنا، وفى العطل القصيرة خلال السنة الدراسية فى الجامعة، لا نعود إلى أمهاتنا، بل نسوح فى رام الله، نبحث عن اللا شىء الذى هو كل شىء، وثمّة برنامج غير معلن، لكننا حزمة من القرويين تواطأنا على

تنفيذه، وتكون البداية المشى فى شارع «ركب» تاركين مرابض أسُود «المنارة» خلفنا، باتجاه مطعم الشاورما فنلتهم غير رغيف، ثم نشرب عصيراً طازجًا، ونمشى، ليأتى دور الكنافة، ومن ثمّ إلى السينما.

أمّا فى الليل، ومع بداياته العابقة بالضوء والأناقة والسحر، فنكون قد دخلنا إلى ساحة الـ «غراند هوتيل» حيث العائلات والنافورة المضاءة، ولا بدّ من أن نبتعد قليلاً عن المكان المخصّص للعائلات، فيشير علينا النادل أن نجلس فى زاوية المطعم الصيفى المكشوف، وتبدأ الموسيقى، وتعتلى القدود المهدومة والشباب الأنيقون الطازجون منصّة الرقص، فتزداد الكؤوس وحمرة وجوهنا.. وتزداد، حتى الهزيع الذى جاء يقطر بعرق العطر المصوّح.

رام الله.

* * *

وتنتهى مرحلة الطلب الأولى فى الجامعة، ونهجر رام الله ملتاعين ومحمولين بذكريات طافحة أخّاذة، تحكّ رقابنا مثل شال الحرير كلما مشينا فى دروب الغربة. ونعود بعد سنتين إلى رام الله، أكثر حكمة وتماسكًا، ويكون البيت الجديد فى مدينة البيرة؛ شقيقة رام الله، ورئتها الأخرى أو عينها الثانية.

رام الله والبيرة مثل الشفة العليا والشفة السفلى لا تكتمل كلمة الحبّ إلاّ بهما، فإذا قلنا رام الله أو قلنا البيرة فإنما نعنى جذعًا واحداً نضراً له غصنان طيبان؛ الأول رام الله والأول البيرة. والثانى كلتاهما..

وتظلّ رام الله تحتفظ ببيوتها الحجرية النظيفة المغطّاة بقرميد جليل، وحدائق ريّانة تفيض عليك بطيبها وبخورها اليانع قبل أن تدخلك إلى حجراتها.

هل رأيتم جدران رام الله وأشجارها بعد أن تغسلها الأمطار؟ أو حين يلفّعها الغيم، أو وهى ترتعش فى كثافة الضباب الثقيل؟!

رام الله.

* * *

يبدأ الانفجار العبقرى وترفّ حجارة الانتفاضة فى سماوات البلد، وتصبح هذه اليمامة نورسًا أو صقرًا يجنّح فوق المحتلّين الذين يقعقعون بأسلحتهم رعبًا من مواقد هذه المدينة وكوفيتها المطرّزة.

فى الانتفاضة، أحالت رام الله جدرانها إلى أفراس جامحة، وشوارعها إلى بوّابات جحيم، وقرميدها إلى سماء من جهنم تتقطّع وتسقط على المدجّجين القتلة.

كانت أشجار رام الله عالية تليق بحرّاسها الصغار، ودفق الدم الذى حرّرها من البساطير والدخلاء، ورغم انكسار المئذنة وانسفاح دم النواقيس، فإن ألوانها بقيت عصيّة صاعدة، وظلّت غلالات صيفها مطهّمة بالهمس والورد وذهب الأعراس.

رام الله.

مدينة مختلفة، هكذا يطيب لنا أن نرى رام الله، بل ثمّة ما يغرى فى هذا الاختلاف! ربما ليست مختلفة إلى درجة أن تظلّ رؤوسنا جافّة وهى تمرق تحت سمائها الماطرة، لكنّ روح المدينة قد أخذت من الأيل أنفاسه - كان الهندى الأحمر يركض نحو الأيل الذى وقع فى شرك الهندى، وينتظر الهندى الأنفاس الأخيرة للأيل المحتضر، ثمّ يضع فمه على فم الأيل ليسرق منه أنفاسه، وبهذا يكتسب الهندى كل صفات الأيل من الرشاقة إلى الحذر، إلى حور العيون-. ربما، أيضًا، كانْ ثمّة أيل فى هذى البطاح احتضر، فشربت أرضُ رام الله أنفاسَه فاختلفت المدينة ورقّت!

وربما، تَعبُّ رام الله أنفاس شهدائها، فتأخذ وسامتهم وبسالتهم وتطالعنا بِطلّتِها المكتملة.

رام الله.

* * *

كان سكان الأرض الأولى يحرصون على ذكر أحبابهم وأقاربهم فى اللحظة التى يخرّ فيها نيزك أو شهاب، اعتقاداً منهم أنّ ذلك حرز وتميمة لَنْ يُحبّون، وإعطاء نثار الضوء لهم، وصبّه فى قلوبهم، ليظلّوا مضيئين رائعين، محروسين بعناية النجوم الهاوية. تماماً كما يعتقد المسلمون أن الدعاء ليلة القدر، عندما تفتح السماء شبابيكها، تحقق لهم آمالهم، وتستجاب دعواتهم وتضرّعهم. وبالتأكيد، ذكر بُناةُ رام الله بلدتَهم عندما هوى نجم عن يمينهم، وفتحت السماءُ نوافذها عن شمالهم، فجاءت رام الله زنبقة من رخام الصدور، تشهق لكل نور وبرعم وأيل!

رام الله.

* * *

وتفتح رام الله صدرها وذراعيها للعائدين إلى أرضهم الأولى، ليطلّوا منها على الأسوار والقباب التى تبعد نبضة قلب أو مرمى زهرة، فتتسع المدينة، ويصبح لها غير منصّة، فتصبح بهذا التجمّع الكثيف والمبانى الجديدة الأفقية المتراصّة قد دخلت إلى رصانة البلوغ الحجرى، وفقدت مسحة هدوئها الرسولى، وربما هذا ما جعلها مركزاً حداثياً له ثقله ووجاهته، مثلما له جهامته وتجهّمه.

ربما كانت رام الله شمعة فى كنيسة خاشعة، أمّا الآن فقد أصبحت كشّافاً يغطى مساحة واسعة من المعمورة بالضوء.

رام الله.

* * *

ربما عانت القرى والمدن الفلسطينية من التكلّس، وأصبحت خارج الزمان والمكان بفعل التهويد والاحتلال، الأمر الذى جعلنا نخسر أهم المدن، من حيفا إلى يافا إلى عكا إلى عسقلان، ولم يتبق لدينا إلا بضع مدن هى أقرب إلى القرى التى أوقف الاحتلال نموّها لتصبح مدننا التى نعدّها.

ورغم كل هذا وذاك، فإن حلمنا الحيّ الموصول النابض فينا، وفي حقائب صغارنا ومدارك أجيالنا، سيجعلنا نهتف في وقت ليس ببعيد: هذه مدننا!

لكننا لن ننسى، رغم ذلك، رام الله.

رام الله.

مختارات من كتاب
سرديّات الجُنون
٢٠٠٨

تجاوزنا حفرة اليأس، وقفزنا فوق رمال البرق التى تسحب الظلال إلى الأعماق. كان عذابًا حلوًا، والخوف ضرورى للوصول إلى المجنون.

هو رجل بلغ السبعين، وتجرأ على السنوات! وحتى يظلّ فتيًا، فقد علّق صورته، وهو شاب، على جدار غرفته فى المخيم، وأمرها أن تكبر وتهرم نيابة عنه، وظل شابا، يرى ويتبع الصقر فى يوم غائم، ويدلّ الصياد عليه. له وجه يشبه البحر بعد العاصفة، ويبدو أن ساحرًا باركَهُ، لذا، فهو لا يموت! لا يمكن اللحاق به، ولو بمئة قمر صناعى، أو ألف كلب صيد.

استقبلنا على شرفة بيته الشامىّ، كان وجهه صافيًا كالخزف الصينىّ، ويمسك بقلم يشبه شكل البندقية، كأن مهمته الدموية لم تنته بعد! رغم صمت الطبول.

رجلٌ يتشوّق إلى البعيد، يعرف صوت الخداع، وينأى عن الذين رغبوا بالرذيلة أو انغمسوا فيها، ولمّا سألته عن أصدقائه القدماء، قال: كانوا دوائى، لكنهم تحوّلوا إلى سُمّ زعاف، لهذا، سأطلق ذئبى بين نعاجهم، أولاد اللّخناء!

رجلٌ يبدو أغنية من لحم ودم، يحبّ النساء الولودات مثل فلاّح عريق، ويشفق عليهن، فيبدو فى عيونهن غامضًا كالناحية السوداء.

تراه وحيدًا فى ميدان الخيل الفارغ، كأن الفرسان قد ماتوا! ولا ترى فى عينيه نظرة الهارب، كأن الإصرار شعاع بؤبؤيْه! يحبّ أن يتبأر فى العيون ليكتشف جوهر الناظر أو المتحدث أو المتشاوف.

ويبدو أن حصانه الحقيقى ليس كالأحصنة التى نعرفها، بل إنه ذلك الترقب وملاحقة كل ما هبّ وجاء إلى أحشاء الناس، وعمل على تحطيمهم وإذلالهم، لهذا تراه يأخذ حصانه يمينًا ويسارًا، كأنه مروحة يروّضها ويهفّ بها، إنها طريقته الملكية ليحول دون وصول هواء أو دخان إلى جهاته.

إنه بحصانه الرشيق يردّ كل الموجات الصفراء الخانقة، ليظل بعافية الحضور، ويتغلّب على فساد المناخ أو المكان، وينتصر على مخاوفه وزلاّته، وما تكاثف من حوله من غوائل وآفات.

ينام قليلاً ويحلم كثيراً، ويحمل المواخر على لسانه، كأن فمه بحر عوليس النارى بمخلوقاته الباطشة، وعندما تجلس إليه ترى حلما فى حلم، وتسمع السباع وهى تعوى فى قلبه، ويده الممدودة باستقامة على يمينه، ثابتة كأنها سيف البحر.

هل أنتَ خالد الذى مات أبوه وهو فى بطن أمّه؟ نعم، هو أنت! يا أيها اليتيم السبعينىّ النبيل، أخشى أنّك صرت كالنمور المُسنّة، التى تصبح كاسرة، عندما تدرك نهايتها؟!

ضحك حتى اهتزت الحديقة، وقال: لكلامك ترتيب نمطىّ سعيد!

لا يا بنىّ، فأنا الجوّال الأبدىّ، أنا الحرف الصوفىّ الحاوى، وأنا المغنّى الذى وقفت له الشرفات، ولوّحت له الأيادى والزهور.

بدأت سيرتى منذ دم أبى على صخرة الجبل حتى اليوم، ولن تنتهى إلى أن أمسح دمعته، فى قبره، حتى يستريح وينام.

لكنك وحدك! ولا تتقن إلاّ أن تلعن تاريخك، وتحارب وحدك كل انهيار!

ضحك الخالد، فأدركتُ سذاجتى، وكأنه قال: كل شىء معى؛ الطبيعة والناموسُ وَوَهْمُ الزمن والتاريخُ والغناء والأحمالُ...

وصاح: معى الجنون! ألا يكفى؟

قلت: هو الزاد الكافى والنسغ الوافى..

وأردف: أنا لا ألعن تاريخى، ولا أقدّسه أيضا، لكننا بحاجة ماسّة وحيوية، إلى أن نكشف جرحنا للريح والهواء، وأن ننقّيه من صديده والتهاباته، وأن نعصر الجمر على

حدوده ليبرأ من جديد!

يا أخى! لا بُدّ من مراجعة المسيرة، لنعرف اللوطىّ من النبىّ، والبائع من الرافع، والسارق من الوامق، حتى لا تضيع غرناطة، مرة أخرى، فى القدس!

وحتى لا تموت مريم المخيم، أو تجهض فاطمة الحاجز، وحتى لا يفتشوا جسد أمك الميتة بهراواتهم فى الطرقات، أو يظل إخوتك كالكلاب اللاهثة الجوعى أمام مكاتبهم الموبوءة، وتحت قوى اللاوعى المُظلمة!

عُدْ، إذًا، وانتظرونى هناك، فإن مَنْ سرقوا القافلة سيتّهمون أصحابها الحقيقيين بالقرصنة والجنون وقطع الطريق.

رجعنا، والمجنون بجسده الممتلئ يغطّى كل الجبال والشوارع والوهاد، كأن صورته غطّت كل شىء، فلا نرى إلاّ شيئًا منه؛ شَعره الطويل المشوط الأبيض، فَمَه المزموم كالبرعم الخرافىّ، وعينيه الدخانيتين.. كأنه ضباب كثيف ملون، تجسّد، حتى بدا كائنًا أكبر من هذه الأرض الممتدة! وصلنا، فسألنى صديقى أبو ضحى: كيف وجدته؟

قلت: مجنون رائع، يعرف حدود لعبة الزمان، فأعدّ لها البيادق المناسبة. لم يسمع بالهزيمة، ولا يقرّ بالنكبة، وبما أنتجت من لجوء وبطون مبقورة ومذابح، كأن ما وقع كان شيئًا يسيرًا يمكن إصلاحه بقليل من الجنون العاقل، والغناء المتّسق البسيط، وبشىءٍ من الأناقة الروحيّة وشفافية الكفّ والساقين!

فقال: وهل كان ذلك صعبًا؟

قلتُ: يبدو أن الصعوبة تكمن فى قلّة المجانين!

قال: إذًا، لا حاجة لى بالعقل!

قلت: العقل هو أول الجنون، وآخر معاقل الهوس، وقنطرة الوصول إلى الحكمة والحقائق.

احتفظ به بجنون بالغ. ولا تعلّق صورتك الفتيّة على جدار بيتك.

واسمع أيها الوارث القمين لهذا الجنون: خسرنا الاثنتين؛ الثورة والدولة. فالغابة ليست مجموع أشجارها المُمْرعة، أو القميئة فحسب، فثمة ثمرٌ عسليٌّ، وجداول حرَة وظلال، وثمة عيدان يابسة وأفاع وأخاديد.

وتبقى الأرضُ أو المساحة التى تحمل جذوعَ الأحداث، صابرة صامتةً ترى فوقها غصون التاريخ تتكوّن وتتلوّن، ولا ينجو من حقيقته سوى ما مات فى صدور المشنوقين أو المسجونين، أو الذين دهمتهم الجلطات فانفلجوا، وظلّوا على صمتهم المدوّى. أما المرتفعون الذين يزبدون، فثمة طبقة رمادية على شفاههم لها ريح مقززة مُغثية وكريهة.

وينبغى على التاريخ ألا يتكرر، لتظل عجائبهُ نافذةً بائنةً مدهشة! أما إذا تكرر فثمة كسل وضعف وشُبهة، وثمة فقدان الذهول، وستصبح العجائبُ ظواهر دون هالات، وستفقد مفاجآتها، ما يجعلها عرضة للاستهتار والنسيان.

وتبقى ذكرى مَنْ اجترح التاريخ وصنعه، أولئك الذين تغلّبوا على الليل، ثم رحلوا، تاركين أرواحهم للنهر الجارى، الذى سيشرب منه الصغار. لقد رحلوا، لكننا نستطيع أن نستعير حياتهم، لنعيد إلى التاريخ، رغم تكراره، فذاذة العجيبة، واختراق العبقرية، لعلنا، ونحن ننام بجانب ندوبنا نحس بأننا أكثر جمالاً مما نرى فى المرايا والوجوه.

أولئك الذين ما كانت قصّتنا موجودة لولا قصصهم. عندما أتحدث عنهم أشعر أن صوتى مليءٌ بالتآلف والاطمئنان، فمن ألمهم يجيء هذا الحب والوداعة والثقة بالغد، رغم كل ما يخنقنا من لغط ووقاحة واجتراء.

وعندما أتحدث عنهم، أكاد أقول إننى القوة التامّة والمُعافاة، التى تهبط من السماء، لتجعل الأرض رائعة، تلك الكرة المليئة بالوحول والدم. وأحس بأننى أمتلك الكوكب بين أصابعى فأضيئه بدم هؤلاء، أو بدمعهم الناشف المجنون.

وقد قالوا: الذين نحميهم يدلّون على شخصيتنا، فماذا نريد أعلى وأنبل من هذه البوصلة الشهيدة، التى نتشرف بإشارتها إلينا، أو إشارتنا إليها، لجعل الذين أصابهم النسيان المُبكّر أو الإحباط أو الكآبة، يتذكرون، ويثوبون إلى رشدهم.

وباختصار، ثمة حكايات، تكاد لا يصدقها عقل، سَرَدَها على مسامعى شيخى الجليل، وهو فى غمرة مناجياته ونداءاته وتوسّلاته للأعالى الباهرة، بأضواء الكشف وأنوار الوصول والرضا. كان بعد كل عودة وهدوء وبرود، يرجع إلى مجلسه، وعلى وجهه آثار العرق اللامع، وبقايا صخب، ما فتئ يبرق ويتجلى ويتراءى.. وكنت قبالته أرقب ما يفعل، لأحفظ ما يقول، وأسعى لفتح نوافذ لحمى للروح، كى تشقّ طينها، وتصل مع تلك التوقيعات والاهتزازات وشدّة التركيز والإجهاد إلى هناك! كان يقول لى: احفظ!

ثم يستأنف ساردًا بعض السطور، ثم يصمت، ويعود إلى مجاهداته، وأظلّ أنا مشغولاً بما قاله هذا السيّد الجليل. فأذهب، فى صباح تلك الليلة، إلى ورقى فأعيد كتابة الأسطر التى سردها، كما هى، دون تبديل أو زيادة أو نقصان، ثم أعمل فكرى، محاولاً تفسير ما سرد، حتى كانت هذه السرديات.

* * *

أعتذر، إن ما ذكرته كان محاولة منّى لتقديم هذه السرديات بشىء من الإبهار. والحقيقة أن ما جاء فى هذه السرديات، لا أصل له فى الواقع، وما هو إلاّ هَذَر وخيال، ولعب بالكلام، وتأليف لفجائع، وتركيب لحسرات، بل أكاد أقول، لا أرض أصلاً تتسع لمثل هذا الجنون، ولم يقع حدث يستأهل كل هذا الانفلات للعقل والرشد والتوازن. حتى إن فلسطين، هذه البقعة الجغرافية، ما زالت أرضًا عربية لم يطأها أحد من شذّاذ الآفاق، وما زالت حيفا عربية، وكذلك عكا ويافا وعسقلان، وكل ما قيل من كلام عن النكبة والنكسة وبغلة أبى العبد، محض افتراء وكذب، وربما أراد أهل هذه البلاد، أن

يجعلوا من تلك البغلة الكسولة الهرمة، أشبه ما تكون بحصان الإسكندر الأبيض، الذى اعتقد القدماء أنّ روحًا تسكنه، فكان كبساط الريح، يحمل راكبه إلى جهات الأرض، متى شاء!

وربما تماهيت مع أهل هذه الأرض، وأردتُ أن أكشف عن صفحات صغيرة مهملة، من مأساتها العميقة المُدّعاة، وضياعها المتخيل، لتصير مثل الأندلس التى ضاعت ذات مساء، ودليلى على ذلك أن «أبا شيبان» مات ميتة طبيعية، وأشهد على ذلك، فقد كان صديق والدى. وأن «الحاجة خدّوج» تسكن فى الحارة الشرقية وليس فى المخيم، بل أين المخيمات؟؟ ما هذا الخيال؟؟ وأن «أبا سلمة» هو نصرانى يفتح دكانًا لبيع التحف والأيقونات فى القدس، ويتحدث سبع لغات، ولا يعرف من العبرية البائدة حرفًا واحدًا، ولا حتى من السريانية التى تشبهها! أمّا «حبشين»، فهذا أحد أشقياء يافا الذين كانوا يغلقون الملاهى فى وجهه، لاعتداءاته المتكررة على الراقصات، ومات مقتولاً تحت مسلّة الساعة، وسط ساحة المدينة، وقبره مهمل فى إحدى المقابر هناك. إننى أخاف من شدّة السعادة والراحة والرغد التى أعيشها وأرفل فى عسلها، وربما أردتُ أن أُطعّم هذه النيرفانا المعيشة، بشىء من الحزن والشجن، حتى يكون للسعادة مذاق أكثر عمقا ولذّة. كما أن فلسطين مملكة، ولديها جيش قوى، وملكنا - أدامه الله- عربى يمتد نسبه إلى آل البيت - رضوان الله عليهم- ويسكن فى الرملة، وقصره، الذى يستقبل فيه الوفود الأجنبية الصديقة، التى تأتى لتطلب معونتنا ومساعداتنا، موجود فى حىّ المنتفيورى، غربى مدينة بيت المقدس، التى هى عاصمتنا الروحية، منذ إقامة المملكة قبل بضعة قرون. آهٍ منّا نحن الشعراء والكُتّاب، نحب دائما أن نذرف الدمع، ونصبّ الكآبة، فى حمأة الفرح وجلوة الأمان والرخاء! والأغرب من ذلك - أسأل نفسى- كيف استطعتُ، رغم عيشة الفردوس الآمنة، أن أتخيّل كل هذا العناء والجنون والغرابة؟!

الصحيح أننى ذو خيال واسع!

* * *

أنا آسف، آسف بالفعل! فهذه السرديّات حقيقية، ولا مجال للقفز عن التاريخ إلى هذه الدرجة.

فـفلسطين تقع تحت الاحتلال، من نـهرها إلى بحرها، ومن رأسها الثلجى إلى أخمصها الرملية، واليهود يصولون ويجولون فيها، وحالنا عدم وخوف وضياع وجنون، فما هذه الفلسفة المدّعاة، وهذا الكذب الفنتازى؟ وبالفعل لقد وقعت هذه القصص، ولكننا قد تجاوزنا ذلك التاريخ المُدمّى المؤلم بسنوات طويلة، وهى مرحلة أصبحت وراءنا، ولا داعى لنبش القبور وفتح الجراح.. ألم نَنَل استقلالنا، ونَنَل حقنا كاملاً؟ لقد أقمنا دولتنا، والحمدُ لله، وزالت المستوطنات وراحت الحواجز، ولم يتبق غير الذكرى المؤلمة التى يجب أن نعمل على استبدالها، بأغنيات مشتركة مع جيراننا اليهود، نهتف بها للسلام والعيش المشترك وقبول الآخر! وها أنا ذا أذهب إلى بيت حماى فى القدس، ويرى أبنائى بيت جدّهم، ويطلّون من فوق سطحه على مصاطب الأقصى وقبة الصخرة.. وقد ودّعنا أيام السجن والإقامة الإجبارية والوقوف ساعات أمام حواجز التفتيش، التى طالما ولدت النساء وأجهضن، وماتت الأجنة والوالدات عندها، وها هى آثار السور العنصرى تنبت مكان أساساته أشجارُ الزيتون والتين والرّمان -لاحظ أنها أشجار الجنّة التى تحدث عنها القرآن الكريم- وإذا واصلت الحديث عن أيام الاحتلال، فهذا يعنى أننى ضد السلام العادل الشامل، وضد الكومبرومايز التاريخى، أو الحلّ الوسط الذى توصل إليه المعتدلون الفلسطينيون الوطنيون! لحفظ ما تبقى من حقوقنا، وها هم اللاجئون الذين تم تعويضهم، سعداء فى مواطنهم الجديدة، ويتحدثون يوميّا، بالهواتف النقّالة مع ذويهم فى الضفة والقطاع وبعض أحياء القدس.

وماذا يريدون أكثر؟ بل ماذا أريد أنا أكثر من ذلك؟

لقد استتبّ الأمن واستقرّ الحال، والناس فى سعَة وخير وسلام!

وإذا ما نشرتُ هذه القصص فسيغضب منى بعض المثقفين الذين كانوا ماركسيين ويساريين، لأننى أسعى إلى تأبيد الصراع، مع قوم جاؤوا ضيوفا إلى

وطننا، ويتنفسون معنا ذات الهواء، وأعطونا ما استطاعوا، وأنا ما زلت بعيداً عن الواقعية المطلوبة، بل ما زلت حانقا علي الذين سجنوني وسجنوا أبي، وكانوا سبباً في جنون أولئك الذين أسرد قصصهم، وأعرفهم كما أعرف خطوط يدي.

بل إنني -على رأيهم- حاقد جداً، لأنني لم أنس أولئك الذين تابوا ورجعوا إلى الخط الوطني، رغم ما اقترفوه من أعمال جاسوسية ضد شعبهم، بدءاً من الذي كان السبب في قتله وذلّه وتجويعه، ومروراً بتسليم مقدساته وترابه الطهور، وانتهاءً بالركوب في سيارات جيش الاحتلال ليدهموا المحلات التجارية لفرض الضرائب الظالمة عليهم.

كم أنا متخلّف ورجعي وحاقد! أمَا على الشعوب أن تنسى؟! ها هي أوروبا التي طحنتها الحروب تتصالح وتتّحد، وها هم الهنود الحُمر- أو ما تبقى منهم- يتسامحون مع الأبيض، ولا ضرورة لما كتبه تزفيتان تودوروف أو منير العكش، فهذا رجوع لا طائل منه لتاريخ البيض الأسود، وكذلك الأفارقة واللاتينيون سامحوا وتسامحوا، فلماذا لا تنسى أيها الفلسطيني الحاقد المريض! إِخْص عليك ما زلت تعيش في الماضي، وتحكي عن الماضي، وتسرد قصص الماضي.. أُفّ، لقد أقرفتنا يا أخي. ها أنتَ في دولتك المستقلة، فاخرس، ولا تنكأ الجراح، إنها مرحلة مضت وانتهت!

* * *

مش معقول، بالفعل أنا آسف، فهذه القصص وقعت، ولكن ليس كما تُروى هنا، لقد تم تحريفها، والذهاب بها من العادية والصدفة، إلى التهويل والقداسة، فالشخوص المذكورون، كانوا بالفعل يدبون على هذه الأرض، لكن أهلهم وأصدقاءهم، عملوا على أسْطَرَة قصصهم، وترميزهم وترفيعهم، من أناس، شديدي العادية، إلى نماذج ساطعة يُشار إليها بالبنان، فمثلا كان «حبشين» تاجراً كبيراً، ولما مات أراد أبناؤه أن يكتسبوا شرفًا، فأعطوا للحكواتي ما تيسّر، حتى يجعل من غُصّته التي أودت به، حكاية تجعله شهيداً. و«الحاجة خدوج» هي شقيقة رئيس البلدية الذي أراد أن يُغطّي على الأخبار

السيئة والشائعات السوداء، بتلك الحكاية القدسيّة، وكأنه من نسل أرباب الحظوة الربانيّة، الذين يتمتعون بقدرات خارقة، تجعلهم من أصحاب الكرامات. أما «أبو شيبان»، فقد أخذ أبناؤه كل ماله وطردوه من البيت، لأن أمهم كرهت زوجها العاجز المريض، وهي ما زالت في عزّ شبابها، وعلى ما يبدو، أراد الابناء أن يبرروا ضياع أبيهم وانفلات عقاله، بما ردّدوه مع أعوانهم المنافقين من أسباب.

بمعنى آخر، ثمة وجه آخر لهذه السرديات، لكنني، ملِتُ، كما يبدو، للرواية الأكثر درامية وغرابة، لا بأس!

* * *

لا! انتظروا، فكل ما قيل سابقا ليس له مكان في الواقع أو الحقيقة، والقصّة من أولها هي: أن كل القصص التي ستطالعنا قد وقعت كما هي بالفعل، ولكن في أرض أُخرى، ولدى شعب آخر، وكل ما فعلته أنا، هو أنني ادّعيت أننا أصحابها، وقمت باستلابها كاملة وعملتُ على تكييفها، كما يفعل الخيّاط الشاطر، لتصبح على مقاسنا، وكان الأمر يسيراً حيث استبدلتُ «جبل سيدنا على» بجبل قاف، والقدس بمدينة راء، وأبا سلمة بالمنسيور جيم، و«خدّوج» بالمادونا زوز، و«حبشين» بالأدون خوم، والاحتلال البغيض بقطعان دال ميم.. وحاولت أن أصنع فضاء يليق بحراك هؤلاء الأبطال، مع قليل من الإكسسوار والحروف والألوان.. حتى باتت هذه السرديات على ما هي عليه!

واسمحوا لي أن أكشف سراً صغيراً، وهو أننا نحن الذين نحتل شعبًا آخر، ونخضعه بالنار والحديد، ونلقيه في عتمات اللزوجة والفزع والثبور، ونقطع أشجاره، ونخلعها من شروشها، ونلقيها بعيدا عن عرشها الأبدي، ونهدم بيوته الجميلة الطالعة من المكان، كأنها شجرة الميلاد، لنجعلها أكوامًا كابية مُرهقة.. وبصراحة: لقد قلبتُ المعادلة مئة وثمانين درجة، وما الأبطال هنا إلا ما رأينا من شهداء وضحايا في الطرف الآخر، أما القتلة المجرمون فهم نحن، أيها السادة، وما علينا إلا أن نعترف.. لنتطهر قليلاً!

وبصراحة أشدّ، أنا لم أعد قادراً على احتمال أن أكون جزءًا من مجتمع يحتلَ مجتمعًا آخر، ويصادر كل أسباب حياته منذ مئة عام!

ما هذا؟ أليس فى قلوبنا رحمة؟ وماذا نقول لأطفالنا الآمنين عندما يرون على شاشات التلفاز أطفال الطرف الآخر المنخّلين برصاصنا المجنون الحاقد، وبقنابلنا العمياء والمسيلة للعار؟ وماذا أقول لزوجتى عندما ترى امرأة من الطرف الآخر، تجلس على ركام بيتها، وتضع يدها على صحن خدّها وتجوح! آه، لقد قمنا باحتلال دور الضحية ونحن المجرمون، وجعلنا الضحية جلاداً يَذبحنا، ألم يفعل ذلك الكثيرون من قبلنا؟ فلماذا لا نفعلها؟ وربما قمت بعملية السرقة والاستلاب هذه لأن القوى يستطيع أن يسوّق روايته وادعاءاته دون اعتراض، حتى أحرم أولئك الإرهابيين الذين جعلوا احتلالنا لهم لا يطاق، ولم يستوعبوا أننا ذهبنا إليهم كمحتلين، لنعلّمهم المدنية والحضارة، ونخلّصهم من بدائيتهم الخشنة وسلوكهم الغليظ البربرى. ثم لدينا ذريعتنا الأخلاقية المرتكزة إلى وعد الغيم لنا؛ بأنّ ما تظلله غيمتنا هو لنا، وهذه الأرض تقع تحت غيمتنا العالية، ولكننا بالغنا على ما يبدو، ونحتاج إلى قليل من إعادة النظر بما حدث، ولهذا فإننى صرت مؤيداً لأصدقائى المؤرخين الجدد، الذين يجعلون روايتنا أكثر معقولية وقبولاً، ويصدّقها العالم المعجب بى!

* * *

انتظروا. ما قرأتموه تخريف وتغرير وكذب، فهذه السرديات أو القصص، أو ما شئتم تسميتها، ما هى إلاّ مخطوط وجده الحفّارون فى صندوق ملىء بالأوراق، وباعتبارى كاتبًا، وأقول كلامًا أكبر من آذان المستمعين، فقد دفعوا بها إلىّ، وقالوا: ربما تجد شيئًا مفيداً فى هذه الأوراق. يا لحظّى لقد وجدت مخطوطى القرمزى، فليذهب «أنطونيو غالا» إلى الجحيم، ليس وحده الذى يجد اللُقى، ليفك رموزَ الحكاية، بل أنا أيضا! لكننى خفت أن يصيبنى ما أصاب «بندورا» عندما فتحت الصندوق الذى

يخبئ «مهد الحياة» فما إن وصل عينيها ضوء الحياة حتى بكت دموعًا سوداء أشبه بالأسيد الكاوى.

* * *

لقد نسيت، آسف! لقد وجد هذه الأوراق عمّى الحارث الذى كان يفترع الأرض، ذات ربيع، فرأى أفعى أكبر من مئذنة البلدة، تعترض فلاحًا يركب حماره، فابتلعته والحمار، ولم يتبق إلا خُرج البهيمة، فحمله عمّى، فوجدنا فيه هذه الأوراق! لا.. لا.. تذكرتُ! هذه الأوراق هى ما وجدناه فى جيب قمباز أبى -رحمه الله- بعد أن دفناه بثلاثة أيام، حيث أراد إخوتى أن يحصوا ما ترك الوالد من مال وعقار، ليسارعوا إلى تقسيمه عليهم، ولم يكن من نصيبى سوى هذه الأوراق، حيث رماها إخوتى لى، وقالوا لى:

* * *

لا يا جماعة، هذه الأوراق كتبها طالب كان فى الصفّ الذى أعلّمه، وكان يدفع لى بها لأنظر فيها، وأعطى رأيى بمضمونها وبمستواها الفنى، وعندما هممت أن أعيدها إليه مع ملاحظاتى القليلة، فوجئتُ أنّ صاحبها قد استشهد فى تظاهرة وقعت البارحة أمام المدرسة، فقلتُ فى نفسى: لا ضير أن أنشرها باسمى، فالهدف واحد، ولكن نشر هذه السرديات، نوراً وبخوراً على روحه الطاهرة. وها أنا ذا أعترف: هذه القصص ليست لى، إنها لتلميذى الشهيد، رحمه الله!

* * *

يا إلهى، كم أنا واسع الحيلة، فما ذكرته وَهْمٌ وتلفيق وكذب، وكل ما فى الأمر أن هذه السرديات ما هى إلاّ منامات أو رؤى أو أحلام! صحيح أن الرؤيا تختلف عن الأحلام، فالأولى بشرى من الله تعالى أو تحذير، والثانية أضغاث من الشيطان. كما

أن الرؤيا صفة من بضع وسبعين من صفات الأنبياء، يخصّ بها اللهُ مَنْ يشاء من خلقه! والأحلام مبذولة لكل مخلوق بشرى، يضجّ فيه اللاوعى بالممنوعات والمشتهيات. ولكن انتبهوا، لأن الرؤيا قد تتفسّر بعد أربعين عامًا، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام، كما أن تفسير الرؤيا يعتمد على الرائى وعلى الزمن الذى تقع فيه الرؤيا، وكذلك على مضمونها! بمعنى إذا رأيتَ فى المنام أنّك تؤذّن فهذا يعنى أنك ستؤدى فريضة الحج إن كنتَ مؤمنا، أو أنك ستسرق إذا كنتَ فاسقًا. (ورد ذكر الأذان فى القرآن الكريم للنداء على الحجيج، كما ورد للأذان على العير التى سرقت صواع الملك) وبمعنى؛ إذا رأيت نارًا فى المنام، فهذا خير إن كنت فى فصل الشتاء، وهذا شرّ إن كنت فى فصل الصيف. أما مضمون الرؤيا فيعتمد على مكوّناتها ورموزها، أى إن صادفت رجلاً اسمه بشير فهذه بشرى، أو صادفت شخصًا اسمه نذير فهذا إنذار وشرّ مستطير قادم، وهكذا دواليك! وعليه فإن هذه القصص التى ستَتترى أمامكم، ما هى إلا منامات، وما عليكم إلا أن تجتهدوا فى تعبيرها أو تفسيرها، وبإمكانكم أن تعودوا إلى كتاب «ابن سيرين»، أو إلى كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد، أو إلى تفسير الأحلام دوت نت، على صفحات الإنترنت!

* * *

الصحيح، أننى أبالغ وأراوغ، وألفّ وأدور، وببساطة، وبعيدًا عن هذا المزاح الثقيل، والتلوى العليل، أدعوكم لأن ترموا خلف ظهوركم كل ما سمعتم آنفا، وأن تأخذوا هذه الرواية الصحيحة، وهى أن هذه القصص قد أخذتها عن الزجّال الفلسطينى ذائع الصيت أبى العتابا الإشبيلى، وهو من شمال الضفّة الغربية، يحضر كل سامر فيُشعله بأزجاله وحدائه ومواويله، فيمسك بالقمر وينعفه كالطحين على سطوح البيوت، ويمسك بالنجوم فيرصّعها على فساتين البنات الواقفات على الشرفات، ويحمل دفقات الينابيع ويرنخها بالمناديل الملوّحة على الناصية، وهى تنتظر الزفّة الهائجة بالعرق والفتوة والرغبات.. هذا أبو العتابا، قوّال البلاد الذى عوّدنا، ومع نهاية كل سامر، ومع

أواخر الليل أن يسرح بنا بما ينغّمه من شروقى، كأنه يتعبّد، ويغشى جوارحنا بقصائد يسرد خلالها قصّة شائقة ماتعة تمزّع القلوب وتفرم الأكباد، فما كان منّى، إلاّ أن استقرّت فى وجدانى تلك الشروقيات الذائبات، وليس لى فضل فى هذه القصص، سوى أننى أعدتُ كتابتها، ووضعتها كما سترونها فى هذا الكتاب. ويبدو أن أبا العتابا الإشبيلى، وبسبب دورانه على كل البلاد والنجوع والمدن والأنحاء، ليحيى أفراحها وأعراسها، قد سمع ما وصل إليه من حكايات، فنفذت إلى قلبه وانفعل بها، وأعاد إنتاجها بتلك التنغيمات المذهلة، لتصل إلى أضلاعى، فتندلع ببرقها ناراً تضىء..

ولا رماد! أعترف بهذا الآن، حتى أحفظ للإشبيلى حقّه وقدرته فى شلع قلوبنا، وسوسحتنا فى البلدة، عندما كان يتقافز بعياقة محبّبة، يروْزته السُكريّة وحذائه الأبيض، وقشاطه العريض، وبطوله الرقيق الفارع، وبصوته الذى يعيد تشكيل الغابة لتصبح كما يطيب له، جنّة للعشاق والطيور والفراش، وما بلغ من النجوم والكواكب. وأذكر هذا الآن، لأن الإشبيلى الذى قُتل فى المعتقل، وكان أمضى سبع سنوات فى الأقبية، قد أمر مدير المعتقل بخنقه، لأن غناءه يشقق الجدران ويفصّد أبواب الحديد ويفلّها، ويسمح للشمس والهواء بالوصول إلى عتمات الزنازين والأرضيّات الضيّقة. وبالمناسبة، فإن أهالى بلدة الإشبيلى يؤكدون أن نغمًا ناعمًا حارقًا أقرب إلى صوت الناى البعيد يعمّ الأرجاء كل ليلة، ويعبق فى الطرقات والتلال، ويغطّى كالضباب كل الوديان والسفوح والبيوت، ويتساحب كأنه غيم يتناسخ بين الشجر والظلال.

* * *

سامحونى يا جماعة! فنحن معشر الكُتّاب والشعراء والأدباء كاذبون ببراءة وبراعة، وكذبنا أبيض، ولهذا، وربما، وصَفَنا الله تعالى بأننا نقول ما لا نفعل، فإذا اعترف أحدنا بمعصية لا يُقام عليه الحَدّ، لأنه كذلك! ونحن فقهاء الخيال الذين نصنع من سبحات الخيال عوالم فى منتهى الجدّة أو الغرابة أو السريالية، ونعيد تشكيل الدنيا، ونصنع ما يُبهج، أو يُميت كَمَداً. فلا تأخذوا عنّا، ولا تصدّقونا، ودليلى على ذلك

أن كل الروايات التى سبقت لم تحظ بحرف صِدْق واحد، ولم تك أكثر من أفكار خرقاء مُدّعاة، وافتعال وتجميع! أما الحقيقة اليتيمة التى أخّرتها، لأنها الوحيدة الصحيحة التى لا يرقى إليها الشك، فهى، أن هذه السرديات قد وقعت بالفعل، وبالأسماء الحقيقية المذكورة، وفى المواقع نفسها، لكننى أنقلها عن سائق حافلة البلدة كم. وليس لى فضل فيها، سوى النقل.

وسائق الحافلة وهو «أبو الشُكْر» الأرمل، من بلدتنا، يعمل سائقا منذ الأزل، فيركب معه نفرٌ كثير، ويسمع كل اللغط والمشاجرات والأحاديث والنقاشات والقصص والحكايات. والغريب أن أبا الشُكر حسّاس إلى حدّ كبير، فعندما تعتلى حافلَته النسوةُ الذاهبات جماعة إلى بيت العروس فى القرية المجاورة، يبتهج معهن ويراقص أقدامه، بل ويترك المقود ويصفق معهن، ويحفظ كل أغانيهن، وعندما يركب معه الرجال الذاهبون لأداء واجب العزاء، فى قرية أخرى، يبكى معهم، وتنهمر دموعه، كأن الميت أخوه أو ابن عمه..

كم هو مشاركٌ هذا أبو الشُكر! وكم يتجاوب مع الناس وأحوالهم!

لهذا ترى عينيه حمراوين من البكاء على ميت لا يعرفه، أو ترى وجهه منتشياً من غناء يمتد إلى المغارب فى رحلة قطعها مع العرائس المجلوّات العابقات بزهر الليمون والقرنفل. آه يا أبا الشُكْر! كم كنت تقصّ علىّ ما اختلف من القصص، كأنك ناقد يعجم الحكايات ويغربلها، فينتقى ما نَتَأ منها أو تمايز واختلف. والضاحك الباكى أبو الشُكْر هذا قد ذبل جسمه وخذله قلبه، وَفَتَّ فى لحمه وشحمه السُكّرُ والضغط، لكن ذاكرته ما فتئت لامعة مشرقة، تحفظ كل قطرة دم سفحها الجزّار فى سلسلة جرائمه المريعة، ويعرف كل قطرة عرق مارت على جبين كل مَنْ وقعت عليه مظْلمة الأزمان، هنا فى فلسطين.

ووفاءً لأبى الشُكْر ولكتابه المحفوظ فى صدره، أعيد سرد هذه الحكايات، لعل أحداً يلحق بباقى الجيل الذى شارف على الهلاك أو الرحيل، لنجمع الرواية الصعبة المستحيلة، لنردّ بها على غوائل الكذب والتزوير.

* * *

وعندما حاولتُ أن أؤلف صيغة جديدة أُقدّم بها هذه القصص، قالت لى الصديقة د. عبير: امسك عليك قلمك يا صديقى، فبعض الأشياء يجب ألاّ يتم ذكرها. فاستجبتُ لندائها، ورحتُ أرتّب النصوص تباعاً.

* * *

فَهْرَستُ النصوص خلف بعضها، ورحتُ أرتّبها، وفجأة تذكرتُ أن هذه النصوص هى نفسها تلك الأوراق التى أخذتها من الطبيب.

يا إلهى، كم صرت أنسى أو أغفل أو أخطئ، أو أتلخبط، أو لا أدرى ماذا! فمنذ فترة وأنا أحاول الحسم فى أمر مرجعية هذه السرديات، وكنتُ كل مرّة أعتقد ظنّا أحسبه أكيداً ولكن هذه المرّة انتهى كل شىء، لقد اتّضح الهلال وبانت الرؤية، وها أنا ذا أُقدّم لهذه القصص وأردّها إلى أصلها الحقيقى وجذرها الأوّل. والمسألة من أولها بدأت عندما اتّصل بى صديقى الطبيب عبد السلام، وطلب منّى أن أزوره فى عيادته النفسية. خشيتُ لأول وهلة، وتخيّلتُ أنه لاحظ علىّ ما يستوجب معه علاجى، أو لعلى أصبتُ بمرض نفسى بات لزامًا معه أن أخضع على سرير الطبيب! ولم أنم تلك الليلة، التى شهدت تفكيراً عميقًا استغرقنى، رحت خلاله أمرّر شريط أيامى أمامى، لأرتب نتوءاتى وأطوارى الغريبة، وضاق نَفَسى، وأجهدنى العَرَقُ، ولم يغمض لى جفن حتى الهزيع الأخير. دلفتُ إلى العيادة، قبل الوقت الذى اتفقنا عليه، فوجدته جالساً، وأمامه كومة أوراق يتصفّحها ويقلّبها، ويقلّب معها شفتيه وحاجبيه! فظننتُ أنه استحضر بعض قصائدى، وعمل على استخراج مكامن جنونى من وراء سطورها، فارتبكتُ، وتلعثمتُ، ولم أدرِ هل ألقيت عليه التحية، أم جلستُ، دون أن أنبس ببنت شفة! فجأة، وقف، ولملم بيديه الأوراق، وألقاها دفعة واحدةً أمامى، وقال: اقرأ! فقلتُ: ما أنا بقارئ، فضحك، وضحكنا، واعتبر إجابتى تماهيًا خفيف الظلّ مع مناسبة قوله وطلبه.

قلتُ: ما هذا؟ فأشار بيديه بما يعنى أن أنظر إليها... كانت الخطوط مقروءة، والكلمات واضحة المعنى، ولم أرَ غير نصوص هى أقرب إلى القصص القصيرة، أو المقالات، أو كل ذلك معا، وربما يكون كاتبها أحد أقرباء صديقى الطبيب أو مراجعيه، ويريدنى أن أعطى رأيى فيها! وسألته: ما هذا؟

فقال: هذه يا صاحبى بعض ما سجّلته لمرضاى، الذين يتمدّدون على الشيزلونج هذا، أى السرير المُعدّ للجلسات الإكلينيكية أو العيادية، فرأيتُ أن بعض المرضى، وكلّنا مرضى، يتخيّلون أنهم ذاتهم هى هذه الشخصيات التى تراها فى هذه السرديات، ورأيت أن فيها من الإبداع والقصّ ما يلفت نظركم، أنتم معشر الأدباء والشعراء.

فسألته مستغرباً: هل المريض هذا الذى تكتب اسمه أعلى الصفحة، هو الذى تخيل نفسه «حبشين»، فى هذه القصة؟

فأجاب: نعم، وأردف: كلها هكذا.. إذن، هذه السرديات هى ما قاله المرضى النفسيون فى عيادة الطبيب! يا سبحان الله! إن كثيراً من المرضى أكثر إبداعًا وقدرة وتميزاً من كثير من مدّعى الأدب والخلق والكتابة، أو أن الادباء والكتاب هم مرضى نفسيون، لكنهم لم يفردوا أجسادهم على الأسرّة، ذوات الملاءات البيضاء. ضحكتُ فى سرّى، واقترحت على نفسى أن نستبدل اتحاد الكتاب بعيادة نفسية، ويكون رئيسنا أو أميننا العام الطبيب عبد السلام. وبدل أن تجتمع الهيئات الإدارية والأمانات العامة والجمعيات الأدبية، كل ستة أشهر، فى بلد عربى، تحت مظلّة الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، أقترح أن يجتمعوا، ويستمعوا جيداً لآخر محاضرات علم نفس، وللأطباء المختصّين، بعلاج المُدّعين والكذّابين والمنافقين، والذين يعتقدون أن محمود درويش لا ينام حتى يقرأ قصائدهم المعتوهة، وأن نجيب محفوظ مات عندما لم يقرأ روايتهم الخرقاء!

رغم أن هذا الكاتب أو ذاك، لا يعرف الفرق بين المفعول لأجله والمفعول المطلق، ولا يعرف الفرق بين كلمتى خلط ومزج، بل وأراهن إنْ كان يعرف شروط الوضوء، أو مَنْ هو الجاحظ أو ابن خلدون.. ويكون ذاك «الكاتب» قد طبع عدة أوراق، أسماها كتاباً، وراح ينفخ حاله، ويمرّ مقطّبا متجاهلاً، وكأنه «كشاجم»، رحم الله.

* * *

أىّ زمن هذا الذى نعيشه؟ وما هؤلاء الأدباء الذين لم يلحقوا بالمرضى بعد؟! حملتُ الأوراق، وفردتها على مكتبى، وقرأتها عشرات المرّات، وكل ما فعلته هو أننى أصلحتُ بعض الكلمات من حيث لغتها أو إعرابها، وأخّرت بعض الكلمات وقدّمت أُخرى.. وسمحتُ لحالى أن أكتب مقدمة مكثفة قصيرة، تختصر ما جاء فى تلك السرديات، وهذا، ربما، ما يفسر وجود مقدمة أقرب للذهنية واللغة العالية، قبل الولوج إلى تلك النصوص البسيطة السلسة المنداحة بعفويتها وفطريتها.

* * * * * *

ودفعتُ الأوراق إلى السكرتيرة لتنضيدها، وراجعتها غير مرّة، وأرسلت بها مصفوفة، بحرف واضح، إلى صديقى الرنتاوى، البليغ فى النحو والصرف وأحوال لغة الضاد، فاكتشف أخطاء كثيرة فاتتنى، وأرسلتها بعد ذلك إلى مكتب للمونتاج، وأنهيت كل ما يلزمها فنيّا، لإرسالها إلى المطبعة، فلم أجد جهة تتبنّى طباعة هذه الهلوسات وهذا الجنون، فلم أجد بُدّاً من وجود قارئ يشاركنى استكمال هذه النصوص، فلم أجد أفضل من أصدقائى الذين نسهر معا، كل مساء تقريبا، فى مقهى «إيليت» برام الله، فقرأت على مسامعهم قصة إثر أخرى، بواقع قصة أو اثنتين كل ليلة، فراحوا يتناقصون ويتغيّبون، فاعتقدت أنهم مشغولون، لكن الحقيقة هى أنهم لم يحتملوا سماع هذه القصص أو النصوص، بل إنهم ملّوا من صداقتى الثقيلة، التى تبهظ أسماعهم، بقصص المجانين المختلّين، وصرتُ أذهب إلى «إيليت» فلا أجد أحداً، وأصبحتُ بلا أصدقاء!

وما علينا، إنْ كتبنا حرفًا ألا نُلقيه أو نتلوه أمام أحد مهما اشتدت قرابته، فالقراءة خيانة، وكذلك ادّعاء الكتابة، أما الصداقة فهى أمر مبالغ فيه، كما أنها نتاج شروط الطرفين، وليس شرط طرف واحد، حتى ولو كان مبدعًا، أو إنْ كان يعتقد هكذا عن نفسه، كما أعتقد أنا!

* * *

(نصرخُ من المكائد التى ينسجها الأقارب والأصدقاء، مع أنها تمنحنا وقتًا مؤلمًا وجميلاً لنقصّها على الغرباء)...

* * *

يا لفجيعتى وظنّى السيئ! لقد اعتقدتُ أن أصدقائى هجرونى بسبب سماجة القصص، وعدم قدرتهم على احتمالها، وللمفاجأة، فقد اتصل بى الدكتور عبد السلام، وأبلغنى أن أصدقائى واحدًا تلو الآخر تناسلوا، سرًا، إلى عيادته، لخوفهم على أنفسهم من الجنون!

فزعتُ من خبر صديقى الطبيب! فإن كان أصدقائى قد استشعروا الجنون لمجرد سماعهم القصص، فكيف هو الأمر معى؟ أكيد، أنا غير طبيعى، وبدورى، أرى لزامًا علىّ أن أراجع الطبيب النفسى، ولكن لن أذهب إلى الدكتور عبد السلام، فهو صديقى ويعرف عنى كل شىء، ولا داعى للحرج. ذهبتُ إلى طبيب آخر، عيادته فى البلدة القديمة، فى بناية تقع بين الكنيسة والجامع، واسمه د. إبراهيم، وبمجرد أن رآنى عرفنى، وغبطنى على شجاعتى لزيارته، لاعتقاده أن الأدباء والفنانين، عمومًا، عليهم مراجعة العيادات النفسية بين الفينة والأخرى، حتى يظلّوا متوازنين. سجّل بعض المعلومات العامة عنّى على نموذج مطبوع، وأشار لى أن أستلقى على سرير ناعم، ويبدو أن ثمة موسيقى أليفة وخفيفة، تكاد تصل من مكان بعيد، وجلس الطبيب على

مكتبه، وفتح آلة التسجيل، وأمامه ورق وقلم، وعقد كفيه أمامه، وهزّ رأسه مطمئنًا، وقال بصوت وديع: قُل ما تشاء، واعتبرنى غير موجود، قُل ما تريد، وابدأ من حيث تريد.. وبدأت أشعر أنى مرتبك قليلاً، والمسائل تتزاحم فى عقلى ولا أدرى كيف أبدأ، أو من أين، ولكن، لا بأس.. سأبدأ.. وُلدت فى الحقل، ذات ربيع شمسى، ولمّا قامت أمّى لتجفّف مشيمتها، كان عمرى قرابة السبعين عامًا، وراحت ترضعنى لباء الفرس ونسغ الغابات وعرق الينابيع وعسل الصخور، ومَسَحَتْ جسدى بزيتِ طفاح لاذع، ولفّتنى بموجة شالها المزركش، بالزهور وعروق الدوالى والأرجوان، فأقاموا لميلادى ليالى الفرح وموائد الزاد، فشربتُ الأغانى من فم النايات ورعاة النغم المذبوح بالرمش والعطش، وكان المكان جميلاً فاتنًا إلى حدّ الخوف. وأصبحتُ كهلاً، وما إن دخلت المدرسة حتى اجتاحوا البلدة، وكان أبى الشاب يحمل جناده وبندقيته، ليحمى الزرع والقمر والضفائر، فسجنوه وقتلوه، وشرّدوا الحارة، وصار دمُ الحوامل ياقوتًا يرهج بحمرته الساخنة فى الطرقات.. وأضحيتُ شابًا، وبحثتُ عن ذاتى بضع سنين، حتى وجدتها فى الخيام والأحلام والحنين الجارف، وبدأ النشيد! كان اللحن جسورًا وضاريًا، عبقريًا وطويلاً وعميقًا، كسر، غير مرّة طبول الجيتو الجديد، ودابّته الفولاذية الناعقة، واستجابت مدائنُ الصفيح والحجر والشواهد، لأذان السُّراة، واحتدمت الفضاءات بآفاق الطفولة المزدهرة، بكفوف الحنّاء وتراويد النساء الثاكلات، وتوالد الأمل، تلك الميزة البشرية، وكان من المؤكد أن يتطوّر الاحتمال، ويفهق البركان ويتّسع، لكنهم اعترضوه باتفاقات الهواء، وأبقوا مدننا بلا رؤوس، فى زمن السلام الجنائزى! وربما أقول؛ كان ثمة احتمال، لكن هشاشة التنفيذ وهوامش الخطايا، وعشائرية الثورة، التى لم تصنع المرجل جيدًا، أدّت إلى أن يعانق الثائرُ قاتله، قبل أن يحظى بغرفة حُرّة فى بيته، ما أتاح للمغتَصِب أن ينقلب بسهولة قاسية، على اتفاق الأمن والإلحاق، مواصلاً استغلاله لصورة المصافحة الفخّ. وذبلت الباقة، بكل مكوناتها المُلفّقة البسيطة، وأُرهِقَ العبق إلى حدّ التلاشى، وها نحن نصفق فى هُوِّ الفراغ، دون قاع أو

نفق نرى آخره مُضاءً بوجه الحليب أو الكلام. وكنتُ سأقول: كيف ننتصر بالخيانة أو الضعف والتسليم، لكننى توقفت، وصمتُّ، فأشار الطبيب لى أن أواصل الكلام، لكننى استويت فى جلستى، ونهضتُ على قدمىَّ، وقلت له:

أيها الطبيبُ الطيِّب؛ لم يبق فى عُمرى غير طفولةٍ هَرِمة، ولم أُكمل الطريق بعد، ولم أصل. ابتسم الطبيب، وقال: أيها الشاعر، لم أرَ فى كلامك ما يشير إلى الجنون، أنت عاقل، لكنك على حافة الولادة من جديد.

* * *

خرجتُ من العيادة وأنا أحدّث نفسى: ماذا؟ كيف سأولد من جديد؟ يبدو أن الأطباء النفسانيين يُصابون بعدوى مرضاهم! وذهبتُ من فورى إلى نصوصى وأوراق قصصى، وتصفحتها، مؤمِّنًا على أنها كاملة، لا تشوبها أخطاء الطباعة، وحملتها إلى مطبعة أبى حكمت، واتفقت مع صاحبها على إصدارها خلال أيام.

وصدر الكتاب!

السـرديّات

حَبْشين

«بيّارته أكبر من البحر»، كانت تقولها لنا أُمّى عندما يأتى يوم العيد، ويسلّم عليها ويعيّدها دون أن تتبدّل ملامحه الحجرية الصارمة، ويخرج مكتفيًا بكاسة شاى.

ويبدو أنه ارتخى للنهاية اليائسة، فاستسلم، كمريض، لا يتغيّا الشفاء!

وربما كان يعتقد أن شَجَرهُ مروحةُ الدنيا، وأن بيّارته أغنية خضراء، ولكن الخنازير قد أخذت قالب الحلوى، ولن يرحمه غيرُ هذا الصمت والحرمان اللذين أعطياه الموازنة الدقيقة بين البقاء والفناء، مثلما أعطياه مقاربةً يظل معها شهيدًا فى بيت عزائه الذى لن يُغلق إلى أبد الداهرين.

* * *

ربما يبتسم، لكنه لا يضحك ولا تُرى أسنانه! ولم يحضر عُرْسًا، ولم يشارك فى زفّة أو سامر. يؤدى يومه بآلية رتيبة، ويجلس فى حسبته يبيع الخضار والفاكهة، ويظل صامتًا فى ذاته ومشاويره الغامضة الزائغة.

كان لقبه «حَبْشين»، ولا يدرى أحدٌ ما معناه ومنْ أطلقه عليه، لكنهم ينادونه بأبى زهدى.

وأبو زهدى الذى كان يملك بحرًا من بيارات يافا الممتدة حتى أراضى اللد والرّملة.. هاجر إلى بلدتنا وافتتح حسبته، وحرّم على نفسه أكل البرتقال أو شرب عصيره ما دامت البلاد تحت دياجير الاحتلال.

لكن جار أبى زهدى الذى يعرف أنه يشرب من إبريق الفخّار الموضوع على بسطة الشباك الكبير.. قد عصر كمية من البرتقال، وصبّها فى الإبريق رحمةً بأبى زهدى ليتذوق فاكهته التى حرّمها على نفسه!

وكالعادة، مشى أبو زهدى إلى إبريقه، ووضعه على فمه، وكرع جرعةً، ثم ألقى بالإبريق بعيداً، فتهشّم!

نزلت جرعةُ البرتقال إلى أمعاء أبى زهدى كأنها سمٌّ زعاف، فتلوَّى، فحملوه إلى المستشفى، فضاقت أنفاسه، ولم يلبث يومين حتى مات!

أبـو شـيبـان

ثمة زوبعة ناعمة تدور فى الطرقات كأنها غمامة عطر لا يراها أحد، بل يسمع حفيفها، ويشم نرجسها الشتوى.

وثمة قلب صاغه الخالقُ من خالص رحمته، وصبّ فيه فضّة المآذن والنداءات البعيدة ودروب الآلام، وَتَوَّجَهُ قُبّرةً على ذروة الجُلجلة، فشفّ وأنار، وماثل الندى فى أحداق البراعم والأجراس، فكيف له أن يكون حجراً صلداً؟ حاول أن يكون كذلك، لكن الحجر ذاب فى صدره، وعاد أكثر رقّة من لمسة العروس لفاتنها المقدسة.

* * *

لعل إيمانَ أبى شيبان لم يحتمل أن يرى «اليهود فى القدس»! ويسقط عليه هذا الأمر قدراً ثقيلاً! فالأهون عليه أن يغادر هذا الواقع والقدر المحتوم ويغادر وَعْيه، لأن هذا الوعى لا يستوعب قسوة «الحقيقة» المناقضة لكل وَعْيه واحتمالاته.

وبمغادرته إلى عوالم كثيرة، فإنه يكون فى حالة دفاع دائم عن إيمانه الذى تقهقر أمام ذلك الحدث الداهم الثقيل.

وبالتأكيد، فإن إيمان أبى شيبان لم يتغيّر، لكنه هُزم كشخص. فثمة مؤمنون لا يحتمل إيمانهم أن يُهزم، لأنهم يدركون أن هناك مُجبرات وفجائع وحقائق مبهظة فى الحياة، لهذا يقاومونها ويرفضونها ويتألمون لذلك، وقد يُهزَمون كأشخاص، لكن إيمانهم لا يُهزم! لأنهم على يقين أن الإيمان كينونة وليس كائناً.

* * *

نشعر بندم شديد! لكننا كنّا صغاراً لا نُدرك أن اجتماعنا ولحاقنا بأبي شيبان وصراخنا خلفه مستهزئين سيورثنا هذا الندم الممضّ! كان رجلاً قد تجاوز السبعين، يمشي هائماً على وجهه المفزوع بلحية شائكة بيضاء، وسروال متّسخ، حافياً زائغاً، وكثيراً ما كانت روزته تنفتح فتبدو كالعباءة على كتفيه، فتظهر شلحته المتسخة وسرواله الفضفاض المُهترئ. وأبو شيبان كان رجلاً ولا كل الرجال.. عاقلاً.. دمثاً.. قليل الكلام.. محتشماً.. خجولاً.. ذا مروءة وكرم، لكن صبيحة اليوم الثاني من نكسة حزيران العام ١٩٦٧ كانت كافية لأن يخرج أبو شيبان على غير هدى إلى الناس يسألهم عمّا جرى، فصار يمسك بقبّة هذا ويد ذاك، ويلكز هذا ويصرخ في وجه ذاك، وهو غير مُصدّق، ويكرّر جُملته الواحدة: هل هُم في القدس الآن؟ ثم يصرخ: اليهود في القدس.. يا باي، ويلطم على وجهه، ويبكي! فيضرب الناس كفّاً بكفّ ويقولون: لقد جُنّ أبو شيبان! وظلّ أبو شيبان ينظر في الوجوه، ويتفحّص الخلائق الذين انغمسوا في أعمالهم صارخاً في وجوههم، يشدّ مَنْ يجده، حتى باتوا يتحاشونه، كأنهم يفرّون من سؤاله الذابح!

كان طبيعياً أن تصدف أبا شيبان دائراً كالزوبعة في الأزقة والشوارع، يتمتم بكلامه المُبهم وخطواته السريعة التائهة، حتى غاب عن الأنظار، ولم يفطن أحد لغيابه، فقد وجدوه متكلّساً في حقل الليمون جوار البلدة لشدّة البرد، فظنوه مجمّداً أو مغمياً عليه، لكن طبيب الوحدة الصحية أكد أنه ميت منذ ما يزيد على شهر، والعجيب أن جثته لم تتعفّن ولم تتغضّن، وظلت بطراوتها وأنفاسها الدافئة كأنه حيٌّ يرزق.

وظلّت البلدة دون سؤال!

صلاة الجماعة

قرنفلة المصاطب الفوّاحة تحت قبّة البرتقال تتّسع لأبناء الأنبياء الذين يحرسون قلعة السلام والقلوب، ولها أن تبدّل ثوبها الطفل من اللبن إلى العندم حتى ينتهي الغروب بعنادٍ أشدّ من عناد الواهم، ولها أن تقيم صلاتها الفذّة حتى تكون الوردة بركانًا من حمم الجلّنارة العارمة، ولها بالنداء الخفيّ استدراج طيور بدر الأولى ليعودوا إلى أرض تليق بهم، وينزلوا إليها كل نهار وليلة قَدْرٍ ومسيرةٍ تطفو فوقها النعوش الطائرة.

* * *

أبو سلَمة خفيف الظل، ذو غمازتين حلوتين، واثق كل الثقة من أنّ للبيت ربّا يحميه. فما إن يتحادث الرجال عن الشائعات التي تقول بأن اليهود سيقومون باحتلال ما تبقّى من القدس، حتى يدير ظهره لهم، ويقول جملته البيضاء في وجه كلامهم الأسود، ومفادها:

إن للحَرم ربّا يحميه! أما في يوم الخامس من حزيران في ذلك العام المشؤوم ١٩٦٧، فقد هُدمت قناعة الرجل عندما سمع جنودًا يرطنون بلغة غريبة تختلط مع قعقعة السلاح وأسماء لم يعهدها؟ ففتح أبو سلمة الشباك، ونظر إلى السماء، وقال: لماذا تحرجني؟ ماذا سيقول الناس عني؟

* * *

بعد شهور رأى الناس أبا سلمة يذهب عند أذان المغرب، ويقف بين شواهد القبور، في مقبرة الرحمة شرق البلدة القديمة، وحده، ثم يُقيم الصلاة وحده، أيضًا،

ويقف إماماً وينظر يمينه ويساره ويقول:

استقيموا إلى الصلاة يرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، ويصلّى كأنّ وراءه مُصلّين! وكم كان استغراب مَنْ رآه يصلّى إماماً فى جماعةٍ وهو وحدَه ليس إلاّ.

وتكررت صلاة أبى سلمة وإمامته فى الناس غير المرئيين، وكان ذلك كل أسبوع تقريبًا! وصادف أن أبا سلمة كلّما قام بصلاته تلك وقعت عملية فدائية؛ تفجير هنا وقنبلة هناك، ورصاص هنا وكمين هناك، وراح الناس يربطون بين إمامة أبى سلمة فى المقبَرة والعملية البطولية التى ستقع بعدها بساعات!! وذُهل أهل المدينة غير مصدِّقين تلك العلاقة الحقيقية والمبهمة، والرابط الذهبى بين الصلاة والجهاد!

ووصل الخبر إلى المخابرات الاحتلالية، فقامت باعتقال أبى سلمة، وأخضعته لتحقيق مكثف وشرس وطويل، غير أنها خرجت خالية الوفاض، ولم تتمكن من استخراج حرف واحد من فم أبى سلمة، فوضعته فى زنزانته وحيداً مُنعزلاً.. وراحت تراقبه!

كانت المخابرات قد وضعت عدسة كاميرا تراقب أبا سلمة ليلا ونهاراً، وتعدّ عليه أنفاسه، وتراقب صلواته ودعواته ونومه وقضاء حاجته! وأخيراً، لاحظوا أن أبا سلمة قام ووسّع المكان الضيق فى زنزانته، ونفخ غبارها ومسحه بيده، ووقف فى زاوية الزنزانة وكبّر وأقام الصلاة، ونظر خلفه يمينًا ويساراً وقال: استقيموا إلى الصلاة يرحمنا ويرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، وراح يُصلّى جهراً صلاة المغرب كأنّ أسرابًا خلفه تؤمّن على ما يقوله من كتاب الله العظيم، وفى اليوم التالى كانت عملية فدائية قد خسفت تجمعًا لجنود الاحتلال! فأعادوا أبا سلمة إلى التحقيق، ولكن دون جدوى!

عمّى كابور

كثيرة هى المستعمَرات التى خضعت لحمولات الحديد الثقيل، والتى أحالت أصحاب الثرى والعشب أقنانًا وعبيدًا يسلخون فروات رؤوسهم لتكون معاطف للسادة البيض؛ القتلة. وكثير من المتنوّرين الذين باعوا نار بروميثيوس وبندورا وقناديل ديوجين للدجّالين ومصاصى الدماء، فكانوا، على رجولتهم البادية، كالمخصيين فى بيوت الدعارة. وقليل كثير، أو كثير قليل، مثل كابور أو عمّه طاغور الذى رفض أن يكون «سيّدًا» بأمر التاج الذى يبهظ أهله وشعبه وبلاده الرائعة.

* * *

لم يعد «كامب رأس العين» كما وصفوه لنا! غير أنّ بناية سكّة الحديد التى تقابل المعسكر البريطانى المذكور ما زالت قائمة على رَهَق وخراب. ففى هذا المعسكر وفى الثلاثينيات من القرن الماضى كان «العايق» يعمل سُفرجيًا أو قل طباخًا لجنود الانتداب، وبالرغم من أنه أُمىّ، فإنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة واضحة وبلكنة أهلها، وكان صديقًا للكابتن كابور الهندى.. أحد الضباط البريطانيين المسؤولين فى هذا المعسكر.

* * *

توقّف القطار مساء أحد الأيام، وأنزل الجنودُ مجموعةً من المعتقلين المكبّلين بالسلاسل، وأدخلوهم إلى سجن المُعسكر، وطلبوا من كابور أن يتحفّظ عليهم حتى يتم نقلهم إلى سجن عكا لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، فهم «إرهابيون» يقاتلون بريطانيا العُظمى!

لاحظ كابور أن المعتقلين فى غرفتهم، ببوابتها الحديدية الغليظة، قد اصطفوا خلف أحدهم، وراحوا يركعون ويسجدون، وأطالوا فى صلاتهم!

أمَرَ كابورُ العايقَ وطاقمَ المطبخ بأن يعدّوا طعامًا للمعتقلين، وأن يكثروا منه، وأدخل إليهم الماء والشاى والسجائر! ولم يذهب كابور إلى سريره، فقد تسلل إلى بوابة السجن ليعرف قصّة هؤلاء المعتقلين!

* * *

فى كهف بعيد، جلس أفراد المجموعة دون سلاسل وقيود، ومعهم العايق وكابور، فقال أحدهم: لنُصلِّ ركعتين شُكرًا لله.

فوقفوا خلف إمامهم، ووقف معهم كابور مُكبّرًا! فأوقفوا صلاتهم وراحوا يعانقونه بقوة وثبات.. إنه مسلم مثلنا! ولهذا هرب بنا من السجن.

بعد تسع سنين اندحر الانتداب، وخرجوا من كهفهم، وعاد كل منهم إلى أهله.

بعد شهر كان العايق قد حمل شقيقته عروسًا إلى كابور، وأعطاه الغرفة المجاورة لغرفته، وأصبح أولاد الهندى أصدقاءنا فى المدرسة وإخوتنا فى الحياة، غير أنهم كانوا يسبقوننا فى قذف الحجارة ساعة المواجهات، أيام تلك الانتفاضة الطويلة، والتى توّجها أحمد– ابن كابور– بأن كان أول شهيد فى البلد يوم أن انفجرت البلاد بعبقرية واحتدام.

البغلة فى الإبريق

لم يخرج من قريته حتى يعرف أن الدنيا أبعد من خط المحراث، لكنه كان يتنفس مع الجذور التى تقطعت فى التراب الذى حَزَّه لتوّه، فيعرف أن الموسم سيكون مائساً وجزيلاً. أما ذلك العام، فقد يبس سطحُ المروج وتثلّم المحراث، وتقرّحت جروح البغلة، بل أخذه النومُ ولم يستيقظ على مدار أسبوع لصلاة الفجر، حتى إنه قال: لقد رأيت منامًا صعبًا، ونسيتُ أن أستعيذ بالله من الشيطان، وأن أتفل عن يسارى ثلاث مرات... لقد كانت إشارات تؤكد الذى جرى.

* * *

كان أبو العبد حرّاثًا محترفًا، حتى إنهم قالوا: إن بغلته تفهم عليه، وتشفق على عياله! وفى الشتاء كانت الحراثة وافتراع الأرض يتوقّفان، فيظلّ أبو العبد فى جامع «سيدنا علىّ» القريب من الشاطئ شمال يافا خادمًا أمينًا له، يعبئ أباريقه، ويشطف المتوضّأ والكنيف، ويغلق بوابته ليعيد فتحها قبل التذكير لصلاة الفجر.

وزلزلت الأرض، وانطبقت السماء عليها، وتفشّت شائعات المذابح قبيل النكبة، وغاصت العُصابات فى الأرحام والدم والأعراض، فحَمَل أهالى قرية «سيدنا على» بعض أمتعتهم وذهبوا شرقًا لينجوا بأعراضهم وصغارهم، فوضع أبو العبد ما يملك من جنيهات فى خُرج البردعة وغطّاها بالجاعد، واعتلى البغلة وخلفه ابنه العبد وأمامه ابنته الصغيرة، وسارت أم العبد مع أهلها خلفهم. وما إن وصلوا إلى مشارف القرى الشرقية حتى باغتتهم العصابات برصاصها المجنون وزعيقها وقنابلها، فتفرّق سرب المهاجرين، وجفلت بغلة أبى العبد، وربما أصابتها رصاصة، فهاجت، فوقع أبو العبد مع صغيريه عنها، وشَرَدت البغلة بما تحمله!!

* * *

حلّ اللاجئون فى المدرسة، ونزل بعضهم عند أقاربه، ثم رحل معظمهم إلى شتات الجهات، وظلّ أبو العبد وحيداً فى المدرسة، فقد قَتَل الرصاصُ زوجَته، ومات صغيراه لدى سقوطهما العنيف عن البغلة، على رغم أنهما بقيا على رمق من الحياة لمدة شهر تقريبًا قبل أن يدفنهما أبو العبد بيديه!

عمل أبو العبد آذنًا وفرّاشًا دون أجر فى المدرسة اليتيمة التى كان ينام فى إحدى غرفها، والناس لا تقطع إحسانها ولفتاتها تجاه هذا الثاكل الصموت!

كانت كلمة «البغلة» هى كل ما يردده دون قصد مع نفسه، فيسمعه البعض يرددها، فيسألونه؟ فيقول: لا أدرى! فيقولون: ربما فى القرية الفلانية أو العلانية، اذهب واسأل، فربما وجدها أحدهم.

يحمل أبو العبد نفسه ويدور فى القرى، ويسأل مَنْ يصادف: أين البغلة؟ فيحسبونه معتوهاً أو مجنونًا، فيتركونه ويمضون فى شؤونهم، حتى وصل الأمر بأبى العبد إلى أن يُفتّش زواريب البهائم وسقائف الحمير والبغال وحوايط الغنم والبغال، فيظنونه سارقًا، فينهرونه، فيزداد غضبًا، وينفجر حانقًا إلى أن راح يفتش الدكاكين والمحلات، فيدخل على أحدهم ويأمره أن يفتح جارور مكتبه أو خزانةً منصوبة فى محلّه، وينظر فى البرطمانات والأباريق، فيستغربون سلوكه، ويسألونه: عمّا تبحث يا هذا؟!

فيجيب: عن البغلة!

وهل البغلة هنا؟

فيقول: ربما تكون هنا فى الخزانة أو هناك فى الإبريق.

وما زالت البغلة تركض فى السهوب والشعاب والجبال والليل، وما زال أبو العبد يبحثُ فى الإبريق!

الحاجة زينب

العدالة التى كان يجب أن تكون سيدة تزهو بصداقتها لزينب هى الآن سيدة عمياء لا ترى ما جرى ويجرى هنا، وليس هنا فحسب، بل فى أرض السواد القانى، وفى بلد التين والزيتون الذى كل شيء فيه شهيد؛ الحجر والشجر والطير والرضيع.

وأُمّنا زينب التى حملت ميراث الطفّ وكربلاء هى زينب التى ستلد بعد حينٍ حُرّة، كاملة العسل والينابيع، وستقول للعالم الملىء بالقوانين إنها فى النهاية ستُطيع نفسَها، وستبقى حُرّة، وستُعيد البصيرة إلى السيدة العمياء؛ العدالة!

* * *

ليس للحاجة زينب ذكرٌ عالٍ فى الدنيا، ولم يعد لها جثمان يردمون عليه التراب، ولكن لها أبناء يذكرونها بالخير، ويقدّمون لحضورها البهى فاتحة طاهرة ودمعة صادقة، ولربّما لن ينساها المخيم ما بقى. كان الحنّاء أخضر على كفّيها وكعبىْ قدميها، ولم تلبس من ثياب صندوق الصندل إلاّ المطرّز ذا الأردان، والشال الشامى الناعم، لكنها احتملت مع «أبى السعيد» عيشة الخيمة، وأقامت معه السقيفة فى المخيم حجراً حجراً، وجبلت بيدها التراب المخلوط بالقشّ والتبن، وابتهجت للمعة ألواح الزنك وهى تغطى سقف الغرفة التى مدّها أبو السعيد بالأسمنت المالس.

وكبر سعيد وسعاد، ولم يشعرا باليتم بعد أن سقط أبو السعيد عن سقالة البناية التى كان يعمل فيها، ولم يكونا قد تجاوزا الثامنة والسادسة من عمرهما. وهاجر سعيد إلى الكويت، وتزوجت سعاد فى قرية مجاورة، وأقام سعيد بعد سنوات من البحبوحة والعمل داراً مكان السقيفة!! وعندما وقعت نكسة حزيران العام ١٩٦٧، كان

سعيد في الكويت، ولم يحصل على «المواطنة» فكان يأتي لزيارة والدته «أم السعيد» كل عام أو اثنين بوساطة تصريح من «الإدارة المدنية» المحتلة.

أما سعاد، فقد دهمها مرض فتّاك بعد زواجها ببضع سنين. وبقيت أم السعيد وحدها في البيت، تفرش حنانها وعطاءها على كل بيوتات المخيم، حتى أصبحت أنيسة كل محتاجة أو مصابة، وجابرة خواطر الأرامل والمستورات. وعند الغروب تفرش سجادتها أو الجنَّبيَّة على مصطبة مدخل بيتها، تسبّح وتتمتم، وتردّ التحيات بأحسن منها على الصغير والكبير، وتأتي الختيارات والعجائز والجارات ويجالسنها، حتى بات مقعدها ديوانًا يقصده كل مَنْ يبحث عن أمّه أو زوجته.

خلال سنوات الانتفاضة الكبرى، ومنذ اندلاع انتفاضة الأقصى المتواصلة، ازداد نشاط الحاجة زينب التي شاركت كل دار بالمخيم بدموعها وزغاريدها، ولها الطاعة والاحترام، ولرأيها الذي قلّما تدلي به النفاذ والتقدير.

وعندما حاولت الدبابات والمدرعات اقتحام مخيم جنين، كانت أم السعيد تتحزّم وتشدّ رأسها بعصبة المنديل، وتلحق بالشبّان، في محاولة لتقديم أيّ شيء قد يحتاجونه، وصوتها يعلو بالدعاء والدعوات، حتى أصبح وجود الحاجة زينب جزءًا من مشهد الشباب وهم يتحلّقون في الساحة أو خلف الجامع، تقتعد حجرًا مثلما يفعلون، وتنسلّ لتعود وهي تحمل بعض الطعام وصينية الشاي، وتظلّ معهم حتى انبلاج الخيط الأبيض.

ولمّا اجتاحت المدافع والآليات والجنود المخيم، وراحت الطائرات تقصف، والمدافع ترمي، والمدرعات تهرس كل ما يعترضها وتجرش كل شيء، وضاق المخيم على ضيقه بمَن فيه، اضطر عدد من الشبان إلى الاحتماء في بيت أم السعيد.

لاحظت الحاجة زينب أم السعيد أن ثمة صندوقًا يحمله الشباب مليئًا بالمتفجرات والديناميت، فصمتت واعتراها ذهول حتى كأنها يبست في مكانها، فظنّ بعضهم أن

الخوف نال منها، وفجأة طلبت من أحد الشبان أن يذهب سريعًا ويحضر لها الشيخ أحمد، ولمّا حاولوا استفهام ذلك، قطعت الجدل بإعادة طلبها، وبعد دقائق حضر الشيخ، فأخذته بعيدًا عن الشبان وهمست فى أذنه، ولم يَر الشبان الشيخ إلا وهو يومئ بالإيجاب، ثم قالت له: انتظر يا شيخ، ودلفت إلى غرفتها، وأحضرت رزمة أوراق ملفوفة بالنايلون القديم، ومبلغًا من النقود أعطته للشيخ، وقالت له: هذه الأوراق هى كواشين أرضنا ودارنا فى «البلاد»، أعطها للسعيد أمانة، وهذا المبلغ توزّعه بمعرفتك على المحتاجين، ثم استدركت قائلة له: أكيد شهيدة يا شيخ؟ فقال لها: أكيد يا حاجة، فابتسمت له وقالت: الله معك، سلِّم على أمك وعيالك. وخرج الشيخ أحمد من البيت وهو يقلّب فى يده الرزمة والدنانير غير واعٍ لما يحدث. بعد ساعة أو أقل، فتحت الحاجة زينب باب بيتها، وراحت تنادى الجنود الإسرائيليين وهى تولول، طالبة منهم أن ينقذوها من مجموعة شباب مسلحين دخلوا دارها ويحاولون سرقة مالها وذهبها، فهجم أكثر من عشرة جنود نحوها، ودخلوا وهى معهم، وبعد ثانية أو اثنتين انفجر البيت وتطايرت شظاياه، وانتعفت نوافذه وأبوابه، وهبط سقفه على مَنْ بداخله.

وعلى بعد أمتار معدودة، كان الشبان يقفون خلف نافذة أحد البيوت، بعد أن ضغطوا على مفتاح المُفجّر، وعيونهم الحمراء تسحّ على أم السعيد.

لقد تدبرت أم السعيد الأمر مع الشبّان، وأوهمت الجنود.. فتقدّموا.. ليتفجّر البيتُ بهم.. وبها!

الكلب أبيض

بضعة أيام، والفتيان ينامون على اطمئنان الرضا، وكلبهم باسط ذراعيه على مصطبة البيت العتيق، الذى وصله، قليلاً وأخيراً، ورثةُ أبرهة وأبى رغال، لكنّه الوفىّ الذى لم يبرح بياضه الأصيل الماسىّ، فإن كانوا أربعة فخامسهم كلبهم، أو خمسة فسادسهم، أو سبعة فثامنهم، وإن كانوا شعبًا من المطاردين والمعتقلين والجرحى، فإن المعادلة ستكون: شعبٌ تحرسه جباله وأشجاره، وكلابه أيضًا.

* * *

لم يرَ أهلُ البلدة قوات عسكرية ضخمة مثل تلك التى دهمت الدار التى تمترس فيها الشبّان المطاردون، مصطحبة معها الجرّافات وخبراء المتفجّرات والمناظير والمدفعية والمجنزرات، واستمر حصارها الدارَ يومين متتاليين، شهدت خلالهما زخّاتٍ متقطعة وكثيفة وطلقات وانفجارات وإضاءات ورميات ثقيلة. وانسحبت قوات الاحتلال، وظلّ بعضها يفرض منع التجول على البلدة، ويمنع الناس من الخروج، بل مَنْ ينظر من نافذته تأتيه رشقات القنّاصة من حيث لا يحتسب!

مرّ أسبوع والدار التى حاصرها الجنود قد تهدّمت وهالَ سقفُها على أرضها، وبالتأكيد استشهد مَنْ كان فيها! غير أن الجيران كانوا يرون كلبًا أبيض اللون يربض أمام بوّابة الدار المهدومة، وخافوا أن يكون قد أقدم هذا الكلب على مناوشة جثث الشهداء واقتطاع لحمها! فماذا يفعلون؟ لا حول لهم ولا قوّة!

ومرّ أسبوع آخر حتى انسحب الجنود، فهرع الناس إلى الدار ليستطلعوا ما جرى، فوجدوا جثث الشبّان غضّة سليمة، ودماءها يانعة خضراء متدفقة ساخنة

كأنهم سقطوا قبل لحظات! ولم يمسسها كلب أو طير أو غارب! وحينما حملوا جثث الشهداء، وخرجوا بها من بين الأنقاض، رأوا الكلب الأبيض يقف بعيداً، ثم أدار ظهره لهم.. ومضى!

لوحة الانفجار

كأنّ سيف النار قد دخل لحمه ونما معه يومًا بيوم، فكان أشبه بذلك الفارس الذى لا يُقهر! وكان يا ما كان أنّ السلطان أراد من ذلك الفارس الذى لا ينتصر إلاّ للعدل والحق أن يكون معه على الرعية البسطاء وضد أحلامهم الفقيرة المذبوحة، لكن الفارس أبى، وخرج على الحاكم الذى رماه إلى التنّين العظيم، فابتلعه، لكنّ الفارس، وبسيفه الذهبى شقّ بطن التنّين، وخرج إلى صهوته، ينفث نارًا تحرق السلطان، وتضىء الطرقات للأيتام والثكالى والضائعين!

* * *

كان ذلك أيام تلك الانتفاضة العبقرية التى أصبحت مثلاً للعالَم المقهور! والتى أعجزت الاحتلال ومنعته من زجّ سلاحه الثقيل فى المعركة! فالحجر لا يمكن أن يتصدّوا له بالمجنزرات، وعلى رغم هذا أحضروا كامل عتادهم ، وفرضوا حظر التجوال على المدينة بعد حفلة اشتباك حامية الوطيس، تهشّم خلالها أكثر من وجه، وانكسرت أكثر من سحنة، برغم الخوذات الفولاذية والرصاص الطائش والغاز المسيل للدموع!

ولم يجرؤ أحد على الخروج من بوابته، فالقنّاصة بالمرصاد، والجنود هائجون، والهواء يرتعد ويرتجّ ترقّبًا وخوفًا وانتظارًا، لكنّ جارتنا الحامل قد شارفت على الولادة، وباغتتها الحقيقة، ولا بُدّ من أن تضع جنينها، فاضطر زوجها أن يخرج من بيته حاملاً قميصًا أبيض، وراح يلوّح به، عسى أن يستمع الجنود لمطلبه، لكنهم راحوا يطرّزونه بوحشية خردقت جسده فترنّح وهوى! وخرجت امرأته الحامل على صوت

الرصاص، فرأت زوجها، وقبل أن تصل إليه صارخة مفجوعة بادرها الجنود بزخّات متلاحقة فتكوّمت فوقه، وجرى دمهما، وراح يتجمّع فى بِرك صغيرة، ويسير كالجداول الصغيرة على الشارع.

جُنّ جنون أهل الحىّ فخرجوا دفعةً واحدة مكبّرين صارخين، واتصل بعضهم بسيارات الإسعاف، وهاجوا وماجوا، واشتبكوا مع الجنود الذين اضطروا أمام انفعال أهل الحىّ وتقحّمهم أن ينسحبوا، وجاءت سيارة الإسعاف وحملت الأب والأم والجنين الذى مات قبل أن يرى الحياة.

أذكر أن طفلاً لم يتجاوز العامين، وخلال اشتعال الحىّ واندفاعته الأسطورية وهجومه على دوريات الجنود، كان قد خرج من بيت الرجل، وراح، دون وعىٍ، يمسح بكفّه الصغيرة الدم عن جسدى أمه وأبيه، ويصبغ به وجهه وملابسه، وما إن هدأت الحال، وحملوا الجثتين، وقبل أن يذهب كلٌّ إلى بيته، رأوا الصغيرَ مصطبغًا بدم أهله، باكيًا، لا يعى ما يجرى، وجاء أعمامه وأخذوه.

* * *

بعد ثمانية عشر عامًا، تردّد فى الحىّ أن شابًا من سكانه الأوائل قد قام بعملية استشهادية! ولمّا استوضحْنا الأمر، قالوا إن الاستشهادى هو ذلك الصغير، أتذكرونه؟ وهل يُنسى؟

ما زلنا نراه لوحةً داميةً ملطخةً باكيةً أمام جثتين تنزفان.. وتنزفان.. وتنزفان.. فى وجه العار الطاعن فى البلاد.

الحاجّة خدّوج

الفقراء لهم إسْراؤهم بأمرِ ربّهم العفوّ الوهّاب، وللثكالى أُمهاتِ الصغار المفجوعين بالفَقْد معراجُهن فى البياض الحصين، فإن نامت إحداهن حملتها الملائك إلى البيت العتيق لتبلّ قلبها بالحشد الخاشع العظيم، وليربط الله على فؤادها لتمضى بالأيتام إلى مشارف البلوغ والاطمئنان، لترى كلُّ ثكلى رجالَها يومَ عيدٍ قريبٍ يتواترون الواحد خلف الآخر يقبّلون الشيب والكف، وتنهمر دمعة الثلج التى كانت قبل قليل كاوية. ولا كفر ولا تكفير، لأنها حقيقة لامسوها ورأوها بأمّ أعينهم مع هذا التأويل المشروع.

* * *

تجتمع الجارات والقريبات، يردّدن ذلك الغناء الذى لم يعد يذكره جيلنا، إنه «حنين الحجّاج»، وهو عبارة عن ترويدات هادئة موقّعة، لكل مقطوعة منها لازمة، وتتحدث عن سفر الحجيج الى بيت الله الحرام، والشوق للرسول العظيم (ص)، والتمنّى على الله أن يُعيد حُجّاج بيته سالمين إلى ديارهم وقد تقبّل تبتّلهم ودعواتهم.

سافر الحجيج فى الحافلات التى سارت بعد صلاة الفجر المشهود وسط الدعاء والتكبير والتهليل.

وعاد الحجّاج بثيابهم البيضاء ووجوههم الوضّاءة، وراح أهل المخيم يتدفّقون على بيوتهم مهنئين مباركين، غير أن أحداً لم يذهب لتهنئة خدّوج!

وخدّوج هو اسم التحبب الذى أطلقوه على خديجة منذ ولادتها، وهى امرأة فى مطلع الأربعين من عمرها، ترك لها زوجها الشهيد سبعة أبناء صغار، ولا تملك من حُطام الدنيا غير ما تجنيه من ماكينة الخياطة التى لم تعد تأتى بهمّها!

والمخيم على امتداده صغير، والناس يعرفون دواخل بعضهم كأنهم أسرة واحدة، وقد علم الذين عادوا من الحجّ أن أحدًا لم يزُر خدّوج ولم يهنئها بإتمامها فريضة الحج!

لكن خدّوج لم تحجّ، وظلت فى المخيم! بل من أين لها أن تحجّ؟

لكن حجّاج المخيم أقسموا، نساءً ورجالاً، أنهم رأوا خدّوج تقف معهم على جبل عرفات، ولمحوها وهى فى صحن الكعبة المُشرّفة، وتُصلى فى الحَرَم المدنى الشريف، وتبكى أمام قبر النبى وتسلّم عليه أفضل الصلاةِ والسلام!

لكن خدّوج لم تخرج من المخيم منذ ترملّت، ولم تركب حافلةً، ولم ترَ مكة أو يثرب، ولا تحمل جواز سفر أصلاً!

* * *

ذهبت النساءُ اللواتى أتممن فريضة الحج معًا إلى بيت خدّوج، فعبق بخور الحرم فى صحنه المتواضع، ودلفن إلى الغرفة الصغيرة فوجدنها فى ثيابها الناصعة مشرقةً متهلّلة، فقدّمت لهنَّ التمْر وشربة ماء فى فنجان... قبّلنها وقفلن عائدات.

ولمّا سألهن أزواجهن: أين كنتنّ؟ وكيف خرجتن من البيوت دون أذونات منّا؟ كانت تقول كل واحدة منهن بصوتٍ حاسم: كنّا عند الحاجة خدّوج!

دائرة العار

تصل الحافلةُ قبل صلاة الصبح، وعلى الأهالى أن يكونوا مجتمعين أمام مكتب الصليب الأحمر، ومَنْ يتأخر دقيقة واحدة لن يزور!

فالطريق تحتاج سبع ساعات على الأقل، وعلى السائق أن يعود قبل المغرب، لأن التصريح الذى يحمله يبدأ من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة السابعة مساءً.

تنطلق الحافلة فى الليل البهيم، ويكمل معظمُ الأهالى نومَهم فيها، ومع الشروق وضوضاء الطرقات يستيقظون، ويتبادلون أطراف الحديث، ثم يفتحون أكياسهم وحقائبهم، ويمضغون ساندوتشاتهم الخفيفة بتخفٍ وهدوء، ويسكب بعضهم الشاى أو القهوة من التيرموسات التى أحضروها.

ويتعازمون ويدخّنون، ويأخذهم الكلام الذى لا ينقطع إلاّ عند كل حاجز تفتيش من الحواجز الثمانية التى توقفهم وتدقّق فى أوراقهم وهوياتهم وتفتِّشهم، وغالباً ما وصلت الحافلة بعد انتهاء وقت الزيارة، فيعود الأهالى كما جاؤوا، دون أن يروا أبناءهم وإخوانهم، أو يطمئنوا على أحوال المعتقلين!

كان جنود الحواجز يتعمّدون تأخير حافلات الزيارة ساعاتٍ وساعات، على رغم إشارة الصليب الأحمر التى تغطّى زجاج الحافلة الأمامى، كأنهم ينتقمون من المعتقلين ومن الذين أتوا بهم إلى هذه الدنيا! وأخيراً تصل الحافلة، فتجتمع الحافلات من كل المدن شمالاً وجنوباً، وينزل الأهالى فى الساحة المكشوفة لأنّ على الحافلات أن تنتظرهم هناك على بعد كيلو متر فى المكان المحدد لها.

وبالمناسبة، كثيراً ما تصاهَرَ الأهالى وتعارفوا وتزاوجوا لطول ما التقوا فى الزيارات.

ونعود إلى الأهالى الذين عليهم أن ينتظروا، فكل سجين له عشرون دقيقة يلتقى خلالها مع اثنين من أهله القريبين إليه من الدرجة الأولى (أب أو أم، ابن أو ابنة، أخ أو أخت، فقط).

ويدخل الأهالى حسب الترتيب الأبجدى لأسماء المعتقلين، ويُسمح بدخول عشرين من الأهالى لعشرة من أبنائهم، بعد حفلة تفتيش جسدى، وتحقيق وتدقيق، وسَمَّة بدن، وصراخ وأوامر وتحذيرات، وشتائم، وتحديق، وريبة... ويلتقونهم من خلف شبك حديدى مغطى بالكامل بلوح بلاستيكى أو زجاجى شفّاف، وثمة فتحات صغيرة ليسمع بعضهم بعضاً.

والأهالى فى الساحة المكشوفة محظوظون إذا لم تكن الشمس مسلّطة عليهم.. أو إذا كانت السماء لم تحمل ماءها حتى تنتهى الزيارة، ولطالما غرق الأهالى بعرقهم الدبق الغزير، أو تحت المطر وفى وحل الساحة الطامى الرخو!!

وكل ذلك يهون ومقبول ومعقول ويمكن استيعابه! ولكن، إذا أرادت امرأة أن تقضى حاجتها، فأين تذهب؟! لا مرحاض ولا تواليت ولا كنيف ولا خارج ولا حمّام ولا يحزنون، فالساحة مكشوفة مسوّرة، وعلى زواياها الأبراج والمراقبون المسلّحون! فماذا تفعل الأمهات والأخوات؟ وبالمناسبة، فإن الرجال يذهبون إلى السور ويقابلونه مباشرةً ويفرغون مثانيهم، والجميع يتحاشى النظر إلى مَنْ يذهب إلى هناك!

ونعود إلى النساء، ماذا يفعلن؟

قررت النساء أن يقفن على شكل دائرة محكمة الإغلاق وظهورهن إلى ظهور بعضهن حتى لا يستطيع الهواء النفاذ بينهن، وتدخل كل مَنْ ازدحم الماء فى مثانيها،

ويتـوالين، وغالبًا ما استـمرت النسـاء فى ضـرب هذا الإطار الدائرى سـاعـات طويلة، وبالطبع فـإن الحالة لا تخلو من صوتٍ هنا أو رائحةٍ هناك، ومن ضحكةٍ هنا أو غمزةٍ هناك، وهكذا قضـين حـاجتـهن، وتغـاضـين عن جنود الأبراج الذين ربّمـا يرون مَنْ تُقرفص وسط الدائرة! والرجال، طبعًا، يقفون معًا بعيدًا عن دائرة العار هذه!

... وفجـأة، وفى الزيارة الأخيـرة، وعندمـا انهلك الأهـالى من الرطوبة والانتظار، وهدّهم الجوع والتعب، وكانوا يفترشـون الأرض فى هذا الصـيف القائظ، وقفت امرأة من الأهالى وأنزلت تنورتها، ثم أنزلت سـروالها الداخلى، وقرفصت لتقضـى حاجتـها، فتصايحت النسـاء، وأدار الرجال وجوههم مـحوقلين، وحاولت النسوة أن يضربن حولها دائرة الإخفاء، لكنها صرخت....!

أسمنت الآلهة

بعد أن برأت جروحه التى أثخنته فى حطين، وصل متأخراً إلى المسجد المغسول بماء الورد ودمع الشكر للحميد، فبكى لأنّ اللحظة فاتته إلى حدّ ما!

ولمّا جمعوا أمرهم لِدَهْم الممالك اللاتينية لتسقط بأيديهم مثل الثمار الناضجة، كان على فرسه كالغرّة البيضاء، فخاض وتقدّم، وحمل واحتمل، ونزف وعرف، وشرب الترابُ دمَه حتى النهاية، فحملوه إلى هناك، ودفنوه بجروحه وعتاده وعجاجه وريحه الزكىّ النافذ الذى عبق حتى حطّ الطير والفَراش على أغصان قَبْرِه، فكيف لا تفرد الفراشاتُ أجنحتَها للذود عن الحىّ المدفون.

* * *

تهبط من القدس غرباً باتجاه يافا، على طريق باب الواد، قبل المنعطف القديم المؤدى إلى قرى زكريا وبيت جبرين والفالوجة، وقبل أن تصبح هذه القرى مستوطنات بأسماء وشوارع خلقت جغرافيا جديدة طردت التاريخ القديم. وعلى اليمين، وقبل أن تغادر آخر بيوتات القدس الغربية مباشرة، ومع بداية المنحدر الشديد، ترى جبلاً تغطّيه أشجارُ الأحراش المحتشدة التى كسته فروة خضراء، حتى لا تتب من تضاريس الجبل شيئًا!

هناك على رأس الجبل المُسمّى «جبل سيدنا على»، وهو غير «قرية سيدنا على» الواقعة على البحر شمال يافا، يقبع قبر قديم ما زال يحتفظ بشاهديه وحجارته المصطفّة على شكل مستطيل بائن ومحدد. ويبدو أن سلطات الاحتلال أرادت أن تشقّ طريقًا يقطع القبر، فأحضرت الجرافة لإزالته باعتباره قبر أحد «الأغيار» العرب أو المسلمين!

اقتربت الجرّافة بفمها المسنّن الفولاذى العريض، ومشت هادرة بثقة الحديد لإزالته، غير أن الجرّافة تعطّلت فجأةً، فأحضروا مَنْ يصلحها ليكتشف أنها بكامل جاهزيتها، فحاول سائق آخر أن يتقدم بها مرّةً ثانية فتكسرت أسنانها ومخالبها المشرعة!

أحضروا جرّافة ثانية، فأُصيب سائقها بنوبة قلبية، وجاء سائق آخر فانقلبت الجرّافة، وأحضروا بواجر فولاذية محمولة على ذراع حفّارة ضخمة، فتكسّرت وتحطّمت كأنها أسنان الحليب!

تشاءم القوم من هذا القبر، واهتدوا إلى أن يزرعوا الديناميت، ففعلوا، وانفجرت أصابع الديناميت دون أن يَحدُث ما ينبغى! كأنها ألعاب أطفال صوتية!

وسمع بما حدث بعض المستوطنين، فحضر حشد منهم وهم الذين يكرهون الأرض التى حملت، يومًا ما، عربيًا على ظهرها، وأقسموا أغلظ الأيمان بالتوراة والتلمود وكُتب الأنبياء والمشكاة وبملوك إسرائيل أنهم سيذرّون القبر فى الهواء، فأعملوا معاولهم، وما إن بدأوا حتى هاجمتهم أسرابٌ من الدَّبْر (الأدبُر أو الدُّبور) والنحل اللاسع، ففرّوا هاربين.

وكرروا التجربة ببواجر محمولة بروافع عَنْ بعد، وراحوا ينبشون سطح القبر، وقبل أن يخدشوه التفّت أفعى عظيمة على ساق أحدهم، فولوا هاربين!

... وما زال سيدنا على نائمًا فى قبره، غير عابئ بكل المُخططات التى تسعى لإيقاظه، والتى كان آخرها أن المُشرفين على شقّ الطريق قد قرروا أن يقصفوا القبر بطائرة «إف ١٦» ليحدثوا حفرة كبيرة مكان القبر.. الذى يُفترض أن تتطاير حجارته وأشلاؤه.

* * *

جاء في صحافة أمس أن طائرة حربية قصفت مجموعة عسكرية حاولت العبور من القدس إلى يافا عن طريق مفرق بيت شيمش «بيت جبرين»، غير أن المجموعة هربت واختبأت في مقبرة قريبة، ما دفع الطائرة إلى أنْ تُلقي حمولتها حيث يختبئون.

قماط القمح

كيف احتمل ذلك المغربُ رؤيتَها وهى تخنس فى سحر كهفه وتذوب نسغًا ساخنًا رَخِصاً عليه! وكيف لهذا أن يُبقى عينيه على اتساعهما.. وقد رأى انسراب دفقات النار إلى رئتيها!

لقد شهدت تلك الروابى امرأةً تخرج من خرافتها إلى أعراف الرجل الرانخ بالشهد الغاوى، وإلى عصا الساحر الذى يغرى الأفاعى لتخرج من ذراعيها إلى خاصرته أو ظهره، وتلدغه بنحلها ونحيبها المعجّز الخفيف.

* * *

يكتمل البدر، وتبدو أكوامُ السنابل تلالاً تصطف فى السهل الواسع كأنها قطع عجين فى فَرْش البيدر. والليل نهاريٌّ كأنه أوضح من ظهيرة الغزالة. وأهل القرى على ضفاف أكوامهم افترشوا القش الناعم بعد أيام الحصاد الساخنة والمطهمة بالسنابل التى اجتثوها، فأصبحت كما تبدو جبال خير ورزق وبركة.

والناس الذين يحصدون نتاج حرثهم وبذارهم وانتظارهم جاؤوا يحجّون «مُعزّبين»، كما يقولون، قرب سهولهم الذهبية الممتدة والمتماوجة كأنها بحر من عسل.

يرفعون أربعة أعمدة خشبيةٍ، ويغطونها بقطعة قماش فتصبح بيتًا صيفيًا ينامون تحته، ويجمعون أدواتهم وأغراضهم فى محيطه.

وبعيداً عن كل ذلك، يوقدون نارهم الصغيرة لإنضاج طعامهم أو لغلى الشاى، وكذلك لعمل «البحتية»، ويشددون على إطفاء تلك المواقد خوفًا من أن تصل شرارة منها

إلى البيادر، لا سمح الله، وتقع الطامة الكبرى، ما يفسر فى هذا الليل المكشوف سماع أصوات الناس وأصوات الليل الموسوسة، ولا ترى ناراً هنا أو هناك.

هو موسم الحصاد إذاً، وموسم دراسته وتذريته، وفصلِ أكوام القمح عن زوانه، ثم جمعِ ما تبقى من دريس السنابل لإلقائه فى ماعون مطحنة القش، لتصبح لدينا أكوام تبن يجمعها المُعَزّبون فى أكياس الخيش الكبيرة، فيما يجمعون القمح فى أكياس صغيرة يخيطون أفواهها الواسعة بالميبرة والخيوط الغليظة القوية. وبعد شهر تقريباً، ترى البرَّ حليقًا بعد أن كان زاخراً ومحتشداً باصفراره المتطاول البديع.

* * *

كان موسم الحصاد فى أوله، وكان عُرْسه فى أوّله، أيضًا، واتفق أن اصطحب عروسَه ليُعَزِّبا معًا فى موسم الحصاد، ليجزّا معًا حواكير القمح ويأكلا البحتية فى ذلك المساء الهانئ، ويبتردا فى فضاء المغرب الغائم بالشنانير وأسراب الطيور التى تحتفل بالتقاط حبوبها.

وفى ذلك الحصاد، جلسا بين كومتين كبيرتين من السنابل، ويبدو أنها طابت له بعرقها الخفيف اليانع، وباحمرار وجهها المصطلى بالشمس اللاهبة، فتمطّى فوقها، وعبّ من أنهارها، واندفن فى حريرها، وانسرب تحت أفاعيها، وفحّ مثل الحَمام على سواحلها. ويبدو أن حَبةَ قمح قد علقت من تحتها ببوابة رحمها، ويبدو أن الرجل قد دفع تلك الحبة إلى داخل المرأة بلزوجة ماتعة وعميقة.

* * *

انقضت تسعة شهور بالتمام والكمال، وجاء الطَّلْق، واستبشر الأهل بمولود يفتتح بصرخته الندية حياة العروسين. وحضرت القابلةُ وأعدوا الماء الساخن، وانتظروا المولود القادم، غير أن المرأة الحامل التى انبطحت على ظهرها، وفتحت ساقيها، وجلست القابلةُ تمدّ يديها أمام رحمها، لم تصرخ ولم تتأوه، كأن مخاضها مَريَميٌّ

طهور، وفجأة خرج من رحم المرأة مقدارٌ من قمح نقى مبرور ناصع وشهى وساخن، ثم هَرّ مقدارٌ آخر، تلاه مقدار ومقدار... حتى تراكمت كومةٌ من القمح بين ساقى الوالدة! وما هى إلا ساعة حتى كان المولود قمحًا ينثال من قمته متدحرجًا حتى بدا تلةً لامعة من حبيبات الشهد الداكن!

نهضت المرأة تنفض عنها القمح، وبانت بكامل قوتها، كأنها لم تكن فى مخاض وولادة، ثم أحضرت القماط الأبيض وجمعت فيه مولودها القمح، ووضعته على السرير.

وفى اليوم التالى كان زوجها يحرث البرّ، ويكربل بمحراثه أثلام التراب، وخلفه المرأة حاملة قماط القمح، فتقبض منه حفنةً وتنعفها فى الأثلام المحروثة.

وظلاّ يفترعان الأرض ويحرثانها ويبذرانها.. حتى لم تتبق حبّة واحدة فى القماط، وحلّ المساء، غير أن الليل نهاريٌّ ويُغرى بِفحيحٍ آخر!

جهاز الجدّة

استيقظت الجمرة، وخرّت بشررها القادح، وسقطت فى قعر القلب. وحضرت الشهوة الناغرة تشعّ من تحت الجسد، فأشرقت، وتعرّت، وأعجبها ما تكوّر أو انحفر، وأمتعها تمسيد النار على الماء البارد. وشيئًا فشيئًا صرخت أصابعها وسالت، وتناثرت أهواؤها وغامت، وخمشت الهواء واقشعرّت، وكانت بأصابعها تحوّم على سواحل الرعب وحافة النهايات.

وربما لم تدرك، من قبل، أن ثمة حداثة فى التاريخ، فقد كانت جدّة جدّتها تقضم الفراغ، وتزوغ فى بئر الذروة.

* * *

لم تتغيّر هذه المرآة منذ قرن تقريبًا، كانت هى والنمليّة والصندوق المرصّع بنجوم وأشرطة النحاس جهاز الجدّة. جدّة هذه البنت التى احتلت هذه الغرفة، وقد أخذت المرآة مساحة الجدار الموازى لبوابتها، وتنتصب على بعد شبرين من السرير الجديد الذى أحضروه لهذه الفتاة، التى أعجبتها المرآة بصفائها واتساعها ووضوح صورتها.

تضجر البنت، وتلقى الكتاب على السرير، وتنظر من الشباك، وتزداد مللاً، فالأشياء كما هى، والمشاهد لا تبرح أماكنها، فتنظر إلى المرآة وترى قوامَها الفارع، فتُعجب بجسدها، فتخلع ثوبها وما تحت الثوب، حتى تقف كما ولدتها أمها أمام صفحة الزئبق الرائقة، وتتحسس مفاتنها، وتحضن بكفّها الرّمان والمدمع الساخن، وتذرع بيدها ببطءٍ على خصرها وصولاً إلى ساقها، وترتخى على سريرها غارقة فى رهام العَرَق الدافئ.

يا إلهى، لَنْ سيكون هذا البلور الإلهى؟! ومَن سيصهره تحت فكّيه، ويعصر أعنابه فى كؤوسه المترعة؟ لعلها كانت تنتظر الفتى النسر، أو الحصان المسحور، أو لعلها تنادى صاحب السيف الراعد الذى يبحث عن الفتاة المطرّزة التى وصفتها له العرّافة، لأنها ستكون سيدة القصر المُضاء بالأقمار الثلاثة، والمحروس بالجواد الكميت.

* * *

تستيقظ الفتاة فى هدأة الليل المُطبق، فترى صوراً تتحركُ على سطح المرآة، وتحدّق فترى المرآة تعود تدريجياً لعرض ما انطبع على وجهها.. كأنها تُقلّب صفحاتها المطوية تباعًا.

تتجمّد فى مكانها، وعيناها معلقتان على المرآة التى تتذكّر كل أولئك الذين وقفوا أمامها، وتمرّ الصور سريعةً خاطفةً.. كأنها كاميرا تعيد بشرائطها كل ما صوّرته منذ مئة عام تقريباً.

لقد رأت الفتاة كل ما يُذهل من أفعال وأحداث، خصوصًا تلك اللحظات الحميمة التى كانت تعجّ بها الغرفة بين الأب والأم أو الجدّ والجدّة، وتلك الحماقات اللذيذة التى كانت تقترفها عمّتها أو أمّها، وتلك الغرائب التى فعلتها الوجوه والأجساد التى وقفت أو مرّت أمام هذه المرآة!

ضحكت من تلك الصورة التى رأت فيها والديْها أو جدّها وجدّتها، ولم تستطع أن تستوعب ذلك الفارق الهائل بين الوَلْدَنَة والشقاوة والخفّة التى أظهرها أبوها وبين تلك المهابة التى تحيطه كالهالة الثابتة!!

وعمّتها! آه يا عمّتى النزقة، وآه يا جدّى الوَله الصبى المتخلِّع!!

... وفجأة رأت فتاةً تتعرّى ببطءٍ شديد، ويبدو أن هذه الصورة هى أول ما رأته المرآة!! وحينما دقّقت النظر فى ملامح تلك الصبية المشوقة الممتلئة، رأت أن لها ملامحها.. كأنها هى بلحمها وشحمها.

* * *

استيقظ أهل البيت على صوت ارتطام حاد، فهرعوا مسرعين مفزوعين إلى غرفة البنت، فوجدوا المرآة قد تحطّمت بفعل المزهرية التى ألقتها الفتاة عليها، فتشظّت وانهارت!

ضحك أبوها، وأسرّت أمُّها ضحكتَها، وطلبا من ابنتهما أن تعود إلى نومها.

البوابة

ثمة متسع للكلام. ولا بُدّ من رقبة الديك حتى يظل قادراً على الصياح، ولا بُدّ من سكين المتنبئ حتى يشخب دم الطير على خدّها، ليعود بكامل ألوانه المزركشة بعد أن يرقص بقشعريرته، ويلف ويدور حول نفسه ذبيحًا طازجًا معفّرًا بإكليله الأحمر المنعوف الساخن.

ولا بُدّ من تلك الهزة العميقة التى تنشر برقها المتشعّب فى الأوصال عند كل فجيعةٍ أو ذكرى، أو جَمال يبطش، أو دمعة رجراجة كاوية، عندها تحس أن أحشاءك تغوص بعيدًا، كأنك على عتبة التحوّل إلى كينونة أخرى.

ولا بُدّ من عافية الصراخ والبكاء والضحك المجلجل والشبق، والذهاب إلى آخر الموجة، أو إلى كهف الغابة المسحور.

ولا بُدّ من عَرقِ الخطيئة ونَهمِ اللذّة والشذوذ، حتى يكون للحسرة طعمها الجليل، ولا بُدّ من السجود العميق والصوم والتمسّح بأثواب النور، حتى يخفّ القلب ويجنّح مع النجمة اليتيمة الواعدة.

باختصار، لا بُدّ من كل شىء حتى نسحب أوراق الجنون من الوردة الريّانة المحتشدة بالرقّة والشهد والرهام الرقراق.

وعليه، لا بُدّ من إدراك البوابة العصماء المنتصبة، على صدئها، منذ عشرات العقود، نمر عنها كأنها قضاء فائت أو قدر ثابت، دون أن يسأل أحد عمّا خلفها، أو مَنْ أنشأها، أو معنى وجودها، وربما لم يجترئ أحدٌ على سبر غورها منذ قيامها، على اعتبار أن السؤال عن وجود جبل أو نهر أو صخرة هو ضرب من السذاجة والغباء

والجنون! لكنها ليست جبلاً أو تلاً، إنها بوابة خشبية عملاقة، تقف بين عمودين حجريين، وتحت قنطرة مقوّسة حجرية، وسط ساحة البلدة، هكذا كأنها كانت بوابة أحد البيوت أو الخانات أو المورستانات أو الجوامع، وجهها مثل قفاها؛ خشب سميك مثبّت بمسامير حديدية غليظة مدقوقة الرأس. والعجيب أنه لا ظلّ لهذه البوابة، كأنها تقف في اللامكان، أو كأن ظلاً عملاقًا شاسعًا يغطّي الساحة المظللة بكائن لم ندركه بعد. والأغرب هو أن البوابة دون أُكرة أو يد تفتحها بها دفعًا أو سحبًا، فهي، كما هو ظاهر، لوحات متّصلة ومركّبة على زوايا ناتئة ومشدودة بسيور حديدية رقيقة، خالطها الصدأ، لكنها لم تفقد حدّتها أو استواءها المالس.

وإذا كانت العواطف تُضْعِف القوة، فلا بُدّ من الحزم والتجرّد التام حتى أفكّ لغز هذه البوابة التي لا يحطّ عليها طائر، ولا يتكئ عليها واقف، حتى المطرُ الذي يصيب كل شيء لا ينزل عليها، كأنه يتحاشى السقوط فوقها. وربما لم يصدف أن اصطدم بها سائر، حتى ظلّت كما تبدو متماسكة سليمة لم يفختها حجر، ولم يخدشها أظفر أو سِنان. ومن المؤكد أنّ أحدًا لم يتبأر أو يدقّق في تلك الرسوم والأشكال والحروف المحفورة، بدقة بالغة، على صفحة القوس الحجري، ولم يفسّر أحد تلك المقرنصات البادية أعلى العمودين الحجريين المصقولين بنعومة وأناقة ودقّة تدلل على أن البوابة أقيمت في عصر باذخ متقدم، لتكون نجمة الباني الذي سيتبعها أو يدفع الناس للانطلاق منها أو نحوها، ولكن، لماذا ومتى وكيف ومن أين؟ لا أحد يدري! كما أنّ الناس تهيّبوا، على ما يبدو، من أن يوقدوا نارًا بالقرب من البوابة، ولم يجازف واحد بأن ينطح البوابة بعارضة فولاذية أو خشبية أو بحجر ضخم، وآثر الجميعُ أن يمرّ عنها أو بالقرب منها باحترامٍ وهدوء وسلام. وظلّت البوابة على هذه الحالة، حتى يوم أمس.

* * *

استيقظ الناس فلم يجدوا البوابة ولا المصطبة الحجرية التي كانت تقف عليها برسوخ! كان كل ما يظهر ترابًا مستويًا، هو امتداد الأرض التي شقّ وسطها المشاةُ

طريقهم، حتى إذا وصلوا البوابة داروا نصف دائرة ليواصلوا الطريق. أما الآن، فلا بوابة ولا أعمدة أو أقواس، ثمة فراغ كامل، يمكن معه أن يظل السائر ماشيًا دون دوران، وللتراب أن يتلبّد تحت أقدام الذارعين ذهابًا وإيابًا ذلك الطريق الجديد.

وربما كان متوقعًا أن يجترح الناسُ غير تفسير، ويهجسوا بغير فكرة تبرر اختفاء البوابة! فاختلفوا وتجادلوا وذهب كل منهم إلى سبب يراه وجيهًا أو كافيًا لأن يزيل تلك البوابة ويمحو آثارها. فمنهم مَنْ قال إن اختفاءها إنذار من السماء ليكفّ المسرفون عن الفحشاء والمنكر، ومنهم مَنْ أشار إلى إمكانية قيام القرية المعادية المجاورة بسرقتها ليلاً بخفّةٍ تستطيعها! ومنهم مَنْ أكّد أن الطبيعة قادرة على إحداث الكثير من الظواهر، وأن الإنسان لم يدركها جميعها، وبالتالى فإن اختفاء البوابة يجب أن يقودنا إلى البحث عن الظواهر الطبيعية غير المُدْرَكَة، ومنهم مَنْ همس قائلاً إن الحاكم أخذها ليجعلها بابًا لأحد قصوره الكثيرة المتخفّية فى الغابات ووراء الجبال، ومنهم مَنْ أوضح أن طيرًا هائلاً التقط البوابة بمنقاره الضخم وراح بها فى الفضاء، ومنهم مَنْ قال: لم تكن هناك بوابة أصلاً، عن ماذا تتحدثون؟!

.. وخفت صوت الناس، وانشغلوا، يومًا بعد يوم، عن ذكر البوابة، حتى لم يعد يذكرها أحد سوى الذين أطلقوا اسم «البوابة» على الطريق الذى يقطعها، دون أن يتوقف ذاكر اسمها عند أصلها أو قصة اختفائها.

ونسى الجميع البوابة وأمرها. ومرّت الشهور والأيام، وبعد عقدين أو يزيد، لاحظ أحدُ المعلمين أن تلميذًا صغيرًا يرسم بوابة على كرّاسته، وتكاد الرسمة تكون صورة فوتوغرافية عن البوابة التى اختفت.

باقة البسطار

لم يكن على موعد مع الدم والرصاص أو المقتولين القتلة! لأنه على موعدٍ دافئ وخَضِلٍ مع ضميره الوديع وقَسَمه ورسالته، فقلبُه بمساحة الدنيا التى ينبغى ألاّ تبحث عن اللون أو الختان أو اللسان.

وهو يبحث أبداً عن الأقرب حاجةً لجرعة الحياة، هكذا فعل جدّه صلاح الدين، وهو وريثه الأول.

والأبهى أن الرجل لم يفتش فى المشهد المغموس بالنجيع عن هوية الأنين، فامتدت يده إلى المبضع ليبعث الحياة ويصونها فى كل آدمىّ.

لكنه جزاء سنمّار، الذى لا يكون إلاّ من الذى أعاد إنتاج كلِّ أشكالِ القمع عبر التاريخ، وطوّرها لتحمى وَهْمَه المريض من الاندثار أمام سطوع الحقيقة.

أما الورد الجميل، فيختنق في يد البندقية لأن حاملها قد جعل البسطار مكان قلبه.

* * *

كانوا قد رصدوا تلك الدورية الراجلة، حتى تمكنوا من الانقضاض عليها، فقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا الباقين، وغنموا بنادقهم، واختفوا فى الليل.

خاف الجيران من ردة فعل الجيش الذى سيأتى ليخلع الأبواب ويقتل الشباب على غير هُدى، فأطفأوا أنوارهم، وأغلقوا شبابيكهم وأبوابهم، وتكوّروا على أنفسهم مرعوبين.

كان الطبيب عائداً من المستشفى، فأوقف سيارته أمام بيته، ورأى بأُمِّ عينه جثث الجنود النازفين، فهرع يتحسسُ الأحياء منهم، وأسرع إلى حقيبته وراح يجرى ما أمكنه

لإسعاف الأحياء منهم. وجاءت الدوريات تزعق وتولول، فحمل جنودها القتلى والجرحى، واعتقلوا الطبيب بعد أن داسوا رأسه وحطّموا وجهه، وكادوا يقتلونه، على رغم إدراكهم أنه طبيب قام بخدمة جليلة لزملائهم تفرضها عليه أخلاقه ومهنته.

بعد شهور وقفت دورية مليئة بالجنود أمام بيت الطبيب، ونزل منها جندى يحمل باقة زهور، فقرع الجرس، وبعد لحظات خرج إليه الطبيب، وسأل الجندى: ماذا تريد؟ فأجابه الجندى: أنا من الذين قمت بإسعافهم تلك الليلة، وجئت أشكرك على فعلك الإنسانى، فهل تسمح لى أن أقدم لك هذه الباقة وأشكرك.

قال له الطبيب: أنا آسف، لا أستطيع أن أتقبل ورودك، وما فعلته أنا كانت تمليه علىّ إنسانيتى.

استغرب الجندىّ، وقال للطبيب: لكننى أجيئك زائرًا شاكرًا وأنت تغلق باب دارك أمامى، وكما ترى أنا تركت سلاحى فى الدورية، فقال له الطبيب: عندما تخلع بزّتك العسكرية، وتأتى فى سيارتك الخصوصية وحيداً مُطمئنًا، سأفتح لك الباب.

وأغلق الطبيبُ الباب، فألقى الجندىُّ باقةَ الورد تحت بسطاره، وقفز إلى الدورية التى راحت ترعد وتولول وتطير.

ابتسامة المُلصق

لعل نبيّ الجُبّ المحسود قد تناسخ وجهًا صبوحًا وأحلامًا وسنابل وعروشًا، وظلّ النبي الوسيم على جوّانيّته الملائكية البعيدة عن الطين والعطش وكيد السكاكين. لقد أعطى عمره غير منقوصٍ حليبًا كاملاً حلواً للبلدة والثوابت وسراج الشهداء الساطع، حتى شخب شريانه بفعل قذيفة عمياء، فتناثر لحمه على الجدران بقعًا تشعّ بشموسٍ تدور مع الحروف حول الأناشيد والضفائر الصغيرة والصباح المجيد.

* * *

يعتبر توفيق أبو شرار النموذج الأكثر كمالاً وجمالاً للشاب الخلوق النقيّ المناضل دون ادّعاء. وأبو شرار لم يكن يتقن إلاّ أن يبتسم أو يعمل دون كلام. أما اليوم، فقد مرّ على استشهاده خمس سنوات، بعد أن قصفت طائرةٌ سيارتَه وهو عائد إلى بيته! وإثر استشهاده الصاعق، قام شباب التنظيم وطبعوا مُلصقًا يُعلن نَعيه، ويبشّر بأنه راح إلى الرفيق الأعلى مع الصدِّيقين والأنبياء.

والواضح أن الملصق الخاص بتوفيق أبو شرار، المفرود على الحيطان والبوابات، والمُعلّق على الأعمدة والجدران ولوحات الإعلانات، ما زال يحتفظ بألوانه، وبصفاء صورة الشهيد فيه! بل إن الأطفال السائرين في الشوارع أو المُمسكين بأيدي آبائهم قد لاحظوا أن الصورة تبتسم لهم! فظنّ الآباء أن أبناءهم يتوهّمون!

وتكرر الأمر، فما إنْ يمشي ولدٌ أو صبيٌّ وينظُر عَرضًا، وتلتقي عيناه بعيني الشهيد، حتى يبتسم له الشهيد كأنّه يردُّ التحية، ولكن ليس بأحسن منها لأن البادئ أكرم!

راح الناس يمعنون النظر فى ملصق أبو شرار، ويطيلون التحديق فيه، فتتعلق نظراتهم طويلاً على صفحته المشرقة، ولا يدرون كم مكثوا ناظرين، ثم يثوبون إلى حالهم، ولم يلحظوا تلك الابتسامة التى يتحدّث عنها الصغار.

أما الأولاد والفتيان، فتراهم فى شوارع بلدتنا دائمى الابتسام والانشراح، إنهم يبادلون الرجل الشهيد ابتسامته!

وحتى هذه اللحظة، لم نستطع، نحن الكبار، أن نردّ عليه كما ينبغى!

أولاد اللّكع

عندما يحرقون الشوك، يذهب الزهرُ فى اللهيب.

* * *

اللّكع الجاسوس الحقير، الذى هرب فى الشّهر الأول من تلك الانتفاضة، لم يتجرّأ على الانتحار لينهى مأساة أبنائه الذين تركوا مدارسهم لابتعاد أترابهم عنهم، والنظر إليهم بشُبهةٍ ودونيّة، حتى المدرسون كانوا أكثر فظاظة معهم لإثبات وطنيتهم! وصاحب الدكان كان يتردد قبل أن يبيعهم ما يطلبون، وكانوا كالمصابين بالجذام، يتحاشاهم الناس ويحتقرونهم، وكل ذلك لأنهم أبناء العميل!

هرب العميل خوفًا من أن يُلقىَ الشبانُ القبضَ عليه، ويتمَّ التحقيق معه والقصاص منه، هرب وترك أُسرته تنتفض رعبًا وهلعًا وخوفًا وجوعًا.

فى الليل تكون البلدة غارقة فى عتمتها الثقيلة وسكونها العميق الرهيب، ولا يقطع صمتها إلاّ صوت دوريات الجنود ورصاصهم المتقطّع المفزوع.

والشبان يذرعون البلدة فى الليل حتى تكون تحت إمرتهم وسيطرتهم، يكتبون على الحيطان ما يشاؤون من شعارات وتعليمات، ويطهّرونها من العملاء الذين يأخذونهم من أحضان أزواجهم أنصاف ميّتين.

واللّكع الذى يُعتبر الجاسوس الأكثر خطورة فى البلدة ترك زوجه وابنتيه وابنه، وهرب! وكان متوقّعًا ألاّ يتعرض لهذه العائلة أحد من الشبان، على اعتبار أن كلَّ شاةٍ معلّقةٌ من عرقوبها، وعلى أساس:

«ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى». ثم إن عائلته لا ذنب لها سوى أن القدر جعل ربَّ هذه الأسرة منبوذاً خائناً، وها هى تُضرَسُ بفعلِ حُصْرِمه المِمض الخانق.

* * *

... وجاء ملثَّمون لعلهم قفزوا من فوق سور دار اللّكع، وطرقوا الباب الداخلى، ودخلوا بأقنعتهم السوداء شاهرين مسدّساتهم، فتجمّد الدم فى أبدان أهل الدار، وأمروا البنتين أن تخرجا معهم للتحقيق معهما! فخرجت البنتان وهما تنتفضان، وغابوا جميعًا فى العتمة!

* * *

لا يستطيع كائنٌ مَنْ كان أن يتدخل أو يسأل أو يرحم هاتين الصبيّتين حتى لا تلحقه الشبهة القاتلة، غير أن شباناً ملثمين آخرين حضروا بعد تلك الحادثة بثلاث ليالٍ ومعهم الصبيّتان كأنهما جثتان هامدتان، وطلبوا من أُمّ البنتين ألاّ تسمح لأىٍّ أحدٍ ملثّمٍ أو غير ملثّم أن يأخذهما أو يتدخل فى شؤونهما، وأوضحوا للأم أن الملثمين الذين خطفوا البنتين هم عملاء خونة، جعلوا أنفسهم ملثمين ليغتصبوهما.

* * *

وقبل أن يقفز الملثّمون الوطنيون من فوق سور البيت، قالوا للأم:

إن العملاء الذين اختطفوا ابنتيكِ كانوا يعملون فى خليةٍ واحدةٍ مع زوجك اللّكع، وهو الذى نظّمهم!

نصوص إيلياء
٢٠٠٩

في المدينة جَمال سماوى يرحب بكم، فادخلوها.. شهداء!

* * *

لدىّ عدة أسماء، لكنَّ الأخير هو المُظلم منها.

* * *

لِتَنْقُش المدينةُ على أبوابها حكمةَ الفَرس؛ مِن الدم يأتى دمٌ جديد.

* * *

العَالَم هو نفسه فى كل مكان، إلاّ هنا، إلاّ هنا..

* * *

لقد كذبوا على أرواحهم، وأنكروا مصيرهم الطبيعى، وجاؤوا للانتقام من الضحية.

* * *

ضعفك يا أبى هو الذى قاد المدينةَ إلى الموت.

* * *

قالوا: الآن، يمكنكَ النزول، فقد تهرّأت الراية، وبهتت الألوان..

أقول: الآن، يمكنك الصعود، فإن السارية بلا علَم!

* * *

رأيتهُ بأمّ عينى، لقد أمْسكَ بذيلِ العاصفة، ودفعها حتى احتشدت فى الزجاجة..
إنها تبرق فى يده!

* * *

عندما أَمُرُّ من جانبها، أغلق عينىّ.. إنه حُلم سيئ.

* * *

السورُ عباءةٌ شقراء، تلفّ المدينةَ بحزام عفّتها، وتفضى إلى بكارتها المتجددة.

* * *

طفل الصنوبر الذى خاض كحلَ الماء.. انهرقَ على حجارة السوق، وتبعثرت غرّته المخفوقة.

* * *

المرأةُ التى وضعت جنينَها الذى مات.. ونزفت، ورأى جنودُ الحاجز عورتَها وصراخَها الوحشىَّ..

هى نفسُ المرأة، التى كسرت شاشةَ التلفاز، عندما رأت أحدهم يُعانق الضابطَ، الذى حَدَّقَ بين فخذيها..

وتلمَّظ!

* * *

سلامٌ على مَنْ مسَّتْ أرواحَنا بقناديلها وزفّاتها وأقواسها الباذخة بالدوالى والأغنيات.

* * *

الأشباح لا تبكى!

وحدنا مَنْ يملك الدموع..

* * *

منديل أمّى قبل عامورة ومسّادا.. بآلاف السنين!

* * *

يعود الجنودُ من الحرب، وكثيرٌ من الفولاذ فى وجوههم.

* * *

لم يعقد هذا الرجل البسيط هدنةً مع الذين طردوا جاره، ولم يرَ فى الشارع الثانى ما يدعو إلى الطمأنينة، لهذا دقَّ الفولاذ فى صدور أولاده، وعلّم أحفاده الفرق بين النعاس والحديد، وراح يردّد على مسامعهم الأغانى القديمة..

* * *

سأرفعُ إيلياء زهرةً زجاجية، إلى أن تُطاول النجومَ، التى تراقب الأرضَ المُدمّاة والمُنْتَهكة.. والحالمة، وإلى أن تصبح المدينةُ شمعتى البابلية البيضاء.. التى سأُفكّر بها كل يومٍ، وإلى الأبد.

ولهَم أن يواصلوا التِّيه، مرةً أُخرى، فى صحراء مُطْفَأةٍ عجوز..

ويأكلوا عُشبةَ الليمبوس السامّة، ليتخلّصوا من الصور التى تتراءى لهم فى الكوابيس، وكانوا فيها يذبحون الحَمام، دونما سبب، ويهرسون النرجس والفرفحينة والخبيزة ببساطيرهم، وهم يطاردون الطائرَ والظبى والحطّاب، ويفتحون صدرَ النجمة، ليلتهموا قلبها المفعم بالحب والحياة، لتجدّد أمّهُم الساحرةُ شبابَها البشعَ الغائر..

ولن يكونوا مثل ملكة تدمر، التى أكلت العُشبةَ، قبل أن تصل روما، لكى لا يراها أهلُ المدينة مقيّدةً ذليلة..

لقد ماتت زنوبيا من أجل كرامتها، ويموتون مثل الضباع السائبة والنسيان..

أو كما قضى القيصرُ مذبوحًا على الدرج.

عندها، سيرى الرعاةُ نجمةَ الميلاد من جديد، ويلد السلامُ فى الحقول..

* * *

.. وأخيراً وجدوا عصا الراعى التى كانت مثقوبة ومجوّفة كأنبوب مستقيم، وكلّما هبّت الريح، صارت نايًا يجرحُ الشريان.

* * *

الشيخُ الذى حمل المدينةَ، لم ينتبه أنها سقطت عن ظهره، لكنه ظلّ ممسكًا بالحِبال.

* * *

ولم تسقط الإضمامة من يد بائع النعناع.. رغم الرصاصات العشرين.

* * *

العَلَمُ الصغيرُ الذى رسمه الفتى على عارضة عَرَبته الخشبية كان كافيًا لأنْ ينوس كالذّبالة، وينطفئ بدمه العارم.

* * *

معتقداتهم العمياء تمنعنى من الدخول إلى معابدهم السوداء.

* * *

.. وأطفأ سيجارته فى البرعم الصغير، وطقّ الغشاءُ واللحمُ والزغبُ.. ولم تعترف!

لقد افترعها الجمرُ، وخسروا كل شىء.

* * *

الجرّة التى عثروا عليها فى كهف الحوش.. كان فمها مغلقًا بقماشة الطين، وحينما فضّوها سال البرق على المصطبة.

كانونُ الجَمْر والدلّةُ وبساط الصوف والمنقل والركوة ووجوه العائلة المرصوفة، لكنّ الرعد لم يظهر فى الصورة، ولم نسمع الريح، ولم يأخذنا الفَوحَان.

* * *

وقالوا: مَنْ يُنْكِرْ ذَنْبَهُ، يُنْكِرْ أَلَمَ الآخرين.

* * *

وما فتئ يردّد تلك النبوءات؛ أن اليبوسى كان مع سيدنا إدريس- عليه السلام- فى مصر، ومعه اكتشف الحروف، ونشر التوحيد، وعرف بما سيقع للمدينة. كان مسجده الأول فى القدس، أما مسجده الثانى الذى ورثه أحفاده، فهو فى منطقة بشارو فى البرّ الغربى عند منابع النهر، وهناك أقام محبّوه نصّا بصرياً تخليداً لإيمانه وعبادته لله الواحد الوحيد.

وأن من أحفاده مَنْ كان يراقص الريح والوعول، وهو الذى أرهص للباليه والهيب هوب والجاز والسلسا والتانغو والفالس، وكذلك للواحدة والنص والشمالية والطيارة.. والسيّارة والدّحيّة والسّحجة والثلاث والطعجة والبدّاويّة.. ولكل الدبكات ولغات الجسد، ليكتمل الرعد!

وقال: إن المدينة ستُهدم وتُبنى ثلاثين مرّة، وإن أقواماً بعيدين سيبنون مدائن تشبه إيلياء كأنها هى هى، ولها اسمها وسورها وأسواقها وحاراتها ومعابدها. وإن ملكة الماء ستدفن أساورها تحت حجر غشيم فى أُسّ السور. وإن الماسة الكبيرة سيلقونها ملفوفة بخيوط النمل فى المرآة.

وبعد ثلاثة وثلاثين قرناً ستمتلئ البئر الكبيرة بالجثث وستبقى على حالها، كأنها ذبائح الساعة، إلى يوم الساعة. وإن المعبد الكبير سيتهاوى، ويخرقون البرتقالة بقفاف النار والكحل المُبيد.

وقال: ستكون إيلياء عروساً يوم البعث ويوم النصر، وأرضاً للمحشر والمنشر، وسيأتيها المجاور ويتلو كتاب ابن حَجَر وابن هشام والبخارى والمدائح التى تترى لسيدنا النبى ولها ولمحررها الجسور.

ثم ستعلو جدران الفرقة وأقفاص الحجارة والقصبات الخائفة، وسيمنعون الملح عن الجرح، وترتفع المقصلة كل عشرين إلى أن تتبدّل الشواهد، وينسى الطالعون

وجهها، وقبل المذبحة الكبيرة ستحزّ الشفرةُ قطنَ الشال الملوّن، وستنتشر عدوى اللحاق بالضباع، وسيعجن الناس العسل مع القفير، ثم تقع صاعقة العنّاب، حتى يمخر الحصان إلى رقبته فى الزبدة المخثرة. ثم تبدأ مركبة الصباح لتمحو بصمة النار عن الأسوار، ويسارعون فى بناء المحراب مرّة أخرى، بعد أن يحفروا أربعين وأربعين، ويتدفق العابدون حتى لا يجد النائم مكانًا لغفوته إلاّ على بعد خمسين فرسخًا أو يزيد.

ويقول: إن حريق مدينة المسرح الحجرى سيشوى زهرَ النوافذ فى المدينة، ويلفحها بالرعب والهروب. سيجلو الثالثُ جدرانَها بالحنّاء، ويكون توطئة للروح حتى يُعيد الأمر الأول مرةً أُخرى.

وإن كلّ من يعبث بالمدينة سيكون عبرةً قبل البرزخ وعند البعث، فالعبوا بعيداً عنها وعن أيتامها وضحاياها لتتمّ لكم المغفرة. فالمدينة شجرة وأيقونة وآيةٌ لا تؤوّل إلاّ بالمحبة والعدل والحق.

ويقول: احذروا البنايةَ الشاهقة التى لا ظلّ لها، والصابونةَ التى لا تُرغى على فروة الغزال، والجُملةَ التى تساوى بين الصياد والطريدة، وتمنح سارقَ الذّرى هواءَ السلام والرسوخ.

والويلُ لَمَنْ شهدوا الصلّبَ ولم يصرخوا، بل تمتّعوا بسرد الحكاية، وانصرفوا.. فسينصرفون إلى جحيم الدنيا قبل الجحيم الأخير.

ويقول: احفظوا غرفةَ القمر ومهدَ الغيمة التى هبطت وانسربت فى وسائد البيوت والحاملات، لكى لا ينزو الوحش على الزرافة. ولا تشربوا الماء المالح لأن دم القراصنة يسير فى البحار. وعندما يبلغ العبدُ المرتدّ بيتَ الرخام سترتفع المدينة فوق الهاوية ويبدأ التعب والرحيل، وستكون بكامل غربتها فى أعراس الموت الموصولة، وستنمو بقع البشاعة ويغزو الرملُ رئةَ الحوارى، حتى ينفجر البركان الصاخب، ويلد مَنْ تصرخ أُمُّه من آلام المخاض، وتتجندل الطيور المعدنية ونافثات الفناء واليباب، عندها سيعود الموتى إلى قبورهم، وينتظرون المشهد الرهيب.

ويقول: سيختلفون على صواع الذهب، ويعود النهر المختفى يضفضف بأسماكه الناعمة فى الطرقات، وتعود اللغة والكرنفالات والإماء ورمّانة الأندلس الحاذقة، إلى أن تشيع الفتنة وتجفّ البحيرة.

عندها لن يبقى للمدينة غير معنى واحد يظهر فى بابها الرحيم، وسيمشى المُصلّون تحت الصنوبر والنارنج، ويشهدون زواج البنفسج والنور.

وقال: احذروا مَنْ لم يرَ الدم فى يد القاتل الذى يصافحه!

* * *

أقسموا! لقد رأوه تمامًا؛ بثوبه الكتّان السكرىّ، وشَعْره المدرّج السابل العسلى الكثيف، ولحيته الزعفرانية الخفيفة الناعمة، وعينيه وطوله ويديه المباركتين.. لقد رأوه يمشى ثانيةً، من أوّل طريق الآلام إلى الجُلجُلة، دون تاجٍ أو شوكٍ أو صليب.. ولكنه يمشى المسافة كل ليلة.. وهالته تدلّ عليه.

* * *

لا تزال فتحةُ الليل قادرة على إشاعة الفضّةِ فى العظام، والذَهب فى الشفاه.

* * *

عندما خرج ملكى صادق لاستقبال سيدنا إبراهيم عليه السلام، كان أمَرَ أهلَ القصر بأن يعدّوا الوليمةَ للضيف..

قالت امرأة الملك: لقد سقط نجمٌ أبيض فى صحن العجين وذاب فى ماء الطحين.

* * *

البحرُ البعيد لم يعد مأنوسًا بقناديل اللهاث والعرق، والموج القريب رخو وبعيد.

* * *

البوابةُ التى شهدت زفّةَ الحصان، نزلتْ حجارتُها عَنْ كتف الزمان، وتركت القَوْسَ على حاله، مُدَثَّرًا بلهفة المُلصقات.

* * *

للجحيم بوابات كثيرة، وأخطرها بوابة الهيكل الجديد.

* * *

عندما يزول الألم يتحوّل إلى حكمة، لكننا بلغنا الحكمةَ فى ذروة الألم.

* * *

القمر هدية لذوى القلوب المتباعدة، ينظرون إليه من مناطقهم المتفرقة، فى لحظة واحدة فيكونون معًا. لهذا، رفعت السماءُ المدينةَ، وطبعت صورتها على القمر، حتى تجتمع حولها القلوب.

* * *

كل ما يمكن أن يتمّ فعله.. سيكون، ولو بعد حين؛ لهذا نَصْرُنا فى يدنا.

* * *

يسأل جيرانه إن كانوا يسمعون ذلك الإيقاع الرتيب الذى يصل إليه من قاع بيته لكن أحداً من جيرانه المتديّنين فى البلدة القديمة لم يشفِ قلبَه بالقول: نعم، ثمة دبيب بعيد يأتى كأنه صدى الصدى!

راح يحفر بصمت وهدوء، تحت أرض غرفة نومه الصغيرة، فيحمل مقدار قفّة من التراب، يحملها فى كيس بلاستيكى، ويسير بها خارج الأسوار، ويلقيها هنا أو هناك.

بعد أسابيع، اصطدم بأرضيّة مرصوفة بإحكام، كأنها مصطبة من حجارة، تبليطها لتكون قعدة مالسة لمجلس الساكنين.

تجرّأ ورفع بضعة منها، فكان ترابًا مُلبّداً، فذهب يحفر ويحفر حتى فتح الأرضية، وظهر تحتها غرفة واسعة، تحتل مساحة البيت الذى يقطنه تقريبًا، فهبط

سلّم خشبى، فرأى العجب العجاب؛ أكثر من عشرة تماثيل لموسيقيين يحملون آلات عزف، يقفون استعداداً لتأدية وَصْلة من النغم المُتّسق الرقراق.

* * *

.. ولـمَّا رآها ابنُ الملك، وكان متنكّراً بثياب العامة، فى السوق، وهى تحمل على رأسها طبق الفاكهة، ويهتف صدرها بوروده المطرّزة..

تبعها حتى عرف أهلها.

فى اليوم الثانى كان الملك وحاشيته يطرقون باب البيت، وبعد أسابيع قليلة، كانت المعازف والطرقات تشهد زفاف الأمير على الصبيّة القمحيّة، التى ولدت له ذلك الفتى الأصهب، الذى صار ملك المدائن، من الرمل إلى الثلج، ومن المعدن الرائق، إلى ثوب الموج والبرتقال.

* * *

يا رجالَ المدينة! يا قامات الشجر النعناع وبلّوط الوديان! ويا طلّة العيد والأنفاس الدافئة! يا كفَّ العشق الموقظة حليبَ العذارى وزبيب الشغف! يا حلم النساء المتأوّهات المتكتّمات، وأنتم تبرقون فى الطرقات وتحت ظلال القرنفل وعرائش الماس! يا مَنْ تأخذوننا تحت لفحات الصخر الناعم، فيفيض الماء على الماء! يا اختناق اللوزة فى قشرتها الحرير! ويا يقظة الموت الرائعة، ونوْمة الهلع الأخّاذ النافذ! يا فتيانَ التوتِ الناضج على الشفاه، التينِ السائح على زغب الربيع! يا أمانينا التى ننجلى لقدومها، فنصعد إلى غلالات السحر واللحظة الفارقة! يا كلَّ هؤلاء الذين يجمعوننا كحفنة الذهب السائل على الوسائد، قولوا له إننى عطشى حتى الذبول، وإننى أنتظر حبيبى اليبوسىّ، برائحة التفاح فى فمه، والبخور فى سواحله، واللذعة حيث الثلج والنار!

يا كلَّ أولئك! نادوا بالصوت واليد والعين وبكل الأشياء، حتى يدفئنى ويمزّق مواسمى الفارعة، لينبت الحنّاءُ من الرضاب الذى يقضم الفراغ! قولوا له يا كل رجالى، إنه رَجُلى الذى سيكون ولدى وأبى وعمّى وخالى وأخى وحبيبى..

قولوا له إننى أحبّه، حتى لم يعد لدى غير أنى أحبّه.. وأكاد أن أكرهه حتى يجىء..

* * *

جلبوه من السجن، كان شَعره أشعث طويلاً، ولحيته مفرودة تغطّى وجهه وصدره وثيابه البالية المتّسخة، عيناه حمراوان وجُرْمه ينتفض واقفًا كأنه تمثال ممسوس، يهتزّ أمام السيف والنطع.

أحكموا القيد على يديه خلف ظهره، وخلعوا عنه قميصه تمزيقًا، ففاض عرقه دمًا.. ونزّ حتى غطّى بنطاله الفضفاض.

حاولوا أن يثنوه ليركع ويضع رأسه على الجذع الخشبى الموضوع، لكنه رفض!

كان طويلاً طويلاً.. ولن يجدوا أحدًا يجزّ رأسه واقفًا.. فراحوا ينغزون خواصره بمقدمة السيف، لكنه ظلّ واقفًا.. وازداد الدم تدفّقًا!

حاولوا معه مرّة واثنتين وخمسين ومئة.. والدم ينزف من نصفه الأعلى.. حتى خرّ دائخًا زائغًا..

ولما حملوه، كان الجلّنار يفيض حيث يسيرون به، حتى غطّى الطرقات.. وتعالى حتى غطّى الشوارع.. وارتفع حتى غطّى البيوت، وتسامق حتى فاض عن الأسوار.. وما زال يتصاعد كالنبع الهائل فى الأنحاء.

* * *

اصرخوا إذا شهدتم قتل النبىّ الشاب، وإلاّ ستصرخون ألمًا من فضول ما سترونه من مُتعة العذاب.

واصرخوا إذا مرّوا ببساطيرهم الثقيلة فى الطرقات، فكل شبر صلّى عليه نبىّ أو سجد فوقه ملك مُقرّب.

واصرخوا إذا منعت الجدرانُ الشمسَ من الدخول، فالمدينة أمها التى أرضعتها فضّة الحياة.

واصرخوا فى وجه سيّدها، الذى يدّعى أنه سيّدها، فقد رآه الليلُ ينسلّ من بيت القاتل متأبطًا ذراعه الباطشة.

واصرخوا فى وجه كل خطيب يرطن بالسلام، فثمة مذبحة بعد الكلمات.

* * *

صبّ عصير الرمّان عند ملتقى الشارعين، ودلح العسل بطيئًا بين القبّتين، ورشّ السُّكّر الناعم فى زوايا الدروب، والزبيبَ فى المنحنيات الذاهبة إلى الأزقة والبيوت.. كانت المدينة مستسلمة، فقد خلعت كل أشجارها وظلالها، وتمددت أمامه شمعة كونية تسيل نوراً وردياً مُشرّباً بلبن الغروب..

هيّأت روحها لغطاء السخونة، ليحفّ الدنيا بالاحتكاك العذب الجامع الصاخب الوفير.. لكنّ أحداً لم يكن هناك، كانت وحدها تحلم بالصوت، لكن الرجل غاب أو تلاشى، أو لم يكن أصلاً فى المدينة!

* * *

لم يحلموا بالزنابق البيضاء! كانت أياديهم تشرّ بدم الملاجئ والصغار، وببقايا لعبة احترقت، فَوصَلَ قطرانها إلى ثيابهم الداكنة.. إنهم يشربون دمًا ويأكلون دمًا ويُخْرِجون دمًا، ويحلمون بالدم والكوابيس، ويؤوّلونها بالدم والحروب، ويرسمونْ غدهم بدم الطيور والرُّضّع، ويبنون بيوتهم بعظام الموتي والشجر المخلوع، وعندما يحتفلون؛ يمتلئ الخوان بعبوّات الدم، وصحون العيون الصغيرة المُطفأة، والشفاه الطفلة المقصوصة، والأصابع الناعمة المقطّعة، ويقهقهون فتتبقّع أفواههم بفقاعات الدم المتناثر، وتبدو أنيابهم كقرون الفلفل الصيفى الحريف، تقطر سائلاً له شَوْخة أنفاس الموتى، وزنخ الجثث التى أكلوا أكتافها وظهورها.. إنهم يحلمون بدم جديد يعبّئونه فى زجاجات، يرصفونها على الرفوف، ليشربها أبناؤهم قبل أن يركبوا الحافلات إلى المدرسة.

* * *

لعينيكِ أُقشّر تفاحةَ الكلام حمراء كدم الشهداء طازجًا نقيًا كقلبك النبىّ.

* * *

لم يرَ أباه إلاّ عائدًا من معركة، أو ذاهبًا إلى معركة! أيامًا، يبدّل فيها ثيابه العسكرية، ويداعبه ويذهب معه إلى السوق البلّورى، ويأخذه بسيارته الصغيرة.. ثم يروح بلباسه العسكرى وبندقيته وأشيائه الثقيلة من حيث أتى... وأخيرًا أخبروا الصغير بأن أباه مات فى المعركة الضارية الأخيرة، فذهب مع أمّه إلى المقبرة، وتابع طقوس دفن الجندى «الشجاع»!

بعد أيامٍ رأى فى التلفاز طفلة فلسطينية تصرخ وتولول، حول أبيها الممدّد المقتول! فسأل أمّه: كيف مات ذاك الرجل ولم يكن يلبس بزّة عسكرية؟

ثم إنه كان مع ابنته، ولم يكن فى المعركة؟

كما أنه لا يحمل سلاحًا؟ ولم يكن فى المشهد ما يدلل على أنه كان يحارب أو يُقاتل؟

وهناك بيت مهدوم، يبدو أنه بيت ذلك الرجل المقتول؟ إذًا، كيف تقولين إن أبى مات فى معركة وكان هناك جنود يحاربونه بالأسلحة والرشّاشات والموت؟ أطفات أمّه التلفاز، وراحت تشرح له الأمر، لكن الصغير، لم يسمع ما كانت تقوله أُمّه، وقبل أن تنهى كلامها سألها: لماذا ذهب أبى إلى هناك، ما شأنه بهم؟

بعد عشر سنين وأكثر أخذوه إلى الجنديّة، ليخدم فى الجيش ويتدرّب على السلاح، ليحمى «الدولة».. لكنه مات، وأفاد طبيب الوحدة العسكرية أنه انتحر! هذا ما قالته أُمّه للصحافة بعد دفنه!

وهذه ترجمة، بتصرّف قليل!

* * *

لم يعهد المصلّون ذلكَ الرجل يشاركهم صلاة الفجر، قبل هذا اليوم!

لكنه كان يبادر المسجد قبلهم، ويطيل الركوع والسجود قبل إقامة صلاة الصُّبح،

ثم يطيل الدعاء والرجاء!

يبدو خابتًا متوسّلاً لربّه، مؤمنًا مخلصًا له العبادة، كأنه أحد أولياء الله الصالحين، الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يقدّ الليل قيامًا وتهجُّدًا حتى هزيعه الأخير.

توجّه إليه الإمام، وربت على كتفه ليؤنسه ويشجعه على مواصلة الحضور، وسأله عن اسمه، لأنه من السُّنّة أن يتعارف المؤمنون!

فوجئ الإمامُ أن الرجل لم يذكر اسمه، بل راح يحدّثه عن الرؤيا التى تقضّ مضجعه، كلّما غَفَت عيناه! خاف إمامُ الجامع من رؤيا الرجل، فثمة غير تفسيرٍ لها، لكن كل التفاسير لا تحمد عقباها!

لاحظ الرجلُ ملامحَ الاضطراب والانقباض على وجه الإمام، وسأله عن معنى ما يرى فى المنام!

سكت الإمامُ، وقام متباطئًا، وتمتم قائلاً: لكنك فى القدس يا ولدى، ولست فى بغداد!!

* * *

أيتها الحسناء! عندما يذكرونك.. أبتسم..

* * *

رغم بُعْدها، تشعر أنها لَك! وهذا أروع ما فى المدينة..

* * *

بالفعل؛ وُلد والشيطان فى داخله..

* * *

يا إلهة الحبّ الكونية، يا ربَّة المدائن البيضاء، يا قدسُ، يا بريئة!

إن براءتك قوّة، وإن القوّة التى تكمن فى البراءة تنطلق، الآن، كالعاصفة، لتبدّد الوحش الذى طرأ عليك، وسكن أحشاءك، بعد أن شقّ بطنك بالبلطة الوثنية.. وبالبراءة سيُلاقى «العزازيل»، ويتقلّب هناك فى الهلاك الأبدى!

* * *

ما الذى بقى فيهم ليحبّوا السلام؟

* * *

سنشيد التماثيل على شرف الشهداء، وستبقى القدس! ولكن بوجوه الخالدين.

* * *

أنوثة الأزهار على الشُرفات، تجعلها حمراء، خجلاً من ذكورة البلابل.

* * *

ربما تكون القدس بلاد مَنْ يسكنها، لكنها مدينتى.

* * *

لم يكن أى ثلم فى النّصل، وكان لحم المدينة طريًا كالزبدةِ، لكن قلبَها صخرةٌ مقبّبة بالذهب.

* * *

الذكرى كالسكين.. تذبح!

ولنا ألف ذكرى كل يوم:

الاحتلال، الحريق، المجزرة، الجدار، الاعتقال، القصف، الاستيطان، المصادرة، الحفر، الهدم، القلع، الحصار، الحواجز، الطرد، الذبح، إل.. إل.. إل... إلخ.. إلخ.

* * *

أراهم فى أحلامى.. لا أعرفهم..

أرى وجوههم التى تحاول أن تقول..

أفواههم المُدمّاة تمنعهم من التفوّه بأسمائهم...

يغرغرون.. ويتوارون..

غامضون.. واضحون..

يظهرون.. ويختفون..

ويطلعون فى الحُلم.. يصرخون

أو كأنهم يصرخون..

* * *

وتعود الأغنية:

كل صلواتى تبدأ باسمك، وتنتهى به..

* * *

ذلك الفتى اليبوسىّ الذى فكَّ ضفائرَه تحت لحم الشمس، ونشرها بين أظلاف الرّعد.. كان مبلّلاً بالأرجوان الساخن، فرقصت النساءُ حوله بمناديل الفضّة.. وغابت السلوى، فثمة فتًى آخر يفكّ جدائله المائية فى محراب النار.

* * *

هنا اللُّجةُ! فلترفعُ المَلكةُ الثوبَ المُرتبكَ عن الضوئين، وليَقُل العاشقُ أناشيده فى المرمر، وليُنادى على بنات إيلياء، وليفضحُه القلب.. عندما باغتوه، وجدوه يحمل علبة الدّهان والفرشاة، وكان قد كتب على الحائط بخط كبير: فلسطين عربية!

فاعتقلوه..

ومع نهاية التحقيق معه، طلب منه الضابط أن يوقّع على إفادته، لكن الفتى قال: أنا أُمّىّ لا أعرف القراءة والكتابة!

ضحك الضابط وقال له: لكنّا ضبطناك وأنت تكتب!

ردّ الفتى: أنا لا أعرف أن أقرأ أو أكتب إلاّ جملة واحدة، هي:

فلسطين عربية..

* * *

كانت كفّه المبتورة تذكّره بتلك القنبلة التى انفجرت بين يديه وهو يعدّها..

وكان كلّما مرّ بالحاجز، وجّه إليه الجنود الإهانات، إمعانًا فى قهره وإذلاله على نيّته زرع قنبلة بينهم..

وقبل أيام، أوقفه الجندى المناوب، وراح يشتمه ويصفعه ويقذع ويسبّ ويبصق على وجهه، فما كان من الرجل إلاّ أن رفع ذراعه.. وصفع الجندى بكفّ يده التى أحسّ أنها بزغت من جديد.

* * *

الغنيمة للمنتصر، والضحايا أحمال المهزوم الثقيلة.

القلب المقهور.. يتحدث بقسوة.

* * *

سأكتب لكِ الليلة، وفى كل ليلة.. ما دُمتِ هنا..

* * *

المدينةُ التى ركبت السُّفنَ، ومخَرت عباب الحوض الكبير، نقلت إلى إنسان المغارة الشّره البدائى ما جعله أنيقًا يركب القمر! لكن، وبعد أن قضى على الهندىّ الأحمر، وأقام محاكم التفتيش، وألقى بالقنبلة على هوروشيما، واحتضن النازى والفاشى، وأمضى عُمره فى معارك مئات الأعوام والحملات المحمومة والمجازر المهووسة بالرّهبان، الذين يبيعون الجنّة للبؤساء وذوى الحدبات والفقراء..

هذه المدينة التى حصدتها سواطيرُ أولئك الأنيقين الوثنيين، ما زالت طريدة مُغرية لهم ولسلالات أفاعيهم.. بعد أن قتلوها أبًا وأُمًّا، وأشاعوا أنهم هم الذين اجترحوا معجزة الحضارة ومركبات التقدّم والأناقة الفارهة!

لقد قتلوا الأب والأم والابن.. وما زالوا يبحثون عن الأجنّة فى الأرحام.

* * *

يا عشتار التى صارت بلاكا السوداء، أو أثينا الحكمة! يا أهل النور الذين فردوا عباءاتهم للقبائل آكلة لحوم البشر، من قدموس إلى قرطاج وإلى أميرة صور التى خطفها الثور!

يا بابل التى صوّحت المقتول بخمرة النصر، وكانت آيةً تسبق الزمان!

إنهم يردمون الأندلس، ويقيمون مكانها قبرًا مُنْكَرًا للبدوى الذى علّمهم الحياة!

* * *

كان يصعد على السُّلم الحجرى الضيق، يحمل صحن الكرسنّة للحمام الصغير فى البرج، ويجعل كفه معينًا تحمل الماء لمناقير الهديل على السطوح المقببة!

مَنْ يطعم الحَمام بعد موتك الصغير بثلاث عشرة رصاصة دوّت أمام المدرسة؟ مَنْ يطعم الحَمام؟ مَنْ يُطعم الحَمامَ؟

* * *

بعد أن كَمن لهم، وأفرغ الباغةَ فى صدورهم، لحق به ما تبقّى من جنود، ولم يجد سوى الفُرن ليختبئ به، لكنهم تابعوه، فلم يجد بُدّاً من الولوج إلى بيت النار، حيث المصطبة الملتهبة التى تجعل العجين أرغفةً ناضجة مرصّعة بدوائرها البنيّة المنتفخة سخونة ونُضْجًا..

اعتقد الجنود أن جسده سيذوب في النار، وسيسيل لحمه ليزداد الجمر توهّجًا بزيت أعضائه.. وخرجوا! بعد قليل، خرج من بوابة النار الصغيرة، ونفض الرمادَ عن ثيابه.. ومضى.

* * *

طرقوا بابه في الليل، كانوا ملثّمين، يخبئون بنادقهم تحت ثيابهم الشتوية.

فتح الباب ودعاهم للدخول، بعد أن اطمأنّ على أن أحدًا لا يتبعهم في ذلك الصمت الثقيل!

كانوا جائعين مُتعبين، وكان فقيرًا لا يملك ما يكفي من الطعام والفِراش..

لكنه بَسْمل، وذكر الله.. وراح يمرّر يده على صينية الطعام المتواضعة، ووضعها أمامهم حتى شبعوا، وبقيت تفيض بما فيها من طعام.

ثم مدّ يديه إلى حامل الفِراش، وأخرج فَرْشة ولحافًا، وكان يتمتم، ثم فَرشةً ولحافًا.. إلى أن وفّر لكل منهم ما يكفي لنومه.

وبقي حَاملُ الفِراش على حاله.. غير منقوص!

* * *

اقتحموا بيته فجأة، وانتشروا في الغُرف والردهات والمطبخ والحمامات.. فلم يجدوا أحدًا!

سأل الضابطُ صاحبَ البيت: أين هُم؟

.. ولا أحد!

خرج الجنود، لكنّ الضابط انتبه إلى تلك الصورة المعلّقة على حائط الغرفة، فهجم عليها وانتزعها من مكانها، وصرخ: صورة مَنْ هذه؟

لكن صاحب البيت لم يُجب.. صرخ الضابط ثانية: هذه صورة عبد القادر الحسيني! لا.. لا..

انها صورة القسّام!

واعتقلوا الرجل مع الصورة، وأخذوهما إلى السجن. في اليوم التالي أحضر الضابطُ صاحبَ البيتِ والصورةَ إلى المحكمة، ووضعها أمام القاضي العسكري!

وعندما بدأ الضابط بمرافعته لإدانة الرجل الذي يعلّق تلك الصورَ على الجدران.. راح القاضي يتملّى الصورة ويحملق فيها.. فلم يرَ غير صورة حصان يصهل على تلّة مُضاءة!

* * *

عندما أخرجوا المعتقلين الثلاثة من زنازين سجن المسكوبية، غرب المدينة، تقدّم جنديان وراحا يضعان عصبة القماش على عيون المعتقلين، بعد أن قيّدوهم بالكلبشات خلف ظهورهم!

قال معتقل لجنديّ: لماذا تعصب عيني زميلي هذا! إنه ضرير وأنتَ تعلم ذلك؟

قال الجندي: حتى لا يرى.. لكن زميلي الأعمى هو الذي أرشدنا، عندما قادونا إلى «البوسطة» سيارة نقل المعتقلين المصفّحة المعتمة، وهو الذي أخذ بخطواتنا عندما نزلنا إلى «المعبار» غرفة الانتظار، للانتقال، لاحقًا، إلى سجن جديد.

* * *

كيف هويت من السماء وأنتَ فوق النجوم؟

لَيتَعَظَّم اسمك يا راكبَ السحاب، ويا مانح الأرض حِنَّاءَها!

اهبطْ وَقِفْ في الأعالي!

واحضن شقيقتك المذبوحة، الساكبة نُواحَها على المرتفعات، وتسحّ على أخيها الذبيح..

اهْبِطْ.. وَتَغنّى بخلوده النضير ليسترجع روحَه من التراب، ويطفئ نورَ حياة أعدائه، ويُطلق أهلّتَه اللامعات..

اهبط.. لكى يعود من جديد، فقد رأيتك تخرج من نقوش أوغاريت، وتطير فى الأعالى.. فتبعتك، لكى تَرى ما يُرى:

الجراد فى الغيم، والقراصنة فى البحر، وعلى الأرض الدماء.

كَثُرت الأنواءُ فى الجبال، وغاب صوتُ العصفور العذب، ومزّعوا كساءَ الحقول، وانقطع الندى.. ولا أمطار على الأرض، بل حرقها اليباس المعدنىّ والبارود!

ولم يعد السرج الذهبى فى البرارى، التى كانت خضراء كالكحل والمحيط.

تشققت أكبادُ الخيول، وتكسّرت أجنحة النسور، وولّت البواشق هاربةً فى البعيد.

وحزّ الرجالُ لحومهم يندبون البطل، ويسكبون الدمعَ على ابن الإلهة عَنَاة.

يا بعل! اسكب السلام فى كبد الأرض ارمِ السلاح، واجعله محراثًا.. بعد أن ينقشعوا عن حدودنا، فالحرب تخالف مشيئة إيلياء المتحضّرة.

وَأَكْثِر من الصلوات والعمل لكى تمطر السماء، وتغسل ما تبقى من دم وسمّ على الصخور والتراب، بعد أن اصطدموا كالثيران الوحشية، وتناهشوا كالأفاعى، وترافسوا كالجياد الهاجمة.

واجعل كفوفَ المحاربين مثل تلال القمح، واغسل أقدامَ أهلك التى غطست بدم الحرّاس، والنجيعَ الذى تجمّد على أردية العرائس.

وَقُل لهم: لا تشمخوا! لأننى بقوة الحق، سأصبغ شيبكم بحُمْرة الدماء.

وقُلْ لهم: فى السِّلْم أعطيكم غزارة الأمطار، وأرسل أصواتكم فى السحاب، فتأمنون على قوافلكم الراجعة، إلى كهوفكم المهجورة.

ومهما أَطَلْتُم الجلوس على عرش الزيتون، فإن أقدامكم لن تبلغ الوطأة ولن يبلغ رأسكم التاج يوماً، بل سيشطركم السيفُ، وتذرّون بالغرابل، وتحرقكم النار، وتطحنون بين الرّحى، وتنثركم الريحُ الصرصر فى العتمات.

ولن يصدّق أحدٌ من الغرباء، أن للثور صوتَ الغزال، وللعقاب تغريدَ الحَسَاسين.

وقُلْ لهم: أيها الأشباحُ! اذهبوا من هنا، أو أمسكوا مقبضَ المحراث، أو يدَ المنجل، أو شبّابةَ القطعان، واتركوا لغةَ الموت والدخان، مرّةً.. وإلى الأبد!

وإنْ عدتم.. عُدنا.

* * *

الأفعى تحدّق فى عينى الفريسة، فتعطّل حواسها، وتستسلم، لكنها أكبر من فم الأفعى!

* * *

لقد تسللت الأرانب من تحت السياج، وأبقت الذئبَ مع الحَمَل، وكانت تدّعى أنها سباع الأرض، وخيّالة الدنيا..

* * *

لون المأتم الذى يطبع المدينة، صار داكنًا إلى حدّ العتمة، والمعدن الذى لا يصدأ أمسى على الشبابيك عصيًّا تتساقط طحينًا من أكسيد عفن، والسرو الذى طرّز ممرات المدينة أضحى نحيلاً ناشفًا.. لكن الطائر ما فتئ يراها جنّة غنّاء، يشغفه لونها ونوافذها وشجرها الساحر الحرير.

* * *

كمنجةٌ تنزف فى صدرى، أرفع دَمها الوهّاجَ إلى شبّاك العبير، كأننى مُعلّقٌ بتلك الوارفة التى استلبتنى، ولم أعد قادراً على مغادرة دائرة الدوّامة العالية!

كان الخَفَرُ يمنعها من التجاوب الصريح، ولم تومئ بغير إشراقة الخجل، والإيحاء برضا الاقتراب.. بعيداً!

وألححت بالطلب، وَدَقَقْتُ البابَ المُقَدَّسَ النابضَ بكل الباقات والإيقاع، ومكثتُ شهوراً أُقَدِّمُ أجفانى المُؤَرَّقَةَ على مقعدها المزنّر بالحذر والاحتشام، وضاعفتُ إصدارَ الكلام المؤَمِّلِ والعشقِ الخالص.. إلى أنْ شَقَّت الباب قليلاً، فدلَفْتُ إلى بستانها، بانتظار الصعود إلى فردوس الغزال.

ها أنا ذا أُلَوِّن ألواحَ الرّخام، وأدخل مسامات القرنفل والريحان، وأَحفّ الكهرمانَ بشغف يتوالد كالنبع، فى كل سفر ورجوع.

أنا العاشقُ المُصاب بامرأة المدينةِ، التى يحلو لى أن أراها مدينتى الفاضلة.. التى لا تشبهها مدينةٌ كاملةٌ فى الدنيا.

* * *

صلاة المغرب وركعتان؛ ليبارك اللهُ الزواجَ، ثم يزفّونه من باب الحَرم إلى الصَّمْدةِ الرّانخة. واليوم.. اعتقال مباغت، قبل الصلاة والزفّة والعروس.

* * *

حبّ المدينة الذى يحركنى، وليس كراهية أعدائها.

* * *

عندما أحضروا الجرّافة لتخلع الزيتونة عن عرشها الأبدىّ.. اكتشفوا أن شيخًا فى باطن الأرض، يقف ويمسك شروشها بكلتا يديه.

* * *

السبيل الثرّ الدافق بلعاب القمر توقّف عن لغبة الأفعى، وامتهن البكاء.

* * *

اليدُ التى حملت ملعقةَ الدم، وسكبتها فى فم الرضيع، عربشت عليها اللبلابة.. فَطَرحت زهوراً سوداء.

* * *

القبّة ثدى الأرض، والهلالُ حلَمتُه التى تُرضع صغارَ النجوم.

* * *

وفى شهور الخطبة، كنتُ أستأذن حماى، لأذهب مع خطيبتى إلى الحَرم! كان يعرف أن الذهاب إلى هناك عصمة ومناعة من أىّ شرّ أو شطط، وكنّا بعد العشاء نتمشّى إلى الفرن، فنجلس على سور واطئ أو حجرين مقعدين فى الطريق، ونفرد الكعك والفلافل والزعتر، ونسير متباطئين إلى الدار!

كانت تلتصق بى كأنها خائفة! ثم تهدأ لدى مرورنا بساحة المراجيح، فتتذكر أيام "اليويا" ورمضان وليلة القدر والعيد! ثم تخاف فتلتصق ثانية، وتقول: من هنا خرجت "العمورة"! والعمورة هى الغولة بلغة أهل البلدة القديمة! فأشكر فى سرّى عمورة القدس التى أتاحت لى فرصة الاقتراب! إننى أموت شوقًا إلى تلك الطريق.. وإلى تلك الرائحة وإلى تلك الليالى!

وإلى من يرى العمورة.. فليشكرها عنّى!

(من كتابنا: كشكول الذهب)

* * *

لم نَنَم تلك الليالى، وكنا إنْ فجّ الصباح ننهض إلى الثياب الجديدة، ونضع أحذيتنا الصغيرة اللامعة، ونأخذ العيديّة.. ونقبّل أيديهم الكبيرة.. وننطلق إلى ساحة "توما توما" حيث نشترى هواءَ المراجيح، ونطير إلى أعلى السور..

لماذا أبكى الآن؟

فى الطريق إلى الغيم، كانت المروج الجبلية تنبئ بدم فى الوردة أعظم من دمنا.

* * *

عندما جلستْ كالبركان الصغير، تأكد له أن النصر هو شيءٌ موجود في الاستسلام.

* * *

البلاد التي كانت تمور بهمس التأملات وبمجد الطبيعة.. غاب حَرَسُها! لهذا، كان عرشُها فارغًا، فاستسهلوا الجلوس عليه.

* * *

أسيرُ الآن في خيال الطريق، والآن ليلٌ نهاريٌ يغطّي المرات الفارغة إلاّ من وَقْع أقدامي، كأني أسير، من جديد، وأدخل "باب الأسباط" وأمشي، وأمشي، ثم أدلف من "باب حُطّة" فالحارة. وأسير، هكذا، كأنني نائم أو ممغنط باتجاه "باب الساهرة"، وفجأة تخرج لي العمورة بشَعرها الهائل المنفوش وعينيها المليئتين بالدم وأظفارها المدببة وخوارها الذي ينزع القلب، تتهارش مع الجدران، فَيَهرّ الجير من الحجارة شريطًا أبيض، ثم تقفز العمورة وتعترضني فأقفُ متوجسًا مُستنفرًا.

وأفتح عينيّ فأرى الجنود يشهرون أسلحتهم، ويحيطون بي، ومواسير البنادق قد لامست بطني وظهري ورأسي وخاصرتي، يفتشونني، ويتفحصون أوراقي، ويرمونني أرضًا، ويقيدونني، ويأخذونني مخفورًا على أرض الدبابة إلى السجن!

دخل القدس دون تصريح!

سجن ثلاث سنوات!

* * *

عندما ظهرت الأنياب، هربوا كلهم! كان الطقس مظلمًا وأساور الثعبان تدمدم في سواعد الشَّبَح الخائف.. ولم يجدوا القوة في ١٤٩ أنفسهم، إلاّ عندما تذكّروا الآية المجيدة!

* * *

كنتُ لا أعرف المدينة، لكنها محمولة على تلك الحكايات والمشاهد والشِّعر الجليل.. ولم تسر الأمور في مواسمها، لأحظى بأثمارها الناضجة، لكنني أحببتُ مَنْ لا أعرف، وأحببت مَنْ عرفت.

* * *

"إذا أردتم.. فتلكَ ليست أسطورة" هذا ما قاله الذئب ذو العثنون الشائب، وكان ينبغي أن يقولها شيخُنا!

* * *

"أوسلو" أعطتهم المدينةَ، وأعطتنا الحسرة.

* * *

كأن الجَملَون الواصل بين البيتين، ويحمل شرفةَ المنثور، هو حاجب المرأة المجدليّة، أو أن المجدليات زَجَجْن الحواجب كما رأين الجملون، ورسمن الإثمد طريقًا إلى النبع.

* * *

ما الذي يتلألأ على السطوح؟

إنّهُ القمر العاشق الذي ذاب على القرميد!

* * *

لم يضمر الصوفيّ في نفسه أن يُحرّك الحائطَ أو السرير، أو يصعد الكرسيُّ مع روحه إلى الكائن الأسمى، كان يعتقد أن صلاة الزِّن والمجاهدات والتعزيم والمناجاة والتوسّلات، في غمرة شروده ونداءاته للأعالي الباهرة، ستفكك قفصَ الجسد، وتحرّر الغلالة لتحظى بالنيرفانا! غير أن البيت، قد تراءى له بين الغيوم، قبل أن يبلغْ الكشف، ويصعقه الهلع!

* * *

المدينة بنفسجة كبيرة، تصعد إلى الضوء، كلما اصطهدت جهنم خلفها.

وتردّ أشجارها عن الهاويةِ، لتظلّ نافذةً وبابًا، وتحترق فيها الكؤوس المتعرّقة بالغروب.

* * *

كنت فى غرفتى، عندما جاءت لتزورنى فى الفندق. بحَثَتْ عنى قليلاً.. وانشغلتْ برجُلٍ فى البهو.

لقد كان صمتى حريةً للعبث!

* * *

النسر العجوز الذى فاجأنا ما زال فى كلماته توهّجُ القتال، وشغف الملكات.

* * *

.. وكانت وردة حريرية باسقة نديّة، كأنها شمعة الملائكة المتحلّقين حول الضوء!

رائحتها نافذة عميقة قوية واسعة، تنشر ريحًا كأنه المسك أو الصندل أو الندّ أو البخور.. لا أدرى، لكننى امتلأت بها، وكدتُ أطير، لولا أننى استيقظت!

.. وربما قد تراءى لى أنها تقطر دهنًا زجاجيًا ينحو إلى الحليب، فَرَكْتُه بيدى، فتفتحت مساماتها!

.. ومنذ ذلك اليوم، والنار بين أصابعى.

بسبب خدعة من الزمن، بقيت بيوت المدينة أغنية من زيت وزعتر.

* * *

أيها السامع المرتبك! لا تكتم أنفاس الأوتار، واسْمَع الحجر كما ينبغى.

* * *

تسلقتُ الهاوية، وصعدت إلى فمها المخيف، فطالعتنى شظايا صورتى على المرآة المهشّمة، وسحبتُ ظلالى، وخرجتُ من كوّة القضبان، فرأيت الشبح الكونى فى الخارج!

كانت قدمه تحطّ على القطب الشمالي والأخرى على الجنوبي، ويبدو منحنياً، حيث تظلّل مؤخّرتُه ما بين القارّات، ويمد ذراعيه، فتصل أظفاره قيعان المحيطات المعتمة أو باطن البلدان، وتكاد الأرضُ تنوء به، فترتبك تحت خطواته وتضطرب!

لا شك فى أن وطأته تهرس الغابات والجبال، وتسوّيها لتأخذ شكل باطن قدمه، وأن أصابعه تهدّ وجه البسيطة فتثلّمها وتعيد تشكيلها، بعد أن تقيم وتهدم وتحفّر وتسوّى، أمّا إذا وقعت ساقه فى بحر أو محيط فإنها تخوض فى ماء يندفع ليغرق الدنيا وينعفها خراباً متطايراً.

.. كل الأرض مبذولة أمام الشبح يفترعها ويعيد هندستها ويزلزل رسوخها ويبعثرها، إلاّ هذه المدينة التى تبدو جمرة ريانة، يراها.. وينأى عنها.

* * *

هل رأيتَها فى الضباب؟ كانت تتلفَّعُ بقميص الغبش، وتختفى وراء رغوة الحليب، وتهبط فى الحلم.

* * *

النافورة التى تعطى الأطفال شَعر البنات أصبحت عارية، وبلا رذاذ رهيف، وراح الجنود يقتعدون حجارتها، فتشققت وتفلّعت وتناقلوها إلى المكبّ.. وهناك جمعت أمْرَها واصطفت ثانية، وأطلقت جدائلها من جديد.

* * *

تخنس فى حضنه، ويمسّدها، فتغلى وترتعش وتغفو، فتشهق المدينة وترتعد، وتندّ دمعة القشعريرة.. وتبرد الحيطان.

* * *

منذ أربعين لم يظهر قوس قزح فى سماء المدينة! هذا خيط الدخان والدم والكراهية.

* * *

الحقيقة واضحة للذين يرون!

وعيون المصالح بيضاء.

* * *

قالوا: الذين يساعدون الشيطان يجب أن يتطهّروا بالنار التى وُلدوا منها.

* * *

نقطة الدم التى سقطت من فمها، ووقعت على الطاولة، تفشّت وسالت فى الشقوق الصغيرة، وانسربت في شعيرات الفراغ..

وصارت الطاولة تهطل بالنعمان وتغطى الأرض.

* * *

لقد حطّت الجوارح على سفوح وادى جهنم والربابة ووادى الواد، واتخذت هيئة الانقضاض.. ولا شىء فى الوديان غير مخلّفات الجنود والمستوطنين! غير أن الحاخام أبلغ الجنرال بأن هارمجيدو ستقع قريباً وستفيض الوديان بالجثث والديدان.

* * *

لم تكن دموعها مائية شفافة، إنه الابن الثانى الممدّد فى النعش.. وإنه عَنْدَمٌ كاوٍ وأرجوان يغلى.

* * *

قدّم له شرابَ الزنجبيل وعيدان الخبز وقطع اللحم المجفّف، ولم ينتبه إلى أن وجهه كان فى الكهف، وأن عموده الفقرى يتغضّن كالسمك القديم، ولم ينتبه إلى أنه جاء من عَبَّارةٍ تُفْضى إلى غرفة الآثار.

* * *

وضعوه وراء القضبان، فأخذ يرسم زهرة عبّاد شمس، وبعد حين غطت الزهرةُ السجن، ثم غطت الأحياءَ تباعًا.. إلى أن أصبحت المدينةُ زهرةً كبيرة، ومن يومها صارت زهرة المدائن والشمس.

* * *

أولئك الذين كرّسوا حياتهم للزلاّت والضلالات والكبائر، من كورش الإخميني وهيرودوس الأدومى وريتشارد قلب الأسد إلى بوش وشارون.. كيف لنا أن نذكر أسماءَهم المجوجة، ويكونوا خالدين، ويحظوا بمرور أسمائهم على ألسنتنا؟

إنهم اللعنة وخنازير التاريخ.

* * *

عندما أقاموا المئذنة على جبل موريا المختار، أقاموا الجرسية على جبل أُكر المقابل له، وامتدت خيوط الذهب بين الناقوس وبلال.

ولم يشاهد أحدٌ، منذ الغَمْر الأوّل غيرَ البوابة المؤدية إلى البلدة القديمة على جبل نبريتا.

* * *

القدسُ راقاتٌ ملتصقة بالشَّيد والسُّكّرِ، وثمة عشرون مدينة على المدينة، وفى الأعماق آبار المَاقى المُطفأة.

* * *

المرأة التى كانت تخطو فى السويقة.. لم تحتمل الأرضُ وطأتَها، فارتبكت، ووقع الزلزال.

* * *

هنا عَرَّج زرياب، فأكل وشرب ونام، وكان فى الليل قد أذاب الحجارة والغيومَ والمصاطبَ والغصونَ، ونثرها حبّاتٍ تسطع كفراشات النار فى السماء، ثم أخذ من جديلة الفَرس أوتاره، لينثر الأندلس على التلال.

* * *

.. وأخيراً، تم الاتفاق على أن يقوم أصحاب الأفران في "المسرارة" على تقديم كعك السمسم والزعتر والفلافل والبيض المشوى لأهل الجنّة، وقد وقّع الطرفان على العقد الأبدى.

* * *

لقد سقطت صخور المنجنيق، فقتلت صانعةَ الجبن، فترحّم عليها جيرانها، ولم يسألوا عن سبب بقائها فى البيت، والأبواق تطلق أصواتها!

* * *

كانت حارات القدس: المغاربة، الشرف، العلم، الحيادرة، الصلتين، السعديّة، الأرمن، السلسلة، الواد، حُطّة، النبى داوود، النصارى، الريشة، بنى الحارث، الضوية، تنظر إلى الحصن العظيم، حيث الطبلخانة تدقّ كل ليلة بين المغرب والعشاء، على عادة القلاع في البلاد.. وصارت الحارات وأسواق القطّانين والعطّارين واللحّامين وخان الزيت والكبير، لا ينظر أهلها إلاّ إلى الصورة، يسألونها عمّا يحدث هنا كل ساعة!

* * *

كلّما صافحَ القاتلَ، انهدم حجر وأجهضت شجرة.

* * *

جاء البركان فوضع جبل «المكبِّر» فى الجنوب، و«الطور» أو «الزيتون» فى الشرق، و «المشارف» أو «المشهد» أو «سكوبس» فى الشمال، وجبل «النبى صمويل» فى الغرب، فأصبحت المدينة تنام أنّى تشاء، فثمّ وسادة عالية.

* * *

لطالما رأيتُها فى القيروان ودمشق والرباط وقرطبة وبغداد والمحروسة.. وعكا والخليل ونابلس وغزة، ورأيتها فى المرأة المصبوبة من النرجس ووديان الخردل.

* * *

شظايا مجموعات بشرية كانت محجوزة فى كتاب.

وشعب حقيقى يسكن فى ترابه وسمائه..

وثمة مَنْ يسعى لمقاربة مستحيلة.

* * *

البراءةُ والطهارة كانتا هنا، لكنّ الخوف والوجع تحوّلا إلى كراهية، وبدأت هذه بذبحِ الاثنتين.

* * *

كانت نساءُ الفرنجة يشبّهن صدورهن بقباب المدينة، فمنها ما يشبه «قُبّة جبريل»، أو «قبة الصخرة»، ومنها ما يشبه «قبّة المعراج» أو «قبة السلسلة»، وكُنّ يفضلن ما يشبه «قبّة الرصاص». أما «قبة سليمان»، فلم تكن قد بلغت الرُّشد.

* * *

العجوز التى تُصلّى تحت «قبّة الرسول»، وتطيل الدعاء والابتهال، كانت تدخل فى المحراب وتختفى، ثم تخرج، فيلمع النهرُ الفتىّ، على صدر ثوبها، ويكاد البلحُ أن يسّاقط من النخلة الفارعة المرشوقة على ظهر ثوبها.. والمسكُ يتفتّت من بطن الظبى الذى يتبعها.

* * *

جائزة الأحياء هى الحقيقة، وجائزة الأموات.. الوهم، ولا يعودون إلاّ إذا اكتشفوا الدلائل.

* * *

الشيطان هو مركز هذا البناء، ينام فى قَبْوه، ويتجول نهاراً على غُرَفه، ويقهقه ويصارع الربّ، لا يأكل ولا يشرب! لكن أطفالاً اختفوا من الجوار.

* * *

الأم شيء كبير أمام الأطفال، وصغير جداً أمام القنّاص.

* * *

كلّ الحروب مبنيّة على الخداع، إلا حرب القدس، فقد انبنت على الوضوح.

* * *

عندما أعلن السجين إضرابه عن الطعام احتجاجًا، أحضره الجنودُ مقيّدًا إلى غرفة المحقّق، فقام الأخير، لإغاظته، بتناول طعامه على مرأى منه..

لقد كانت قطعة اللحم نيئة، وأسنان المحقق المعدنية تقطعها بيُسْر، وتنزّ على الطاولة.

* * *

نحن أبناء السديم الأول، وأوّل مَنْ حطّ على هذه الأرض، ولم يكن قبلنا غير العماليق، الذى كان جدّهم، عوج بن عناق، يمدّ يده فى البحر، فيمسك الحوت، ثم يرفعه فيشويه فى عين الشمس، ويأكله..

ومنذ أن كُنّا، وما زلنا، لم يعد العماليق، لكنهم موجودون كالأرواح والرياح والنطفة والجدار والطريق..

لقد ترك العماليقُ بعضَ نقوشهم التى تقول: سعيدة هى الأرضُ التى تلد الأساطير والشهداء.. وحزينة تلك التى تحتاج إليهم!

* * *

إن أعداء المدينة، على اختلاف عصورهم ووجوههم وألسنتهم، كانوا يأتون من الرماد، ولا يأكلون إلاّ الدم! وهذا ربما الذى جعلهم ينصرفون عنها، فأرضها نارٌ وطعامها من الجنّة.

* * *

الجنين يركل بطن أُمّه، وتزداد الانقباضات المؤلمة.. وينزل ماءُ الرأس جمراً سائلاً على الفِراش.. وسيخرج المولود مثل عنقود اللّهب.

* * *

يا صاحبة الجلالة والسموّ والسيادة، يا بيتَ آدم الناسك فيه! يا صاحبة العفاف الأوّاب فى اللواوين والمحارب والجرسيات!

أرى أشعة الغزالة على أعمدة الجامع، كأنها الخرّوب الفتىّ الأشقر، أو زاد النحلة الشهيدة، أو أحلام الحقائب العابرة إلى الغد الفسيح.

وأرى التراب الذى عصروه فسال العرق والدم والغضب. وسمعت المنادى النحاسىّ، فردّت المآذنُ على الأجراس تبشّر بالزلزال.

وناديتُ، فَحَضر الأبدُ الفلسطينى، يجرّ جدائل شمشون وراءه، ويطأ الأرضَ فتنشرخ كالأنهار أمامه، وتفرّ الأشباحُ، وقد ضاق بها الكوكب..

وثمة طفل يلعب فى الساحة مع الحَمام..

* * *

لم تكن الخنساءُ أكثرَ من إرهاصةٍ لنموذجٍ مُوجع، لتأتى بعدها العشراتُ ممَّن سيدفنّ تسع بنات شقيقات، أو ثمانية أبناء، دفعة واحدة، أو البيت كامل الأركان؛ بزيته وطحينه ودفاتره وقلائده وألبوماته وستائره وزينته وعبوّاته وخزائنه وملابسه وحيطانه وألعابه وأدراجه وأنفاسه وذكرياته.. المطمورة.

سترفع الشاعرةُ الثاكلةُ يديها، فى القبر، لتدفع الحجارة وتخرج، لِتلدَ من جديد، وتتفوّق، بجنازاتها، على مَنْ سَبَقْنها من الوالدات.. ولن تستطيع!

فثمة مَنْ لم يبق لها غير كلمات زائغة، تخرج بلا وعى، على شواهد طازجة، تمتد لتكون مقبرة لكل من كانوا لها.

بالصدفة، كانت فى زيارة جارتها التى قتلوا ابنيْها، عندما خبزت الطائراتُ عمارةَ أسرتها ذات الطوابق الخمسة. وبالصدفة كانت قد حملت آخر أحفادها، الذى تعلّق فى ثوبها.. وهى خارجة من الباب.

* * *

كلّما رانَ الغبارُ زمنًا، وكاد الكبارُ أن يملّوا سردَ الحكايةِ، يفور دمُ العصفور من جديد، فيتوهّجُ السراجُ الكونى، فيرى الصغارُ آثارَ أقدام الغولةِ، وتتفكك الأسرارُ ثانيةً، ولا يملّ الحكواتى المضىء من التبوّر فى الزوايا المخيفة.. شكرًا لهذا الدم الحَرام! الذى يحفظ ذاكرةَ العرب، ليعودوا، من جديد، إلى ملامحهم، التى تلهّوا عنها، باللهاث ودعوات الرضا والمناكفة الساذجة، وأدركوا أن رأسَ الرمح، الذى فختَ صدرَ العصفور يقترب من النقطة الذهبية فى عيونهم.. فيصرخون، ويروحون فى الحكاية، كأنهم أبطالها الناجون، أو شهودها فى محكمة الأحزان...

وشكرًا لدم الإنسان هنا وهنا وهنا...

* * *

يسألُ الناسُ: مَنْ الذى قَهْقَه ليلةَ البارحة؟

لقد دخل الجنودُ المدينةَ، وأثخنوا فيها الجراح!

* * *

ظلّوا يتطيّرون من الضحك والابتهاج، منذ أن سمعوا نبيًّا يقول:

إذا أحبّ اللهُ عبدًا جعل فى قلبه نائحة، وإذا أبغضَ اللهُ عبدًا جعل فى قلبه مزمارًا..

ومن يومها، يَنْفَضّ الجَمْعُ السعيدُ، وهم يرددون:

اللّهم اجعله خيرًا! لكن الجنودَ يجعلونه قارًا ومسخًا ومقصلة...

* * *

كانت ساحة الشَّبْح فى سجن المسكوبية مَسْلَخًا تُعَلَّق فيه الذبائح من أيديها المقيدة إلى الوراء، أو من أقدامها فى كلاليب وجنازير وحلقات الفولاذ، أو يشدّون الذراعين إلى الماسورة بكلبشات تضيق كلّما تحرّك السجين، ولا شىء غير الأنين والألم ورائحة البول والجوع وحفلة الثلج على الأجساد، عندما يتخدّر الليل وتصحو السياط.

* * *

عندما صعد الجندى، لتهشيم العشّ الراقد منذ الدهر تحت سطح مركز القشلة العسكرى، وجد أيقونةً بين الريش وحبّات الكرسنّة، وما إن تناولها حتى احترقت يده، وسقط عن السلّم الخشبى.. بعثوا بالأيقونة إلى معهد الأرخيولوجيا، فدبّت النار، وظلّ الحرزُ ينبض بين الرماد.

* * *

الشاب الذى يملأ أُذنيه بأغانى اللغة الهجينة.. لم يكن يعرف أن اللحن آتٍ من المقصلة!

* * *

كان الجدار يمنعهم من الدخول إليها، فتسلقوا الحبال المجدولة، واستراحوا قليلاً على سطح الجدار، ثم هبطوا على حِبال أخرى إلى الطرف الآخر.

كانت أياديهم مشدودة، وحِبال الدم تقطر.

* * *

الحجر الصوّان الأملس نَبتَ فى مساماته العُشب!

.. هل تتذكرون رَشْقَةَ الدم التى انسفحت عليه؟ لقد كانت حمراء طازجة مثل ربيع القدس.

* * *

عندما نظر الربّ إلى الأرض، سقطت عيناه الواسعتان على بَكّة وأورسالم، فأمر الملائكة بأنْ يقيموا له بيتين على الأرض.

* * *

هل رأيتم أم الشهيد وشقيقاته عندما أدخلوه إلى البيت؟

هل عرفتم، إذًا، لماذا يتواصل الصراخ؟

* * *

ما فتئت أصوات الجان تتصادى فى الصحراء النائية، حيث تبنى الهيكل، والملك يقيم عَرْشه المظلل قرب الواحة المطلّة على أرض بلقيس.

* * *

إنها جنازة السلام أيها الذاهبون إلى إقامتها، لأسبابكم الخاطئة، وإنها أعراس الحرب أيها المقبلون لإنعاشها، لأخطاء أسبابكم.

* * *

كان قد أخذته غفلة الوسن قليلاً، وهو ممدّد على مصاطب الظلّ فى صيف الحَرم! واستيقظ متعوّذًا محوقلاً، ماسحًا وجهه ذاكرًا مُصلّيًا داعيًا أن يُبعد اللهُ العظيم عنه شرًّ ما رأى، فقال له المُعبّر: هذا ليس ضوء النهار، إنه ضوء الحريق!

* * *

وما فتئت القدسُ أرضَ الكريماتوريوم.

* * *

شرٌّ قديمٌ يجوب هذه التلال، وثمة مَنْ يرقُبه!

* * *

ستهمس أصواتهم عبر الحجارة والركام: هنا متْنا من أجل البرتقالة!

* * *

لدى الغازى الكثير من العبيد، والقليل من المحاربين.

* * *

انْظر إلى هذه الأرض الجميلة!

لقد جعلتَها رماداً.. بسبب نزوتك، أيها الغريبُ المتبجّح.

* * *

أَتَذْكُر تلك الليالى الجامحة بالطائرات!

لقد كدَّسَتِ الحُطامَ فوق الجثث.. وكانت أحلامُك تتهاوى فوقها.

* * *

الملك زيركسيس؛ إله الآلهة أو ملك الملوك، أفشى عن عيب قاتل؛

حُبّه للموت.

* * *

الإله ذو الحلقات المعدنية المدلاّة على بدنه، الصلّب، المتغطرس، الجبّار، المُتشفّى.. يشعر بخوف بشرى فى جسده!

* * *

عندما فشلت عضلات الحديد، لجأوا إلى سِحر الإبادة.. من بعيد.

وزيركسيس يريدنا أن نجثو تحت قدميه، ونسمع سلاسل الفولاذ التى تغطّى جسده المصبوب.. ولمّا رفضنا، أطلق طبولَه فى الشجر.

* * *

لا أسرى، لا رحمة، لا سقف، لا شجر، لا جدار، لا مركبة فى الطريق..

هذه شفرة الملك الإله!

* * *

الأبُ الذى فَقَد ابنَه الوحيد.. بكى، لأنه لم يخبره كم كان يُحبّه.

* * *

كُلّهم رحلوا.. لكن رجلاً واحداً نَظَر إلى الخلف؛ الأعمى!

* * *

أيها الإله المُدّعى! لا تَعُد مرةً أُخرى.

* * *

إذا كانت المدينة سجننا، فهى قبركم.

* * *

هنا، على هذه الأرض الدامية، سننقذ العالم من الطاغية.

سيعرف التاريخُ أن رجالاً، بين الأزقة، واجهوا الغول، وانتصروا عليه!

* * *

الجنود المسخ المقنّعون بالزرد اللامع والندوب الخشنة يقتلون الأطفال، لكى يأكلوا اللحم الطرىّ!

* * *

الضحايا يأملون بأكثر من المجد..

* * *

لقد أدخل زيركسيسُ وحيدَ القَرْن ليسحق الجموعَ بسيف قَرْنه المجلوخ بالعِظام!

* * *

الإلهُ الخائف يصرخ من ألمِ الهزيمة، وقطعِ رأس الكركدن، ولسانِ الساحر، وخوفِ الأحدب! لقد تبعثروا بلا معركة..

* * *

كانوا يريدون سحق الحياة.. بداخلنا.

* * *

سيكون لديكم قصة عظيمة تحكونها لأحفادكم، أيها الأطفال الباقون.

إن شجاعتكم تجمعنا.. أيها المدافعون عن الأحلام.

* * *

شعبك يتنفّس فى ظهرك، أيها البطل! فانتصر!

* * *

كانت تصّاعد من كتفيه أفعيان، تزغللان فى الهواء، وترنّ أجراسهما فوق شرائطه، وتلتقطان النَّحلَ السارح، ثم تعودان إلى ذراعيه، فيبدأ الرصاصُ من جديد، وتذبل الزهورُ فى الحقول.

* * *

الشهيد يشهد على دمنا، وبأننا تحدّرنا من سلالةِ العمالقة الذهبيين.

* * *

الكوابيس هنا نهاريّة، واضحة، تراها وتسمعها.. وتعبئ وجهك بالدخان والغبار.

* * *

يمدّون أيديهم داخل رَحْم المرأةِ المعلّقة من ذراعيها، ويمسكون بالجَنين، ويخلعونه من مغارة بطْنها.. فيخرج ورديًا ينبض بدمه.. فيلتهمونه طازجًا!

* * *

ما من أغانٍ تنشدها أيها الكوكب!

هنا العويل والقشعريرة والجنون..

* * *

السّهر والحسّ المُضاعف بما يجرى، هو الذى يغذى الرجال فى الليل.

* * *

كان المطر يملأ المدى، عندما عاد واحد فقط من الذين شهدوا المعركة، وسَلَّمَ الأرملةَ الشابةَ هديةَ زوجها الشهيد، والتى حملت ابنها، ووضعت التذكار فى عُنقه.. وهى على يقين بأن القلوب الحزينة ستفرح مجدداً.

* * *

لم يكونوا يريدون حفل تكريم أو نصبًا تذكارياً أو أُغنية.. كانوا يريدون الخبزَ والهواء..

* * *

عندما قصفوا الجامع، قام الشهيد - والدم يسيل من وجهه الشريف- تمتم من جديد، وترك المقامَ، فخاف الناسُ عليه، لكنهم اطمأنوا بعدما وجدوا جثّته خضراء، وقد نخّلتها الثقوب، ووجهه يفيض بالمجد والطموح.

كان الجندى المُنهار يهذى - وهم يحملونه إلى المشفى - بكلام مُبْهم عن الأشباح التى خرجت من يديه ومن سلاحه، من أذنيه وعينيه، من خلفه وأمامه، ومن عجلات المجنزرة الهادرة..

* * *

هنا ينطبق القول القائل: الجميلةُ قتلت الوحش!

* * *

الخبرُ الجيد: أننا نغنّى..

الخبرُ السيِّئ: أننا نخرج عن اللحن..

* * *

هذى التلّةُ ذات الخصلات البُنْدقية، والنور الذهبى، والولعُ المثير.. كانت تعجُّ بالعُشّاق والطيور، وكان الجرسُ يزورها ليعطى صوتَه للمُغنّى فى المساء.. لكن الجحيمَ المصبوب وصراخَ الهمج جعلاها جرداء.. كوجه الأعمى أو المومياء.

* * *

الدم، الدمُ وحده، ذاكرةُ الحجارة فى المكان!

* * *

قال الشيخُ: سأجعل عكازتى قامةً للبيوت، وقالت المرأةُ: أيتها العاصفة تزوجينى، لأنجبَ من جديد، وقال الرجل: سأعتذر من موتى.. وأعود، وقالت الحجارة: سنطير بأجنحة المنديل، وقالت الغيوم: سأريق بَرْقى المُذاب، وقال الناى: سأبعث الرياح، لتأخذ الوباء إلى الويل، وقالت الشجرة: سأقف فى وجه الداهمات، وقال الطفل: سأُدوِّم مقلاعى فى الجبال، وقال الأليفُ: سأنشب مخالبى فى جسد التنّين، وقالت المبروكة: سأنهش جلد القرصان المدبوغ، وقال الطير: سأفقأ عين العتمة، وقالت الشمس: خذوا أناشيدى، فقال الحصان: هذى جدائلى.. فاصعدوا.

* * *

الجنونُ أفضلُ من الجُبن، ومَنْ لا يجنّ لا يعوّل عليه.

* * *

أخطأ "إليوت"! فالعالم، هناك، سينتهى بالاثنين: الانفجارُ والأنين.

أما هنا، فسينتهى بماء الزّهر.

* * *

الشـاعـرُ ليس كـاهنًـا، لكنه يرى الحبَّ عندمـا تكون السـمـاء كـالفـردوس، ويرى الصبايا وهنّ ينظرن إلى سيف الضوء، ويعبّئن الجرار بالورد، وينعفْنَه على العاشقين.

* * *

لقد ثملت سـحليّـةُ الرّعد من دم الهنود الحُمـر، قبل أن يقـوم شـامـان القبـيلة باستدراجها إلى كمين العدم.

لقد كانت علاقةً معتوهةً وسقيمةً تلك التى دعت إلى تقديم الأضاحى الآدمية إلى هذه الضخمة! بدعوى أنّ أحدًا لا يقدر عليها...

لكن الشامان استطاع.. وها هى جيفة فى قاع الوادى، والدم رطب على الأرض.

* * *

نَظرَ العرّافُ فى كأسِ النار، ثمة مَنْ يبتسم فى قَعْرها، قال، والأوارُ يلمع على شفتيه!

سيولدُ هنا، بعد الحطام والشظايا، وسيكون له عَرْشٌ ساحر، وستصل عرباتُه إلى أفاعى الثلوج.

فى حضوره تتفوّقون على أنفسكم، وإنْ نظر إليكم ستتمّ المعجزة، وسيضحك لكم الزمان!

ستكون خيولُه بلا عدد، جلودُها ماءٌ، وأجنحتُها غامضة، وستبدو أشجارُه ترياقًا للقلوب.

لقد حملته فى أحشائها لينتقمَ لها، لكنّه تجاوز الرمادَ، وتمرّس بالمعرفة والجموح، حتى دقّ عُنقَ الخرافة.

لا مجد بلا معاناة، وبكى العرّافُ حتى ابتلّت عينه البيضاء! ثم صرخ: المسكين! العظيم!

إنها حياةٌ مُوحشة، يَسْتَعْبِدنُا بِمَجْده، ويتركنا أحرارًا إلاّ من ذكراه الساطعة.. انتظروه..

إن أُمَّهُ تصرخُ من آلام المخاض.

سيتناول أعداؤه العَشاءَ فى الجحيم، ولن تكون شمسٌ فى السماء، سيكون شمسَ الأرضين.

سيُغطّى الأرضَ بدمهم، ويتبعهم إلى آخر الحشرجات.

ستعلو صواريه، وينزل بالغيث حيثما يشاء، وسيفقأ عينَ الثور.

ستشكره البواشق، ويمّحى عُرفُ الديك الزائل، وتتلاشى صور أعدائه كالهواء.

ستحترق الأبواق، ويذوب المعدن من الصراخ.

ستفيض الوديان والحُفر والأخاديد بالعفونة والديدان وثياب الحديد، إلى أن تتجشّأ الفراغ، ثم تدبّ النار والطهارة، وتمطر غيومُ الصيف سبعة أيامٍ بلياليها.

ربما لم تلده أُمّه، بل خرج من مرْجَل العويل والقهر.

سيجفّ على قميصه النُّعمان، ويتقشّر فوق دفقات العَرقِ تحت الظهيرة.

سيدخل المدينةَ العصية، كما دخلوا مدائن الأساطير.

سيلاعب السَّبْعَ فى الكمان.

سيحمل إليه أبناءُ رعاة الماعز والبرابرةُ صناديقَهم، ويفرحون بالعفو.

سيعضّ قلبَه عطرُ الزهرة ذات الخُصلاتِ الفاحمة.

والشكُّ هو الذى يكشف أسرارَ القلوب، لكنَّ الوقتَ قد تأخَّرَ، وهو ليس هشّا ولا نبيّا، لكنه ينسى، كعادة البشر، أن ثمةَ خَوَنَةً فى البيت.

سيصل إلى المجهول والبعيد، ويتحدّث عنه التائهون فى الأصقاع، وينسجون حوله الهالاتِ التى يريدونها.

سترقص له الغزلانُ فى الغيوم، ويعذّبه بطنُ الأنثى، ويحلم بحليب الياسمين.

سينثرون الأرزَ لياقةً تحت أسواره، ويشرق بالحِبْر الأبيض، وتسبح على جدرانه الغاباتُ والأحلام.

وحينما يبلغ القمةَ سيرى وُعورةً لا تبلغها أو تقطعها إلاّ الآلهة، فيضطر أنْ يسلك طريقَ النحل والحرير.

سيرتجف ويقشَعِرّ، هذا القوى العنيد، ولن ينحنى، لأنه بعيدٌ عن العار وشهوة الخشب.

ولن يتعجرف كالمُهر الأرْعَن.

لن يخذله جسده، ولن تتجرأ عليه الأيام، وسيبقى عابداً زاهداً بسيطًا.. وباسلاً إلى أنْ يشيبَ الأحفاد، ويحملوا خارطةَ الروح.

ولأنَّ الافتراء ضعفٌ، والرؤيا بشرى، فلا بأس أن تضحكوا أيّها المتوحّشون، لأنكم لن تجدوا حتى الدمع، بعد حين.

وبعد حين بعيد، ستبهت أعراس الانتصارات، وستبلى الذكريات، وتتفتّح حواسٌ جديدة، تعبّ من عالمِها الحديثِ صيحةَ الكسل الطويلة، ولن ينتبهوا إلى التمثال والشعلة والنشيد إلاّ فى المناسبة، كل عام.

فاتبعوا حُلمَكم المخبّأ فى العاجِ والأدهمِ الشجاع!

وتلقّوا الطعنةَ النجلاء التى ستفتح كُوةَ النهار.

ويبدو أنَّ فذاذته تكمن فى أَنّهُ أنقذنا من أنفسنا.

إنه مكافح سماوى، وإننى أراه..

فى فرط الرُّمّان، وعلى سواحل الماكرات الليّنة، وفى ريق الخلاسيّات، وفى كأس النار.

والحالمون يُرْهِقون مَنْ يصدّقون أحلامَهم، فاحذروا، إنكم تدخلون دوامةَ البؤس والبكاء لتخرجوا أكثر كرامةً.. وإننى أراه.. إننى أراه.

* * *

يكفى لتبتسم لنا الآلهة.

مختارات من كتاب
كشكول الذهب
٢٠٠٨

وبعد؛ فإن الذهَبَ زاجرُ زاجلٌ مخاتل، مَسَّ الغزالةَ فتوهّجت، وأغراه المتكوّر فتقاطر شهدًا، وانحنى على الصخرة، فحفظ التلاميذُ دروسَ النسيان. هو السيّد المحفوظ فى الحديد والسَّهَر، وقهوة العروس المُصابة بالإغماء. عقربُ الحرب وأقدامُ العرْش، وزغبُ أنثى الوشق. نَفَسُ الساحرات، وجرأةُ الناى وهدايا النحلة. دمعةُ البرتقالة وإشارةُ الجُلّنار وعُرْفُ الصيّاح المختال.

والذهبُ قيدُ الحرية وبكارةُ العاصفة وصوتُ القرآن المكتوب.

أمشاطُ النخلة وعنادُ الغروب وخريفُ الحور الماطر. سيفُ العاهل البارد، وسنانُ البدوى الأمير، وضحكة زوجته البرمكية. كهرمانُ العجوز، وصرّةُ الغريب، ونبضُ الحرير المنساب، فتيلُ سراج القرية، وعطرُ الفجر المشهود، وما تركته الأفعى على صخرة الثأر.

أيقونةُ النار وتلويحةُ المُهر وثوبُ الضبع الوحيد. والذهَبُ تلبيةُ المتبتّل، وهمس الغنوصىّ السّرىّ، ووجهُ النحاس الفقير. هو قلبٌ وهلالٌ وما شئت من التراب. وهو يُراقى إلى نبيذى الحامض وسنابلى المهروسة، وتاجى وأنا أصارع الهزيمة، وقد بلغ الصليبُ الجُلجلة! وهو حجرى القرمطىّ وأذانى للقوافل.

والذهبُ ذريعةُ الحاسد وموجاته الطّامة. يتيمٌ، ثمينٌ، يصلح لأنْ يلمع للآخرين ويظل جائعًا كفأس العبيد. زاهدٌ حاكمٌ يُغرى جامعى الحياة ليصلوا مُثقلين إلى شفرات اللحد المُقفرة. ولا شأن لى بهذا الرقراق الذى كانت روحه مخبّأة فى الوردة السوداء، وحين قبّلتها، انطبعت حلَماتٍ وزبيبًا. سأرميه إلى مخلب مهمازى وللنار المُرابيةِ الغيورة، ولن يتم خلاصى من دون وأده فى النجمة الجاهلية، حتى تشفّ النداءات فى البرارى، وتعود المواقد فى أجنحة الفينيق.

وسأركب هذا الدرج الساطع وأعتلى منصّة السبيكة، وأنظر من عينىْ زرقاء اليمامة لأرى أدغال الثائر تدفّ من بعيد، أحضنه، فيبتلّ قميصى بالكرز، وأرجع إلى

البيت، إلى أن تقول الجارةُ لامرأتي: ما هذا الشجر الماشى؟ ألا يكفيكم بلوراً لتصدّوا الظلّ الداكن! يكفى، غطّتنا العتمة.

* * *

قطراتُ الجمرة تحت البحر تتضور منذ الأزل المُبْهم، هى نطفة السلطان المخلوع، ليبقى على سرج الهتاف وسنابك النصر المثخن بالسباع الصرعى. رآها النسر فهوى مثل السهم النيزك، وبمنقاره الفدائى فثأ اللؤلؤة المحظوظة، فصعدت حتى بلغت السطح المجعّد، وكنتُ أطيش على زجاجى الرخو، فانسربت حتى دخلت الإبرة إلى نخاعى. فما بالى أحمل هذى الذّرات المصبوبة، كأنها الدم الملكىّ الذى يتوجنى ابنَ رسولٍ لم يدرك رفعته النبوية؟

* * *

خذلتنى التعويذةُ، كانت خضراء، كغطاء قبور الأولياء، وأرادتها العينُ زرقاءَ كآفاق الفجر، ويا خُسران الرمّان! دم الأرض وقنديل الجنّة، فقد فَقَدَ الصولجان ذهَبَهُ الخالص، وخرجت من عصاه روحُ المحارب، وانتصر رجال المستنقعات.

* * *

والمرأةُ، مَنْ كانت تتغيّا الليل المُفْرد، لِتَعُبَّ هواء الأضواء وغبش الرنّام، وتنزلق على أرجوحة الحريّف... جَفّ حلقها مرارةً، وانكمش الأرنب الصغير على فراء الحسرة.

* * *

والولد اللاهث هرباً من خوذات الدبية دلف إلى بيتٍ يقيه الموت، فكانت زليخة التى أجلسته مع وحدتها العطشى، وهدأت من رعشته انتظاراً لرعشات أعلى، وعادت إليه كما ولدتها السماء، لكنه خاف فهرب غير آبهٍ بالحوت الحديدى الساحق.

* * *

وتذكّر أُخرى؛ كان يحمل إليها بعض عصارات الجبل العابق، ودخل إلى صحن النوم، فكان شفيفًا مزنّرًا، كأنه يعدّها للنزول إلى البحر، وأطبقت عليه، كان صغيراً، لم يبلغ أنفه أعلى من نهر النهدين، واعتصرته، وما فتئت رائحة السوسن هنا فى الرأس.

* * *

كم كنتَ جاهلاً غريراً أيها الظمآن الأعمى! ويا ليت تلك النداوة ترجع، ويعود الطفل البرىء بوعى الذئب إلى النعناع.

غزالة حامل بأجنّتها تقطع الدرب إلى شجرها، فتضربها مركبةُ الجيش، فتطير الغزالةُ وتساّقط حبّاتُ رحمها المدمّاة، وتتدحرج بعيداً مشقوقة البطن، والفوران الأحمرُ يتدفّق، والزغب مهروس تحت العجلات!

جاء الفلاّحون من القرى المجاورة، ولمّوا أشلاء الغزالة، وجمعوا معها الأجنّة المسحوقة، وأقاموا عليها الصلاة!

يقولون: نبعٌ من عصافير مضيئة يتدفق عاليًا كنافورة من شذرات لامعة ترسم شكل قلب مكان ارتطام الحديد مع أمّ الصغار.

ويقولون: ناى يعلو كالغبش أو الغلالة يتكوّر كبطن الحامل وينفجر رذاذًا بلّوريًا، حيث انسحقت الشمسُ مع نجومها التى لم ترَ النور.

ويقولون: بكاء خفيف يصدر عن الحجارة والأغصان وجذوع الشجر وأنامل العشب وتبر التراب فى فضاء استشهاد الحامل الصعب.

ويقولون: إن جمرات بيضاء تنبض فى الليل، كلما وسوست العتمة وادلَهمَّ الليل، فتخرج الطيور من أعشاشها تؤنس وحدة البياض الشجاع.

ويقولون: ما فتئت قطرات ندى بطنها المخمليّ ترهج كالذهب على جنبات الطريق، وإن الشجن يعلو كلما عصفت الرياح، أو مرّت العجلات القاتلة.

وقالوا: إن الغزال المكحّل الذى فَقدَ غزالته المدهومة قد تحزَّمَ بالإثمد، وجنَحت شظاياه على بُعد وردة من الحاجز المنعوف.

* * *

والرجلُ الذى سملوا عينيه تشهّى جفرا تتثنّى، لكن الماء انقطع، واندلعت النار، وانفقأ الكيس، وتلعثم المثلوم أمام الرغبة والفرس الجامح، وانهزم إلى حدّ الدوخان، كان ذليلاً يرسل عينيه التائهتين إلى الأحجار، ويزوغ مع التقريع اللائم، فاحتشد ومات، وتيتّم الحبق الحبيب، وبكى طوال الليل الأطول.

* * *

بستان الشوك مليء بالتين ومراهقة اللوز، والطير حبيس الأعشاش، ونزّ الخيط الوردى إلى أن رفّ على شباك امرأة عذراء، ووقف على صحن الكفّ، وكادت تشكو، وهبطت حبّتان، نَفَرتا كالكرسنّة الألماس، ففهم الريش وتعافى، وعاد إلى لبن الحبّات.

* * *

جرىء كالموسيقى هذا الطفل، ومجنونة كالزلازل تلك العانس، والمسرح يعجّ بأقنعة المُشاة المدججين بالهمس.

* * *

الخاتم الذهبى عقاب الأميرة للمرأة الولود، أو فقحة الشاعر المتهتك، أو عقدة الليلة التى انتظروها بالمناديل والعُقد ورصاص الإعلان الأهوج، وهو إشارة أسباب الخيانة واللذائذ.

لن تخفى تلك اللفحة الحارة، فالمزمار خمرة نافذة، وهذا الفيضان بعض آثاره، وذلك النهار بعض نوافذه، وأكاد أخرج من هيكلى لأمسك بفضّته السابحة، وما زلت على قناعة تامة بأنه وحش النضارة والفرح، الذى أضعه على رأسى، وأمشى على مياهه العذبة.

* * *

هيـرودوس، الإمـبـراطـور المجنون الذى كـان يصـيـب الحـديد بالرعب، قـد أكلتـه الديدان وهو يعانى من سكرات الموت فى أريحا، التى لم تكن حينها شرفة للقمر والليل البـهـيج، بل كـانت مُلوحـةً ورطوبةً وذبابًا زاد من مـعـاناة الإمـبـراطور المخـتنق بقلبـه المتضخم ورئتيه المنتفختين بالماء وبحشرجته الذابحة.

هيرودوس هذا طلب من معاونيه، وهو على فراش العذاب، أن يقتلوا يوم موته ألفًا من علية القوم، حتى تنوح النساء والبيوت، ويحسب الناس أن ذلك العويل هو حزن على هيرودوس.

أما هيرودوس الإسرائيلى المتمثل بكل قائد مجزرة أو مذبحة أو مستوطنة أو سور أو حاجـز، من شـامـيـر إلى شـارون، ومن غـولدا إلى وايزمن، ومـن نتنيـاهـو إلى أولمرت ومن بيرس إلى باراك، فجميعهم يوم أن يدرك أحدهم الموت يترك ألف أرملة فلسطينية يبكين على رجالهن! غير أن الناس يعرفون، ببساطة، أن هذه الفجائع ليست حزنًا على أولئك النافقين الجزّارين، ولكن بسبب ما اقترفت أيديهم القذرة.

كيف يكون طعم دمها هذه التفاحة الجدارية، التى تتكسّر عذوبةً وبرودةً مثل حزوز الحَبّ الساحلىّ بين أسنانى؟ أنا كائن المغارة الغامض، الذى صار تمثالاً من ماء ممسوس.

* * *

السجين الذى استعصى على مربعاتِ الاحتواء، وعلى الحذف والإلغاء والإضـافة، انفـجرت لعبـتـه بين يديه، فـالرسّـام الوهاب ضـاق به ذرعًـا، وكـان يريده بحـجم جُـرْمـه القصـيـر الضـئيل، لكنه طائر من أرض العمـاليق يئـزّ على المنارات، فـيشـعـلها بوعوده الأكيدة، إنه الآن حُرّ مثل مُلصقه الذى يحرس المدينةَ والناسُ نيام.

* * *

أوقفه الحـاجـز، كانوا مستنفرين كالطوفان، وبعد أن أتمّوا حفلة الذّل والتفـتيش والتنبـيش عن الهـواء، قالوا لامرأته أن تخلـع كل مـلابسـهـا، فـثـمـة وطن سـينفـجـر فى

بطنها، وارتفع الصراخ الوحشى المجنون، وانغلق العقل- سيعرّونها غَضْبًا-... وبعد دقائق كان دمه يشق جداول نحو الشجر اليابس على حافة المجنزرات، وأمرأة تستلقى دون ثياب!

* * *

الذهَب، هنا، عروق الشاعرية التى ترشق ماءها الماسىّ المنفلت الأرعن الطفل الأهوج الحالم المتوتر الموّار السكران المتحلل فى ذهن النثرية الموجوعة الحارة المغموسة بالحكمة المقطّرة.

وهو حصى المشعوذة وعظام طائرها الرميم، وما تكشفه من غيب مستور.

وهو الجنىّ الواقف يسترق السمع وراء الأبواب، ومَنْ ينظر من عين المفتاح على ألعاب الجسدين، وكيف يفيض الماء المالح أو صوت الموج، وما ظلّ من الحطب الأخضر ورهام الساحل!

والذهَبُ عشبة جلجامش، أو ما يُبقى التابوت فناراً، والصفة المهيوبة خالدةً فوق رفوف الذكْرِ!

ولكن، ماذا يعنى هذا؟ لا شىء سوى أن اللعبة تحلو، ولنا أن نستمرئَ وَهْم الكلمات!

* * *

مثلما تركتم أجسادَكم للرصاصِ أيها الفارهونَ الذين أخطأَتْهم صُدفةُ الضرورة- وكان ذلك فى حُلمٍ مصنوعٍ من جلودِ العبيد- اتركوا باقةَ الوردِ البسيطةِ وغربالَ البكاءِ الناشفِ، وخلّوا الوعلَ ينزُو قبل أن تصطادَهُ الأنفاسُ، فقد كان الطريدةَ والصّيادَ. وهو نحنُ المُسرنمون الشهودُ على الصفقة. واتركوا الرأسين العاشقين ليأتىَ صوتُ البحرِ العارم! ومثلما تركتُم المقصلةَ صَدِئَةً لِغَلَبةِ الخَرسِ وهدوءِ التأويلِ وألعابِ النساءِ المستريحاتِ.. اتركونا فى وديانِ الجنونِ البريئة.

فالحقيقة ما تُريدون سَمَاعهُ عن النارِ أو الانكسارِ.. بعد أنْ خاتلتم البرَّ والفرَسَ، ووأدتم الأغنيةَ، وتركتمونا ننتظرُ مواقيتَ موتنا ونخيطُ أكفاننَا بأقلامنا فى أزمانِ اللّهو والحليب القليل، وجعلتمونا آباءً لأطفالٍ يستثمرون ويرقصون على موتِ ثوبِ الحكايةِ والحقل.

والحقيقةُ أنكم قبيلةُ الحداثة الميّتةِ التى لَبستْ قناعَ قاتلها ولعبتْ أدوارَهُ المفزعَةَ، فى أرضِ كنعاننا القَديمة، وأرضِ نبيِّكم الجديدة، فنحنُ الفائضون عن الحاجة.. الذين باعت أمُّهم شَعرها وساقهم الطوفانُ إلى عُنفٍ خائبٍ لم يحمل فى أحشائه النبىَّ المنتظَر. ولم تعرفوا أن الذى يقتل فَرْداً عليه أن يحفر قبرين، فلماذا آثرتم الرايةَ النقيضةَ وذبحتُم الصباحَ؟ وفى شرايين أبنائكم خريرُ النارِ ودفءُ الدم الذى جعلتموه مفارقةً للذريعة الكابية! ولماذا.. وقد وضعتم إطارَ الطريقِ إلى الموت، لا تتركونا نترنّحُ قليلاً، ونَصْرُخُ قليلاً، ونبكى كما لم تبكِ الآلهةُ المذبوحة من جِذْعِها فوقَ جُثَث أبنائِها؟ فاتركونا.. واتركونا نبكى على الشجاعِ الذى لن تراه البيوت.

* * *

لم تتبدل عربات النحاس كثيراً، ولا الخيول أو الجنود، فلقد كانوا ينزلون بسرعة خاطفة إلى الأسواق، يبعثرون الدكك الخشبية الصغيرة، والطاولات الواطئة، فتقع عنها مزَق الخضار والباقات وحبّات البيض والفاكهة، وكانت النساء، بثياب الحقول، يرجعن باكيات دون قطع روميّة نقدية قليلة. ومنذ أربعين، والجنود أنفسهم يهبطون بهراواتهم، فيركلون البسطات بالبساطير، ويدعسون على إضمامات البصل الأخضر والجرجير، ويتدحرج التين والبرقوق، وتعود النساء اللاطمات دون شواقل إلى البيوت المنذورة للهدم والتطرف.. والزوال.

أُحبُ وجهكِ، والشررُ يرتعشُ عليه كالفراشات المتوهجة! وأُحبُ عينيك المغنطيسيتين، وثوبكِ الذى بلون زبد البحر! لكنى فى عالم فَقَدَ رشدَه، ولا يمنحنى جنّةً أحياها معك.. لأنَّ الجنّة ليست مأدبةً عظيمةً فوق الغيوم، أو مشواراً فى الليل المائى، إنها الحياة بلا احتلالٍ وجنازات وجنود.

* * *

عندما ابتنى ذلك النزل، أراد تأثيثه والانتقال إليه، فأضاء به وبأهله. ونصَحوه أن يعلّق لوحةً على فراغ الجدار، فتابع بائعي الأنتيكا والأثاث المستعمل القديم الباذخ، وأعجبته لوحة الفهد القابض بأنيابه على عنق الغزال، فعلّقها وسلّط عليها الإضاءة المناسبة، وبعد ليالٍ كان الدرج وأبواب الغرف تسمع خطوات فراء مَرِن وخفيف، وثمة مَنْ يمرق ويهفّ الهواء كأطفال العاصفة.

* * *

الفتاة التي تلف ليل المخيم الماطر حافيةً رثّةً شعثاء تسير على زجاج البكاء، والناس يغلقون أبوابهم المهترئة على الزنك الخايخ المتهالك، ولا يعرفون لها أصلاً!

لكن مسيرها يشبه صوت البوم، فيتشاءم الرجال، وتضرب النساء كفًا بكفٍّ، ويتمنين لها الموت.

والفتى الطازج الأشقر الذي يغطّي النمش وجهه ما زال يأتي أيام الأعياد، وينفخ في الساكسفون حتى يسكت الناس، وتخشع الطرقات الضيقة، ولا يعرفون له أصلاً!

لكن الفتاة والفتى لقيطان في ملجأ المدينة القريبة، وكلاهما وُجد ملفّعًا بدم المخاض، ومُعلَقًا على صدره كوز صنوبر، وتحنو عليهما الراهبة الصهباء التي شربت المناقيرُ من ماء وجهها، فامتلأ بما يشبه النمَش الغامق!

* * *

إذا شككتَ في النبوءة، فاخرج إلى السّحر العميق، إلى فضاء الله المفتوح على الذَرى والجبال والوديان، سترى الشجر على شكل طواويس وحيوانات أليفة وأطفال لهم وجوه الجلّنار، وعيون النرجس، وشفاه النوّار، ورمش الزفير الغامق، وأنف البلح، وشَعر أعشاش الملائكة الصغار، وسترى الأفاعي أسيفة وقد تحوّلت إلى قنوات مياه صافية، والفراشات نجوم تنبض بوهجها كالأزرار الثلجية، وستلاقي على الطاولات الحجرية الجراء والشنّار تُصلّي مفتوحةَ الأجفان دون توقفٍ أو ملل! وستجد الكلب على

أبواب السفح يستعدّ لمعركته الفاصلة ليمنع الضوارى من الانقضاض ببراثنها العفنة على «العبورة» الغضّة، عندها ستجد الفرس بكامل زينتها وسرجها الوضّاء، تحملك إلى هناك، حيث يُطلّ النبىّ بكلمات النخل والماء.

* * *

والذهب هنا غيمة المشوار، وجديلة النبعة، وما تكثّف فى الجرّة من عسلِ ألفِ عام. هو عِرْق الثوب ومُقرنصات القلعة، ولهب الشارب بلا ندماء، والذهبُ كعكة الراقص وقفزته لصبايا الخفر الملتاع، وحنّاء ليلة السرّ الفوّاح، وبخار الجُرح، وهو الحجر البارد والصورة الأكمل عندما تنكسر الرؤى، وهو سمسم المخدّة وغفْلتها العميقة الحانية.

والذهَبُ رصاصتى التى أصدّ بها لحظة الانهيار التى تتجلى فى اللغة النهائية الكافرة أو المؤمنة، وفى تقمص الذابح وفى النكوص، وفى صعود الفقاعة، وصمت السفينة، وفى الاستهلاك والشكلانيّة، وفى اللجوء إلى العدم أو القاتل، وفى تمزيق الذات والارتداد لإهانة الرموز، وفى طعن الصديق- صفة دائمة- وفى الخوف من الوضوح أو التذكير بالجذر، وفى الدادية أو الهلوسة التى أريد أن أرتُقَها بالذهب حتى تكون تجريبيًا مُحتَملاً لا أُباهى به، ولكن ليحمل معى وجعى إلى الناس.

والذهب جرسُ ما لم تقله أنت، وما خشيتَ من وقوعه، وما تخاف من حدوثه عمّا قريب. والذّهب صومعة الراهب الذى آثر فكرة الابتعاد السديدة، أو كحل المتفجّر وأحزمته الشهيدة، أو كلمة القلب وجروحه المجيدة، والذهب هنا وهناك، وفى كل مكان إنسانٌ.. إنسان!

ولعلك مطهمٌ بالعذاب، وممتلئٌ بالحسرات والفجائع، وظنّى أنك تفيض بالجنون، وبما لا يُعقل، وبكل الغرائب والخيالى والفنتازى والسريالى... ولا قِبَلَ لك بهذه الهلوسات، فاطرحها جانبًا، وامضِ إلى عدميتك أو وجودك.

* * *

الإثارة التى غمرتنا.. كانت كافية لأنْ يجعلها الزلزالُ ذريعتَه فى الأرض.

* * *

يدهمُ الجنودُ حوش البيت الريفى، ويتدفقون، ويقتحمون الغُرف والمطبخ والحمامات والمخزن، ولا أحد!

كانت المرأة مع ابنتها الطفلة، وأكدت لهم أنه لم يأتِ إلى البيت منذ شهور، اذهبوا وابحثوا عنه.

لمعت الفكرة فى ذهن الضابط؛ أحضَرَ الفتاة، ووضع باطن يديها على زهرات الأسلاك الشائكة، واحتضنها بكفيه، وراح يعصر على الأصابع الصغيرة، والأرضُ تصرخ.. تصرخ.. تصرخ، والعندمُ ينقط.. ينقط.. ينقط.

وما زال الحنّاءُ النارىُّ على الأسلاك.

* * *

– أمَا سئمنا الفشل؟

– لماذا يذهبون إلى الحرب بعد أن وقّعوا على السلام؟

– مَنْ جعل النعمةَ تتخفّى؟

– كيف يستطيع الجَمال أن يستحوذ على الأعمى؟

– هل لدينا مبدع هائل وغريب ومذهل يشبه الكونت دى ساد؟

– قد يصافح أحدُ السياسيين قاتلَ أطفال شعبه! ولكن لماذا يعانقه؟

– من أين لسالومى قدرة الرقص مع الموت؟

– هل الثأر والانتقام حق لطرف واحد أم للطرفين؟

– لماذا لا تكتفى الكلاب بالنباح، وتصر على عضّ اللحم الحىّ؟

- هل النقد هو الاتهام والإعدام؟

- متى اختلف الملح مع السكّر؟

- كيف أعرف أننى نائم؟

- مَنْ أمرَ الناىَ ليذبحنى؟

* * *

لا تفتحى الشبّاك يا ابنتى، فقد وصل البحرُ إلى أعناق الغيم، ودَعينا ندخل غرفتنا الخشبية، لعلنا إن لم ندفع النوء نقيم سفينتنا النوحيّة، ونضع كل مجسّمات المخلوقات لكى لا تفنى.

سنطيش أياماً وشهوراً، ونسيرُ إلى الجبل العالى، فهناك يقول الطيرُ:

سآتى أحمل غُصن الزيتون، وأُخْبركم برحيل الماء.

وتذكّرى! ثمة مَنْ رفضَ الدعوةَ وأحبَّ الزُرقة حتى مات!

وأنا أُحب الفتاة التى تضع المحيط لونًا على أظافرها، وتبقى مثل زهرةٍ فى الأرض المدمّرة.

* * *

حبّة ليمونة خضراء تسقط على سقف الثلج فتفخته، وتسقط الليمونة إلى قعر البحر، فيصبح الماء أخضر مثل نيسان.

* * *

أيها الحوت الغلاّط الهائج فوق الموج، لا أحد يحتمل اتساعك ونفاذك الصاخب الهائل، ولن يرضوا عنك ما دمتَ بهذه الاندفاعة والقدرة والوضوح.

* * *

الذهبُ هنا ليل الريف الصيفيّ الذى يفيض بالزجل والعتابا وحلقات الدبكة ووهج النار والمشاريب الملوّنة وتلاويح الرجال.

وتكاد تلك السهرات تأخذنى كالمسحور المُجلَّل بالوهج إلى تلك الجموع المتحلّقة حول دائرة يتقافز فيها المغنّى العايق بدمايته السكّرية وحذائه الأبيض وحزامه الحريرى، فينغّم بالآوف والشروقى، أو يرهج بالمثمن والمقسوم والمربّع، أو يطفح بالدلعونة وظريف الطول وجفرا والبنيّات والمجوز، ويحدو كأنه إمامٌ يتعبّد فى محراب الفرح، ويصطف الحضور فى سحجة مطهمة بتوقيعاتها الممتلئة بالعرق والفتوّة التى ترنّق الأرض، أو بالشبابة والدبكة التى سينبع النبعُ من تحت أقدامها التى تصهد الأرض بحركاتها الحاسمة الثابتة، بدءاً من الشمالية وانتهاء بالسيارة والطيّارة.

وعلى المشارف المناديل والزغاريد والأمنيات التى تشق الليل فضاءاتٍ لليمام الأبيض والأحلام والغفوات! وفى اليوم التالى أتماهى فى الزفّة العابقة بالشَّرَر والكفوف والماء المتقاطر على الوجوه والأكتاف.

.. هكذا وجدنا أنفسنا، وقد ولدنا على تلك المصاطب المشتعلة بما أضاء دواخلنا وأصّل مداركنا، فكبرنا وفينا الأرض أغنيةٌ تفيض بالقيمة والمعنى والضمير والانتماء، غير أن أعراس هذه الأيام تحرق أيامنا الماضية، وتجعلها رماداً تذروه رياح العُرى والهزّ والرخاوة والخلاعة والتغريب والشكل الهجين الفادح القادم من عولمة الفيديو كليب والفضائيات المؤسفة، فى وقت يستلب فيه الاحتلالُ كل تراثنا وفلكلورنا من ملابس وأدوات وأكلات وأغنيات ورقصات، ويدّعى أنها من اجتراحه، وأنه صاحبها، فيمارسها ويبعثها، ويعمّمها فى الدنيا على اعتبار أنها مُلْكه وفلكلوره وتراثه!!

إن ثقافة «المسخ» هى التى تكوّن أجيالنا الطالعة، وستكون لدينا أجيال بلا ذاكرة! وحتى هذه اللحظة، بعد أربعين عاماً من الثورة أو يزيد، وبعد أربعة عشر عاماً من السُّلطة، لا توجد لدينا مؤسسة رسميّة لتأصيل تاريخنا الثقافى أو الوطنى أو السياسى، ولا توجد لدينا دار وطنية للنشر والتوزيع، ولا توجد فرقة قومية للتراث أو

الفلكلور، ولا متحف، ولا فرقة موسيقية، ولا كونسرفتوار أو معهد، ولا يوجد فى مناهجنا المدرسية أو مساقاتنا الجامعية ما ينهض بكل حمولاتنا التراثية ومكوّنات شخصيتنا الوطنية المهددة بالإلغاء والتذويب.. حتى تتبلور لدينا رواية فلسطينية تردّ على غوائل رواية الاحتلال عن نفسه وعنّا ومزاعمها وافتراءاتها!!

ما معنى هذا؟

* * *

لا أعراس فى القدس؛ لا دفّ ينفض معه الحمامُ حباتِ الماس عن جناحيه، ولا كمنجة تذبح الدوريّ على السور، ولا عود يروى عروق الحجارة فى الطرقات، ولا غيم على الفتيات يدفّ بأذياله الناصعة الطاهرة، ولا إكليل سوسن أو قرنفل، ولا بُحة رجال يمسكون بذراع العريس، ويدفعونه إلى الحوش النابض بالنسوة واللّوج والخمار الأبيض الذى تشف تحته شمس الليل، وهم يُصلّون ويسلّمون على الحبيب المصطفى- صلى الله عليه وسلم-. لا صينية حنّاء وشموع، ولا جلوة ولا غلالات أو طيب أو أعواد بخور فى المجامر، ولا زينة تتعلق بالدوالى والأقواس، ولا حلوى على أكتاف السناسل، ولا شراب مذابًا بِسُكّر التوت الغامق، ولا ملبّس ولا حافلات ولا أطفال ملفّعين بأزياء الكبار، ولا فساتين جديدة للعمات والخالات، ولا نقوط ولا حقائب ولا دمع الانتقال من دار العذرية إلى بهو الزوج أو الأب الجديد، ولا صخب الغداء، أو امتلاء الأزقّة بالضيوف.

لا أعراس فى القدس منذ وقعت «أوسلو» مثل كوكب الخراب على أرض المدينة، فأغلقتها ونشّفت عروقها وعزلتها عن الحياة، وأقامت حولها أسوار الفصل العنصرى والإغلاق.

لا أعراس فى القدس الأرملة الثاكلة اليتيمة النائحة الجائحة المفجوعة أُم الحسرات ونبع الدمع والأحزان والآلام، لا أعراس لأبناء هذه السيدة إلاّ خارج أسوارها، حتى يتمكّن أقارب العروس أو العريس من سكان الضفة الغربية، الذين لا يحملون «هوية القدس»، ولا يستطيعون دخولها، من المشاركة فى فرح ابنهم أو ابنتهم،

فيقيمون الأعراس فى بلدات شرقى القدس: العيزرية أو أبو ديس أو فى بلدات شمالى القدس: الرام أو ضاحية البريد. وإذا كان أهل العريس من الطبقة المستريحة فربما يقيمون الفرح فى بيت لحم أو أريحا أو رام ألله، وعندها يكون العُرس فى هذه المدن، وتكون العتمة والصمت فى القدس الحزينة.

* * *

الذَّهَبُ هنا هذيان، وحمّى صيف، والميداليا المحفورة بالمخرز والبلّور، والكتف المسود بأمشاط الكبت المفزوعة! والذهَبُ ما عَلق من الندى على التاج، وما خرج على المسمار من أخمص المصلوب، وهو منسأة الملك النائم.. الضاحك على الجان، ودخانه المحشوّ فى القماقم، وما تراءى فى الخواتم، والذَّهَبُ ما تخثّر فى الرحم من الريق، وتمدد فى الإبريق، وهو ما اعتصرته الشغوفة من لباء صعب، وخدّرها فى ذروة السقوط العالى، والذَّهَبُ فمُ سُلاف وأعراف الفَرَس وريح الكمثرى فى الطفولة، والذهَبُ ما وصلتُ إليه، ولم أصل كالمشى على شاطئ المحيط، والذهَبُ لعابُ البراكين، وعين الأفعى، وشايُ النار فى الجبل، والشنّارُ الدارج على بساط الربيع، وشبّابةُ القطيع، والذَّهَبُ ما لم أصل إليه.. ولن أصل!

* * *

تكاد غُنّة الحجل أن تنقرض، فالأسلاك تشوّش شبوب الميجنا وغرغرة النرجس وانخطاف الحَبّة المأنوسة، بل صار الطير خائفًا فى ملكوته، وسُلطانة قوس قزح دون عش فى سماء تتقادح بالأباتشى والجنود.

والوارف الخرنوبى فى صهد القتاد يريدونه خائرًا دون معازفه، لكن خوابيه المعتّقة فوحان أبيض، والموسم على الأبواب، رغم السفود والكىّ والصيحات.

* * *

الشراب المزوج بالتوابل اللاذعة له نكهة العانة المُثارة بحريف الأمنية المستحيلة.

* * *

الساحرُ الذى سكب عمله الخبيث فى بئر ماء البلدة أنسى الناس حكايتهم الأثيرة، وصارت حروفُهم لغةً للعار واللعنة!

البرقُ الذى ضرب الناحية، ليلة البارحة، كان يافعًا وباهرًا، وقد جعل التمثال ينكث بوعده، ويفشى أسرار ما رأى!

* * *

المزمارُ هواءٌ نبيذىّ يضمّخ روحَ الحصان وأعوادَ القصب، ويشرّع بوابات الوجدان للسّحر والتفتّح والخَدَر، والمزمارُ ابن الآلهة الأثير، الذى أحبّ أنْ يظلّ سابحًا فى الأوردة، عابقًا فى الرأس، حتى الوسن والشرود والغياب. ومع المزمار يبدو كل شىء مطهمًا، وذاهبًا إلى الامتلاء والصعود والتمدّد والإشراق.. إلاّ منْ كان قلبه فارغًا أو كان ميتًا!

* * *

يرى فيما يرى النائم أنها تنشب أصابعَها فى ظهره، وتحكّ ساقيها بساقيه، وتلعق بطنَه، وتقرص حلمتيه، وتشرب الرجلَ المشرئب.. حتى الانكماش!

وعندما يصحو يجد آثار كل ذلك على بدنه؛ الخدوشَ والاحمرارَ واللّعابَ الذى جفّ والتصق.

* * *

كنا نتّجه غربًا، بعد دقائق سنصل إلى قلقيلية، مدينتى التى خسرت كل أراضيها فى النكبة الأولى العام ١٩٤٨ حيث سلخوا أكثر من عشرة آلاف دونم من خيرة أراضيها، وفى النكبة الثانية بعد «أوسلو» العام ١٩٩٣، حيث ضرب سور الفصل

العنصرى طوقًا حولها فجرّدها مما تبقى من بياراتها ومزارعها، فأصبحت قلقيلية دائرة جرداء إلا من البيوت، محكمة الإغلاق، لها فتحة واحدة بعرض خمسة عشر مترًا، يقف عندها الجنود الذين يفتشون النملة والغيمة، أو يكملون الإغلاق فتختنق المدينة أيامًا وشهورًا، باعتبارها سجنًا يضم أكثر من خمسين ألف معتقل هم سكان تلك «القنينة»!

وصلنا إلى الفتحة.. أو المدخل الوحيد اليتيم الشرقى، فرأينا سربًا طويلاً من المركبات تنتظر التفتيش البطىء! فانتظرنا، وكنُّا نتقدّم كالسلحفاة، وبعد ساعتين جاءنا الدور!

كانت ساحرةٌ واحدةٌ وحيدةٌ تجلس على كرسىٍّ خشبىّ بلباسها العسكرى، وتضع ساقًا على ساق، ثم كانت تشير بحركة من قدمها إلى المركبة لتتقدّم! وبحركةٍ أخرى من يدها لينزل الركاب، ويدورون أمامها دورةً كاملةً وهم يرفعون قمصانهم عن بطونهم، ثم يتقدّم كل واحد، ويفرد بطاقة هويته أو أوراقه الثبوتية أمامها، وهى تنظر فقط وتومئ، ثم تهزّ رأسها، ليعودوا إلى المركبة، وبحركةٍ من قدمها تأمر السائق لينطلق!

وجاء دورنا، كنتُ أنا وصديقى نضال، فرفضنا إشاراتها، وقلنا لها بلغة واضحة: نحن لا نفهم ما تقصدين بحركاتك؟ إذا أردتِ النظر فى الأوراق فتعالَىْ وانظرى، لكنها لم تتحرك، فأطفأنا محرك السيارة وبقينا داخلها! وبعد ثوانٍ كان أكثر من مئة جندى قد وصلوا، وفى أقل من دقيقة كنا على وجوهنا مبطوحين ومقيّدين، ومجرورين إلى مبنى الارتباط العسكرى القريب، وهنا لا ينفع إحصاء الركلات والهراوات والصفعات والشتائم!

بعد ثلاث ساعات جاء الضابط، وقال: من حسن حظكم أننا لم نعثر على شىء فى سيارتكم التى اضطررنا أن نكسّرها لأغراض التفتيش، ومن حسن حظكم أننا لم نجد فى ملفاتكم شيئًا! ثم سألنى: ماذا تعمل؟ فقلت: وكيل وزارة! قال: أعرف، ولكن لو جاء وزيركم أو رئيس الوزراء «تبعكم» فهل سيقف ويتفتش أم لا؟

قلت: ينبغى ألا يتفتش! فضحك الضابط، فضحك الجنود، وضحك السور، وضحكت الأسلاك، وضحك الباب، فضحكت البنادق، وقهقهوا بصوتٍ عالٍ مخيف، وجاء السحرة والموتى وضحكوا، ثم راحوا يقهقهون، ويشيرون إلىّ، ويقهقهون، ويضربون كفًا بكف، ويضحكون!

* * *

ذات الزواق الكحلى، التى حفّوا نهدها، والمرتمية على السرير الأحمر، ينقط منها اللعاب.. وهو طاعن فى الشرود، لا يعرف إن كان قد بدأ أم انتهى!

* * *

شجرة تحترق، تحتها امرأةٌ عارية، يتمطّى فوقها رجلٌ عارٍ يَرهَز!

والغرابُ على شجرة مقابلة!

* * *

تتدلى من السماء مربوطًا بأخمص قدميك، وتحتك صحنُ جمرٍ بحجم المدينة، يتوهّج! تجفّ، تحترق، تتفحّم، تترمّد، تذروك الرياح.. دون أن تشكّل أثرًا فوق الجمر.

* * *

«فارينيا» لحم وردىّ ورحم خَصْبة، هى امرأة الثائر اسبارتاكوس، كانت حاملاً لحظة هجوم «كراسوس» بجيش روما على الثائرين، فقالت حينها لاسبارتاكوس: علينا أن نهرب ونهجر العبيدَ، لأننا مخوّلان للحياة، وإن قُتلتَ، فلن يحظى ابننا بالعزاء.. فقال لها: وهل سيحظى بشىء أكثر من الشرف؟!.

[كان كراسوس يخال نفسه روما!]

لما قُتل اسبارتاكوس مع معظم قادته، استطاع كراسوس أن يأسِر أكثر من ستة آلاف من العبيد الثائرين، فأمر بصلْبهم كلّهم.. فقطع جيشُه كلَ الشجر، فصارت الأرضُ جرداء.. من موقع المعركة وصولاً إلى روما، وعلّقهم على الجذوع! فقال

«أغريبا» الذى استيقظ ضميره بعد هذا المشهد المخيف، وقبل أن ينتحر: لقد قاتل العبيدُ من أجل حريّتهم وشرف نسائهم، أما روما فقد قاتلت من أجل السوط والصليب، وأضاف: إن التمدّن والحرية معلقان على الصليب، والجثّة المصلوبة هى جثة روما!.
[لم يشأ كراسوس أن يُقاسمه أحدٌ من قادة روما مَجْدَ المذبحة]

فى إحدى معارك العبيد مع روما، غنموا حصاناً أبيض، قدّموه هدية لقائدهم اسبارتاكوس، قائلين له: إن هذا الحصان يليق بملك!

فأطلق اسبارتاكوس سراح الحصان، وقال: أنا أفضلُ من مَلك.. أنا رجلٌ حُرّ!

* * *

يعتبر «الفندلاوى» الأب الروحى، والنموذج الأول للشيخ السعدى ولأدهم الشرقاوى ولعمر المختار وللقسّام.

والفندلاوى وريث الصحابة الشيوخ الذين انذبحوا وهم فى حمأة العجيج والصهيل واحتدام السيوف. وهو واحد من أسماء الشهادة والشهامة والبطولة العبقرية.

والفندلاوى قصّة الحكواتى الشاميّ المحاط بالياسمين والماء والجمر والنارنج؛ تلك القصة التى تعيد لدمشق بساتين الشقائق ودَفق العندم واندفاعة الجُلّنار.

الفندلاوى الشيخ ابن الواحد وسبعين عاماً، الذى يعتبر حامى الشام ومحاميها، يقول: لقد عرضتُ نفسى للبيع فاشترانى الله عز وجل.

والقصة من أوّلها: أن لويس السابع ملك فرنسا الصليبى الذى حمل على بلادنا مع منتصف القرن الثانى عشر، وصل إلى أسوار دمشق، وكان أتى ليعيد «الرّها» إلى عصمة الفرنجة، بعد أن حرّرها زنكى!

ولم يكن أمام أهل المدينة إلاّ أن يدافعوا عنها.. فخرج الفندلاوى إليهم، مشكّلاً بسيفه ودرْعه، بعد أن شحذ همم الناس فخرجوا إلى الغوطة والحقول، والتحموا بجيش لويس السابع المدجّج الكبير.. فتواصلت الملاحم وتجندل الأبطال ومشى الدم إلى قلب

الأرض.. وسقط الفندلاوى شهيداً.. قبل أن تصل إمدادات نور الدين بن زنكيّ من حلب إلى الشام. كانت دمشق عروسًا، ولم يكن العريس عقيمًا، بل معطاءً، وكان موته مُجديًا.. ومروّعًا! كان مجد الفرنجة باطلاً، وروحهم ضائعة لم تحتل بهجة النهر وشبابيك الأبيض الفوّاح، مثلما كان تعطّش الصليبى الوحشى للدم لا يروى.

لقد ظنَّ الفرنجة أنهم بحملاتهم المسعورة العقائدية الحاقدة سينشرون الخوف والكآبة والهزيمة، وسيجعلون دمشق نَعْشًا يسمّمون أهلها بالرعب والانكسار، لكنها الشام والفندلاوى الذى قارع الوحش، وأقسم على أن يقتله حيث يكون ويتنفّس!

إن سيف الفندلاوى الشامى هو نَصْل أسطورى يليق بالشام وبرجالها الذين لا يملكون إلاّ قصّتهم العالية.. المليئة بالمجد والياسمين القانى والحريّة.

وكأنى بالفندلاوى يقول: لقد جعلناهم يرتجفون! وكأنى أقول: مَنْ غير الشهداء يستطيع قول ذلك؟ وبالمناسبة، فإن الحجّاج المسيحيين كانوا يأتون إلى بلادنا، وبالذات إلى القدس، قلب بلاد الشام، ليترسموا خطوات سيدنا المسيح – عليه السلام – فى طريق الآلام؛ وكانوا يُقْسمون على العفّة والطاعة والزُّهد! وفى الحقيقة كانوا يأتون وعلى جنباتهم الخناجر، وفى قلوبهم الليل والاضطهاد.

باختصار: إن ما حدث للفندلاوى ما هو إلاّ قَدَرٌ جيد لرجلٍ حُرّ!

* * *

تُذكّرنى إبرة الوشم بأول مرّة أُساق فيها إلى المعتقل، كان السرير الأبيض طائشًا فى الغيم، والفتاة تركض تتلفّت خلفها هربًا من ذى النابين والدم المتساقط على الذراع.

توقّف الكابوس، ولمّا أخذونى ثانية ورابعة وعاشرة... كنتُ لا أنام حتى يغلبنى النعاس أو التعب، لكن كفِّى اليمنى كانت تمسك بذراعى اليسرى، وثمة خيالات وصدى يقلقنى.

* * *

الذهبُ هنا ضجيجٌ؛ يعنى أنه ليس سرابًا أو خيالاً، وهو انقباضات الولادة، وحضور السامرىّ الصالح. والذهبُ هنا الخوفُ الذى يؤمّن كل رغبات المرء، أو الحُزن الذى هو نواة كل شىء. والذهبُ هو مَلاك الموت قبل أن تصبح لعبته مقيتةً، إذْ وُلدَ بنِيّة أن يكون ليبعثَ الفرح. والذهبُ هنا ندائى لتلك المرأة التى يبكينى جَمالُها، فأصرخُ:

فجِّرى قلبى أيتها الوثنية!

* * *

الجواميس عندما تهرم تفقد قرونها، وتسير بتهدّل وتعب! على بعضها آثار وندوب معاركها فيما بينها، وعلى بعضها ملامح الرغَد الذى كان. لكننى أحبّ من الجواميس التى ظلّ على جلودها رائحة الضوارى والكواسر التى طمعت فى لحومها فرفضت!

* * *

ولدتُ فى الحقل، ذات ربيع شمسى، ولما قامت أمّى لتجفّف مشيمتها، كان عمرى قرابة السبعين عاما، وراحت ترضعنى لباء الفرس ونسغ الغابات وعرق الينابيع وعسل الصخور، ومسحت جسدى بزيت طفاح لاذع، ولفّتنى بموجة شالها المزركش بالزهور وعروق الدوالى والأرجوان، فأقاموا لميلادى ليالى الفرح وموائد الزاد، فشربتُ الأغانى من فم النايات ورعاة النغم المذبوح بالرمش والعطش، وكان المكانُ فاتنًا الى حد الخوف. وأصبحتُ كهلاً، وما إن دخلت المدرسة حتى اجتاحوا البلدة، وكان أبى الشاب يحمل جناده وبندقيته، ليحمى الزرع والقمر والضفائر، فسجنوه وقتلوه، وشردوا البلدة، وصار دم الحوامل ياقوتًا يرهج بحمرته الساخنة فى الطرقات.. وأضحيتُ شابًا، وبحثتُ عن ذاتى بضع سنين، حتى وجدتها فى الخيام والأحلام والحنين الجارف، وبدأ النشيد.

* * *

الذهبُ هنا قلب النجاشيّ، وصورةُ أمِّنا الحميراء، ودمُ بَدْر، وشرايينُ حمزة على الرمح، وريقُ الحسين ونَحْرُه الشريف، ولهبُ المنجنيق وهو يضيء وجهَ الفاتح، والذهَبُ احمرارُ أجفان الناصر صلاح الدين، وشمعةُ عكا المحاطةُ بالموت، والذهبُ حزامُ الكرامة، وبقايا مَنْ ظلّوا فى قلعة شقيف، أو أضاء بشظاياه مقاهى الشاطئ، والذهَبُ حرفُ نفى المحاصر، وكرسىّ الشيخ الشهيد، وحزام المختار، والذهبُ عِراقُ الدنيا وهى تغرق فى التيه الإثنىّ والسبىِ المعطوب واختلافِ الصلاة! والذهبُ بَرْقُنا، واجبُ الوجود، المختزنُ فى الغيمةِ السوداء.

* * *

تدخل الزنزانة خائفًا مرتعداً مرتبكًا، تحاول أن تجمع ذاتك، وتندس فى العتمة زائغًا، تكاد تتكوم انهياراً، وشيئًا فشيئًا تتّضح الجدران، فترى كلماتٍ حفَرها المعتقلون بأظفارهم، أو كتبوها بدمائهم، تتملاها، وتقرأها ألف مرّة، وتراها ملء العينين تطير وتدخل قلبك، وتنطبع هناك فى سويداء الوجدان، فتتماسك وتنهض مثل حصان أسطورى، وتدق برمانةِ كفِّك كلَّ الأبواب الصلدة، وتنفر دماؤك، وتخطّ بإصبعك المغموسِ النهايةَ المُتَوقَّعة.

* * *

والذهبُ هنا صوتُ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد الذى يُرينا أرواحنا وهى تخفق، وطموحُ المتبنى العميق المحطوم وأناه الواثقة، ورذاذُ فيروز الذى يُجلِّل زجاج البيوت وصخور البحر، وحنجرةُ أم كلثوم وهى تصبّ النيل فى كل فجٍّ وواد، وريشةُ حنظلة والسواطيرُ تفرمُ قلبَه المفتت، والفتى يحمل حجره البرىء ويعترض المجنزرة، والشاعرُ الذى يُرمّمنا من جديدٍ، ونفرحُ به فرحًا تاريخيًا، ونغبطُ أنفسَنا أننا نعيش فى عصرِ هذا المتبصِّر المختلفَ. والذهبُ هنا هذا الخارجُ من جلسةِ قلبِه.. المتوحّدُ بعيدًا وسط الحضور! يبدو آدميًا، ويتراءى للناس نمرًا! تراه خاشعًا على مشهدٍ من أنابيسِ المعبدِ وعاموده! وتلحظه نوّاسيًا يحفرُ فقحةَ الزهرة الصغيرة، أو تلمحُه تمثالاً راكعًا متأملاً فى أُمّهِ التراب.

كأنّه امرأة تلفُّ أيديها حولَ عُشّاقِها الفتيان، وتسحب شرايينهم بأيديها الكثيرة، ثم ملّت اللعبة فتجمّدت إلهةً صامتة. وقيلَ هو الذى سرقَ النارَ، وَلاكَ الطيرُ كبدَه. وقيل هو الحلمُ الكبير الذى ندور فى فلكه، غيرَ أن رأسَه المُتعبة ستلقينا مثل ندم الخيانة فى النسيان. وقيل هو الكوبرا التى ظلّلت النبىَّ الأمير، ولمّا نجا أحبّت أن تُهدى قوامها للنساء.

وقيل هو المتخلع الذى لن يتوب ما دامت الأمطار المسحورة تتكوّر كشحًا يعوى. وقيل هو الواقف تحت الشمس الناغرة شاخصًا فى يوم القيامة. وقيل هو اليتيم الذى قدَّ أضلاعَه كَمَنْجَةً مذبوحةً تحت شبابيك الياسمين. وقيل هو ما وجدوه فى قعر الكأس المقدسة فى ذلك الكهف المغلق منذ الخليقة، فاختلفوا على ما فيه، فمنهم من رآه سُلافة، ومنهم مَنْ تبيّنه ندى السماء الأول، ومنهم مَنْ قال: هذا عَرَق الروح، وآخرُهم قال: هذا دمع الشهوة أو الاختلاج أو الحنين إلى كل شىء. وما زالوا يجهلونه، أو يتجاهلون شخصه.

غاب فلم يفطنوه! وعاد فلم يحتفوا به.

واتهموه بكل الرذائل والسقطات. وحينما صاح قالوا: هذا صوتنا المنهوب. وعندما صمت فَرَدوا له النطع الواسع.

ولمّا سافر جرّدوه من حبق أُمّه البعيد. وحَضَر، فلم يحضروا، كانوا يُعدّون له المشنقة.

طلع من دَحْله الضيّق- كان مغشيًا عليه من ريح حامضهم النافث- فوجدهم يُدبّجون له مديحَ الغياب.

وعندما أيقنوا أنه حىٌّ وله عُمرُ نوح، احتشدت صدورُهم وانفجرت، وماتوا غيظًا. وظلّت المشنقة تتأرجح دون جسدٍ يتدلّى، غيرَ أنى أرى مجموعةً جديدةً تهتف لغريب جديد، وكانوا فرحين، فقد تأكدوا أنَّ غايتَهم حاضرة.

* * *

والذهبُ هنا الأنثى عندما ترقص، فتلد لغاتٍ جديدة! فإنْ زَلْزَلَتْ صَدْرَها قدّمتْ أسماءَ الزئبق ورؤوسَ السباع، وإن أدارتْ كشحها كشفت عن الوعول الرامحة فيه، وإن أمالتْ قَدّها ذهبت بقطيع الخيول من السهل إلى الأعالى، وإن لابَ شَعرُها تكون النوارس قد مخرت سواحل الريح، وإن مرْوَحَت ذراعيها تفحُّ الأفاعى الأليفةُ فى الضوء، وإن تثنّت تكونُ ألفَ فَرَسٍ بِكْرٍ قد نزلت النهر، فالرقصُ صلاةٌ.. وغوايةٌ.. وسحرٌ مفضوحٌ..

وعبادةٌ لبلوغ الكشف!

الموسيقى، كعادتها، جريئة، تقتحمُ الجدرانَ والشبابيكَ، وتختلطُ بدخانِ المبْخَرة، ويطقّ الجَمْرُ الفوّاحُ وينثرُ شررَه، فتتّقدُ عيونُ الرجل، ويظلّ الجسدُ البلوطيّ الأحمر الداكن يتلوّى كما شاءت له الأنغام. ويتوحش الدمُ، وتتّخذ قطراتُ العَرقِ مساربَ لها على القوامِ الأفعوانيِّ الأبنوسيِّ الغامق، وتسقط نقاطٌ شفافةٌ على البساط الناعم، وتنتفخُ شرايين الرجل، فيمدّ ذراعهُ لها فتجيئه رانخةً، والموسيقى تحملها إليه، فأمسكت بيده، وأقعتْ على ركبتيها، ومدّت رأسها إلى رأسه، وانطبق النبيذُ المحمومُ على الفراشةِ الثملة.

امرأةٌ من بلاد البلابل والقرنفل ورذاذ البراكين، أو نثارِ الحصادِ وأنفاسِ الأيْل، تأخذك إلى سلالم النيرانا، وتعطيك مفتاح قوس قزح، وقبل أن تُكملَ أناقتك، تكونُ قد غبتَ فى العروق المهجونية.

كانت عاريةً تمامًا، زنجيّة أو هندية حمراء خُلاسيّة، ممتلئة، معبّأة بطبول الغابات وأمطارها الساخنة، وكان يجلس متربعًا على الأرضِ مباشرةً، يحملُ صحنَ الذهبِ السائلِ الرجراج، فيغمسُ الفرشاةَ فى التّبرِ المُذاب حتى ترتوى، ثم يرسم على ساقيها وبَطنها، ويديرها بإشارة منه، ويخط على ظهرها وجوانبها، ويعود إلى قدميها أو إلى الكتفين.. إلى أن يفرغ الصّحنُ.

جسدٌ ساطعٌ بشمسه المفرودة البارقة، يقفُ مُعْتَدا بهيْبة الجَمال الباذخ الفتّان، وكَهْلٌ أنيقٌ أبيض بِمَبْذَلةِ الحريرى يجلس عند قدميها اللامعتين مأخوذًا بصعودها كَسُنُبُلةٍ تشقّ المدى.

لعلها وُلدت من رقصة السلمون مع الشلال، أو من قبائل «شينوك» أو «القدم السوداء» أو «لاكوتا» أو «بونى» أو «الكوشيين»، أو من أولئك الذين لم تعرف لغتهم ضمير الـ «أنا» بل «نحن» لأن حكايتهم التى تشبه حكاية امرأة سكبتها على مخدّة الصغار فى المخيم، ذات ليل بهيم، هى مِن ألفِ ألفِ حكايةٍ يستعيدونها من فم الدبّ، لأنهم يؤمنون أنَّ شعبًا بلا حكايات يشبه الريح بين حشائش الجواميس.

أطال التحديق، على ما يبدو، حتى جفّ اللحاء الذهبى، فصار يسّاقط عن جسدها كأوراق الخريف، وراحت ترقص بصخبٍ بعد أنْ أشعلت الأسطوانة، ودارتْ ولفّتْ وأقْعَتْ واهتزّت وقَفَزَتْ وترنّحتْ وذبلتْ وهاجتْ واستوَتْ، فكان الورق يسقط ليتفتّتَ تحت قدميها المتقافزتين، فيتكسّر حُبيباتٍ رمليةً صفراءَ متوهّجة، حتى جرَتْ مدامعُ العرق تغسل ما تبَقّى من نمشٍ ذهبىّ.

فى الحمّام كان الماء قد أزال آخر ذرةٍ عن جسدها. وعندما خرجتْ بِشَعْرها الفلفلىّ الرطب، كان إبطاها ينفثانِ عطرًا ذهبيًا، وثمة قطرةٌ تصوّح بضوئها بين فخذيها.

دخلت إلى غرفته، كان ممدودًا على فِراشِه الوثير، يسند رأسه إلى غير وسادة، وما إن رآها حتى ضرب كفًا بكف، وصرخَ بحسرةٍ نادمة!

لم تصل فرشاته إلى التفاحة المشقوحة بلونها الزهرى الباهت، وربما لم تصل إلى مخدع الملائكة تَحتَ إبطيْها.

غير أنَّ دمعةً ظلت مُعلقةً بين التّلتين النافرتين تتأرجح عكس اتجاه خطواتها،

فذهب نحوها، فراوغته، ولم يستطع أن يلعَقها، ومن يومِها ورأسه تهتزّ، ليس طربًا، وإنما ليمتصَّ الدمعةَ الهاربة.

* * *

كان نَفَسُك حولى مثلَ الندى! وأصابعك تخدّرنى! كان حُبّك أشبه بحلم، وهذا ما كان يفوتنى، والآن لدىّ ما أشتاق إليه.

حُبُّك ما أوقد القلب، ومنح عقلى السلام.

وحُبُّك ما أُواجه به الهزيمة.. التى تولِّد الهشاشة والحساسية والكراهية والخبل الانحلالى والنسيان، لأظلّ عمود معبدك الذى يحمل قبّتك الذهبية المُذهلة، ويذكر الوصايا.

* * *

عندما ينادى الغريب يصدعُ الصمتُ بالنداء، ويكرزُ الحنين فى الخشب، فتخضرُّ السلالم، وتبتلّ الخطوات بالندى، ويصير الوقت ودوداً.

وعندما ينادى القريب تجنح المذابح إلى شفراتها، لتشحذها من جديد، ويبدأ الهراء.

وعندما تنادى البكارة يكون العصفورُ قد شخب على المقصلة، وانطلق من جديد، لكنْ المقصلة تثلّمت، ودخلت فى بهاء العبودية المتوالد.

وعندما تنطفئ النار فإن دخانها يُعشى العيون.

وعندما ينادى الإحباط لتكون الكآبة، تفتح البيداء ساقيها لنورس البحر، فتحمل بالثلوج، ويبدأ الكرنال.

* * *

والذهبُ هنا اللايقين، والشك المهووس الذى لا يقرّ شيئًا، مهما حضر أو نفذ. فكل الحجج واهية! وثمة شىء ناقص فى هذه الدائرة المحكمة، فقد نكون وَهْمًا أو حلمًا هوائيًا يدور فى رأسٍ كبير! وقد نكون كوكبًا من ملايينِ الكواكب السابحة فى سديم العدم، هكذا، لعبةً لطفلِ الإله الذى انشغل عنا، ولا نصلح إلاّ لمزاجِ صغيرِهِ المدلَّل!

وقد نكون نملَ سليمانَ الآخر، ونحن ظلُّ مغارتهِ وخيالُها الناقص!

أما أن نكون بشراً زرعنا الله على هذا الكوكب لنعْمرَه، ولنجالدَ الشيطانَ الخنّاسَ الذى يشحن أهواءَنا ورغباتنا المحمومة، ويزينها، لنقترف الأشهى، فهذا ما يروق لى، فثمة حكمةٌ لم نصلها! والانتظار رهيبٌ.. جميل! وعمْر البراءة قصير!

* * *

يتكسّر الجبل مثل تفاحة بين أسنانها. ينسلّ الوادى بين قُبّرتين سابحتين. تنهضُ تلّتان على الكشح. النهرُ طفلٌ يضفضف فى الشفتين. الغابةُ تنسدلُ على أكتافها. الشوارعُ القديمة لخطواتها.

النارُ تختبئ فى الحشّ والجدول الرطب. النسيم طيب الشجر الذى لا ينتهى. التراب يتهيأ لوطأة الزلزال. العيون تزوغ مع هذا المخروط البركانى السادر فى الطبيعة.

* * *

الذَّهب هنا حكايات جدّتى، وأهلى فى الديوان، والناس فى الأسواق وأمام الدكاكين، هو ذهبٌ مُسَلٍّ ومُضْحك وبسيط، يريد أن يصل إلى حدّ الحكمة والمثل السائر، فيتكرر مثل ملابسهم عديمة الشكل، ولا يملّون، ويصبحون أحياناً ثقيلى الحروف، وتبدو القصة سمجة لا تُطاق! لكنه الفراغ والسذاجة وحُكْم العادة الجاهلة.

.. ولكن لا بأس، فهذا مشهدى الأثير، وهذا طيرى الذى ينقر حبّه ويطير.. بعد أن يقضى وطره فى الحياة بلا فلسفة أو أسئلة أو حَفْرٍ فى الممنوع أو الجنون. إنها جنّة أولى، لولا السأم والتوالد وهوامش الحاجة البائسة التى لم تحضر، فصبروا، وتوالت قصصهم البسيطة الساذجة!

* * *

للجنرال قرنا ثورٍ صلب، ينطح بهما ظهر الشيخ السبع المجروح، فتتناثر المهج وقطع النجيع من ظهره، فتصبح البسيطة سجادة ورد قانٍ، ويواصل الثور دكّات

المالعة، فيتوقف الشيخ، ويصعد بظهره، ويعبّ هواء الدنيا، ويرفع عصاه بيمينه، ويدقّها في الأرض غضباً وإعلاناً للخلاص، فتنغرز في التراب وتخضرّ، وتتفصّد براعم، وتكبر، وتهيج، وتصبح شجرة كونية، وتتوالد... حتى تغطي الغابةُ كل الأشياء.

* * *

عارية، كما ولدتها السماء، على حصان عارٍ يفيض بعرقه! وتتوازى خصلاتها المشدودة بالريح إلى الوراء بأعراف الحصان المشدودة بالريح إلى بطنها، والمشهد مشحون بطاقة الألوان الجامحة!

* * *

والذهبُ هنا هو ذهَبي، أنا الذي صغته من دمي ودمعي وابتسامتي، أو أنا الذي وجدته في كهف أرضي، بعدما أشار إليّ الساحر: إن ثمة ناراً في شتائك أيها الفتى الرائي! فانطلقتُ، وفتحتُ كوّةَ الصخر، وولجتُ، فسطع في عيني بريق الأكوام التي انثالت تلّةً من قطعٍ ترنّ، وهي في مكانها! وأشعلت ناري، واصطهدتْ حتى طقّ الحجر والقالب، وصنعتُ من الأشكال والهيئات ما استطعت، وذاب القمح المعدني الملهوب، وترقرق كدمع الأميرات، وانصبّ حتى استوى، وظلّ راكداً حتى بَرَد، فبرَّدتُه برمْشٍ ولسان، فتوهّج مثل كرة الحياة، وها هو بين يدي، لا أكاد أحصيه أو أعدّه، فأحثوه لأضعه في الطرقات والمفارق وعلى كل رفّ، فمَنْ شاء فليفتح سرجه ليمتلئ بهذا الرنّان، وليواصل طريقه، فالدرب طويل.

أحسّ بأنني الكوكب الملتهب الذي انفتق عن السماء وحلّت عليه المياه التي كانت محمولةً على متن الريح، فشهدتُ الغَمْر الأول الشامل الذي جلّلني بزرقته البريئة الطازجة. وها أنا ذا أقذف حممي المتفلتة من ثقل السائل الذي رفّت عليه الروح، وكان العرش العليّ على بساطه المهيب.

أخْرجُ، وأُطلّ برأسي لألتقي الغزالة اليانعة بدفئها السخيّ، وأفرد أطرافي الحجرية الراسخة، لتنبت عليها أشجار اللباء والطيور والزغب الحذرِ الحُر.

ولا شأن لى بحمأة البعيد المتفجّر، أو بالقريب المُستسلم.. الذى لا يملك من اختراقه غير الإزاحة الجبرية، لتفثأه النار، أو تزلزله الفراغات برقصة العربيد الكونى.

وها أنا ذا مطمئنٌ لقمّتى وسفوحى وشجرى المتوالد وأعشاشى وأوكار فرائى الآمنة. فماذا أريد بعد هذا؟ وأنا الذى أمتلك مخروط البركان الفلقان، وعجينة الغرين وحنّاء الطمى الأحلى. لا يرقى لذروتى غير نسغى، ولا ينمو على أكتافى غير ظل الظليل وخيال العقاب الأشوس.

فمالى ولهذه الوهاد المرنّقة بماء غيرها الآسن، أو بحجارة الهدم الزائدة، كأنها مكبٌّ لأظفار البهاء العالى؟ ومالى ولتلك المنبسطات التى يدحرجون على بطنها المستباح عجلاتِ فولاذهم الملهوف للوصول إلى أكاليل الغار.. كأنها قنطرة مكسورة تلقتها الأرض، لتكون محطّا للأخفاف وإيقاعات الذاهبين إلى شهوة التاريخ؟

أنا لست وادياً لأحمل دمع الغيم اليتيم أو أسمال من قدّمتهم الأكواخ إلى منتهاهم العاجل. ولستُ صخرة كبيرة للنبى الشاب الأثير أو لمعاقبة ابن الآلهة الضال. أنا ذلك الصعود النافر كجرَّة فلاحةٍ شابةٍ تمضى إلى نبعها الثر، أو سهمٍ رمى قلب الفراغ الكثيف فأصابه فاطمأن إلى هذا الرمش الحديدىّ، وأبقاه ليظل شاهداً على عشقٍ مبهَمٍ مستحيل.

أنا لعبةُ التراب الشاهق مع غبش السماء، أو حنينُ الأرض الأبدىُّ إلى أُمِّها التى انسلخت عنها لترقُّبَها وتعبدَها إلى أبد الداهرين.

فما لى وهذا الحراك الواطئ الملهوف إلى قشرة الثمرة التى أكلها الطير وطار؟ وما لى وهذا الرغاء الحاقد أو الساذج أو الراكض خلف الكيش بعد انتهاء مواسم الزيت والرعد؟

لهذا، ولغيره ممن يدركه العارفون الزاهدون والذين اكتووا بأوار اللحظة الساقطة كالمتاع، فإننى أعلن، فرحًا راسخًا مطمئنّا آمنًا بالله مؤمنًا به، انبتاتى عن بيوت

العنكبوت وحركات ابن آوى، وما تفعله الغولة فى البنت وقت العتمة، وانقطاعى دون رجعةٍ عن آثام النمائم من المحبّرين عن الكتبة والعاملين عند الأبواب، وقطع صلتى بالباحثين نهاراً عن شمسهم وهم مُصطلون! وإننى أعلن مدينة الآس وبلد النجم.. أنا ملكها وعبدها، ولن يدخلها إلا من أقال السوء نفسه أو التبعيّة أو الانبهار، ولنا النار والقلب وما يكتبون.

وهذا إعلان الخروج الحرّ الوجودىّ من المظلمة والاستلاب، واستنكارٌ ساخطٌ ضد من عبثوا فى الروح والمدارك، ولعنةٌ على من تعبوا وارتخوا واستسهلوا الزهر الذاوى.

وإنه بدايةٌ على هذه البسيطة لتشهدَ صوتًا آخر غيرَ الصدى المهزوم الذى يخيط أكفانه بيديه، وهو خريرُ الدمِ اليافع فى الأضلاع لتسديد عافية الفهد وأنفاس الندى وعناد الجلّنار، وإنه انبعاث من الانكسار والتشظّى والركونِ إلى الخواء الفاسد.

وهذا ميلادُ طائرِ الساحلِ الأسطورىّ.. الذى أضرم عزيمته وإصراره لينطلق من فضاءات البرارى والرياح، وهو صوتُ الأبد والبصيرة، وهيكلُ الحلم المحروس والحقوق الأولى، وهو قرارُ النصر قبل المعركة، وميدانُ الحياة لأبناء الموج والحصاد والأغانى الصعبة المجروحة بالمناديل أو الحنين الذابح.

* * *

رمل الأفعى
سيرة معتقل "أنصار ٣"
(كتسيعوت)
٢٠٠٠

سندخل هذا المحيط الرملى، دون أن نخشى الغرق. فالصحراء، رغم هوامها وأفاعيها، أكثر رحمةً من سمك القِرش البحرى، أو من حطم التماسيح الهائجة فى المستنقعات. وفى النهاية، فإن الصحراء أكثر دماثة وشفافية من البحر - رغم أنها أقل حياة منه - غير أن كلاً منهما له فتنته ومنطقه وأسراره، ولكل منهما مفاتيحه وأغانيه وغوائله.

ويبدو أننا ننتمى لثقافة الصحراء؛ فكم فغرنا أفواهنا أمام بأس فرسانها المُنصفين، وجنون شعرائها العذريين، وكم غفونا على حكاياها، وعمّتنا النخلة تظللنا بجدائلها الكبيرة، حتى كنا نرهب حمام الدار إذا بغم، ظنّا منا أن حدأة الحكاية هى تلك المستوحشة التى تهدل على شباك البيت. وربما وضعنا أيدينا الصغيرة فوق رؤوسنا، خوف أن تنقر الحدأة رؤوسَنا بمناقيرها الحاذقة.

سندخل هذه الصحراء التى يبدو أنها كانت مدنًا من نحاس نخّلتها الرياحُ وعويل الليالى، فانفرطت، واستوت رملاً... وها نحن نطأ الرمل، لكننى أسمعُ تهاليل الوالدات، وشخب الحليب اليانع، ومناداة بائع الفاكهة السمين، واعترافات النساء خلف ستار التوبة، والرهز فى بيت الأمير، وأنين حاملى الماء فى الأسواق... أسمع سقوط الكمثرى فى جدول البستان الكبير، ومنطقَ الطير، كأن العطّار النيسابورى أكمل أشعاره المتبتّلة هنا، بل هنا كان ابن القارح يدور على الشعراء من ضفّة الجنّة إلى ضفّة النار. وهنا حطّ الهدهدُ على باب سليمان، ورفعت بلقيسُ ذيلَ ثوبها خوف ماء الرخام، فانقشع البرّ وتلعثم الجان!

هنا، على هذه الصحراء استراح ذو القرنين، قبل أن يموت مخموراً بالنصر، وقتلوا لوركا دون أن تفترّ فَراشةُ القُبلة فى شفتيه، تلك التى وشمتها امرأةٌ هى كل الغجريات. وهنا حطّت سفينة نوح، وابتاعت نفرتيتى الإثمد لجفنيها، وسكبوا الحمامةَ لملكة النهرين سميراميس.

هنا تبلبل الخَلْق أول مرّة، وابتدأ مسمار الحضارة والكلام... وهنا نكمل، على أطلال الصدى، جبروت جدّنا عوج بن عناق، الذى كان يجلس، بالضبط هنا، فيمدّ ذراعه فى البحر المتوسط، ويمسك بالحوت، ويضعه فى عين الشمس، ويصطلى لذةً بالشواء.

* * *

ندخل إلى حضرة الصحراء، وما فتئت همومنا تشغلنا عن التبؤّر فيما حولنا، وإمعان النظر فى هذا الفضاء الجديد. ونواصل تأثيث المكان بما نمتلكه، بالترتيب والتحديد، والتشدّد فى النظافة... ونحتاج، على ما يبدو، إلى أيام حتى نكتشف حداثة أحاسيسنا، تجاه كل ما تقع عليه عيوننا. والغريب، ربما، وبعد بضعة أسابيع، أننا نتأقلم مع المكان، حتى ننسى من أين جئنا، ولماذا، وإلى متى... كأننا وُلدنا هنا، وخُلقنا هكذا، فجأةً، بالكيفيّة التى نحن عليها. ولا تحزّنا سكينُ الحقيقة إلاّ عندما نخلد للنوم أو لأنفسنا، أو عندما تقع حادثةٌ خارج السياق اليومى الرتيب.

كان ثمة جدارٌ سميك يلفّ المعتقل، من كل جنباته، يفصله عمّا وراءه، جدار لا يُرى، لكنه سدٌّ مانع، يحول بين الصحراء وما خلفها.

وهنا، فى مدينتنا المسوّرة المغلقة، يصبح النسيان نعمةً، تمنحنا القدرة على التجدّد والمثابرة والمضاء، وتصير الغفلةُ التى طابت لنا، وسعينا إليها، بلا وعى، ربما، أوقاتًا مريحة رحبة، طالما فككنا خلالها أثواب الضيق والاختناق، عن روحنا، فتنطلق من إسارها...

لعلها تتّحد مع نجمة تدفّ بفضّتها، وتنادى الروح، لتأخذها إلى بيتها... هناك، معها فى البعيد.

* * *

أين الرمل فى جسدى؟ ما دمتُ أعرف أن الماء والمعادن والتراب كلّها فيه. إذًا، أين الرمل؟

أنأى بالقلب ومصادر الحواس، معتقداً أنها من تراب خصب وماء.

فما الذى يبقى فى الجسد؟

يبقى الكثير، ولكن، ما هى القطعة التى ستعود رملاً بعد الموت؟

ربما العظام، لأنها أقرب ما تكون لهذه الذّرات الجافة التى لا تشرب الماء، وتصرّ على عطشها إلى أبد الداهرين، بل تكره أن تكون رحمًا ينشأ بينه الزرع أو الضرع.

هل يكره الرملُ الحياة والنماء؟ هل هو جماد عبثى، اكتشف مبكّرًا النهايات المُفزعة، فآثر التفرّد والوحدة، وعدم التعلّق بصاحب أو شبيه؟ وهل أقول إن جفافَهُ تعبير عن رغبة فى العزلة والابتعاد، وكراهية لكل ما يَنبت من البذور والجذور.. ولهذا يبتعد عنه المطرُ، يأسًا من طبيعته وإصراره على الضمور واليباس، مهما أغرقه فى غيثه، وبسط له من نور برقه؟

ألهذا السبب يخفّ حمل رمل الصحراء حين يغضب ربّ الرياح، فيصير جناحًا أسود من شواظ، يولول فى حمأة الظهيرة، ويحطّ حيث يبدأ الموت؟

ربّما، يصرّ الرمل على خديعة الإنسان، يبدو ناعمًا، يهفت تحت الأقدام، ساحرًا بثنياته اللامعة.. لكنه ماكر، يُخفى بئرًا عند كل خطوة.

والرمل ذاكرة مخيفة، يدفن فى طيّاته الكثير من الصهيل والنشيج والدماء والحسرات! وهو مساحات بلا أفق، تختزن الشمس والليل فى معطفه. يتسلل ويرسو بطرائقه الغامضة الخاصة، يحتلّ ويسيطر، ويهبّ عند كل خريف.

والرمل موج البرّ الذى يحدّ الأشياء، يجاور البحر، ويضع له حدّاً، ولا يشبهه. والرمل يبتهج بأمثاله من الصعاليك والعشاق المشروخين. لا يطرب لناى، ولا تبكيه ربابة. حياده قاسٍ مثل صبّاره وطيوره، وله ألوانه الذهبية المتماوجة، كأنها تجاعيد الأرض الهرمة، أو وجه الساحرة المتغضّن، التى ذهبت بعيداً فى العرق والخطايا.

ولا يفوز عليه إلا الصبور المُجْتَرّ أو الثعلب الحديد، عليه يُقام الخباء - كأنه يختبئ من القيظ والصلّ والهجير - ليهيّئ للظبية خدرها وعطر السوسن والسامر المجروح.

والرمل مزاجيّ متقلّب، يَملّ الثبات مثل صدر اللعوب، يشبه الكابوس وفسحة اليأس، أو كأنه وَهْمٌ من وَهْم، تمسكه فينثال من بين أصابعك كالماء الحُرّ، يساجل الواحات، ويتسع للثأر، وسخريته دائمة، تشعّ بالسراب.

لا وجه للرمل ولا فؤاد.

والرمل شاهد إثبات على تحوّل الكرة الأرضية، من مرحلة الغابة، إلى ما هى عليه الآن، من يباب وأخاديد عذاب. يدفن تحته قارّات من الأشجار والأعمار، اختزنها تحت أقدامه، حتى تخمّرت فأصبحت سائلاً هائلاً، يعيد تشكيل سطح الأرض من جديد.

الرمل، باختصار، مخادع، فقير ويائس. تَذرْذرَ لفرط وحدته، وجفاف ينبوع دموعه.. فَفَقَد الحياة.

وعلى رمل هذه الصحراء سنقدّ من عُمْرنا سنواتٍ ودموعًا وأحلام يقظة، وسنخرج من درّاعتها أكثر صلابة ووهجًا وقوة، كأنها مخرطة أخذت شوائب الشحم واللحم، وصبّت فينا الشمس والقمر والأغانى الصعبة. وسنرى الخيام، بعد عقد من الزمان، كأنها بقايا حلم خفيف، حطّت على أرض رخوة، ثم أخذها باشق عظيم تحت جناحيه، وألقاها فى النسيان.

وها نحن نتذكر، كل نأمةٍ ونشيدٍ وقيدٍ ولمعةِ جوعٍ وغضب، حتى يعلم القادمون كم كانت هذه الفلسطين مُبهظة ونفيسة، وكم كان الاحتلال خارجًا على كل الصفات والنواميس والضمائر..

وكم كان زماننا مشوّهًا.. وعبقريًا.

وعلى رمل هذه الصحراء، لن نرى إلاّ قوافل الحديد.

وسنتخيّل كيف أن قافلة، في المغيب، تمرّ أمامنا، فنراها مثل خيال عرائس الأراجوز، تتمايل وسطها الهوادج، ونسمع حُداءها من بعيد، وستقترب القافلة مع الشروق، وتمرق قرب السياج، فتظهر أثواب الجِمال وسروج الخيل الضامرة السريعة. وخلفها يخبّ العبيد والحرّاس بجسومهم المشوقة كأنها سهام من حديد، وسنرى الكلاب تهرّ خلف الخِفاف وحول الأظلاف، بعصبيتها وبحثها عن اللاّ شيء. وربما نتخيّل عصابة من فرسان الطوارق الملثمين، اتقاء هبوب الرمل على وجوههم، فيتوقفون حال رؤيتنا، ويعجبون لأننا مثل نسائهم، دون لثام! وربما نوقد ناراً وسط الساحة، دون حطب، ليَطرقنا أبناء السبيل، ونهمس لبعضنا حتى نتمّم واجب القِرى والمبيت. بل سيقوم شيخ منّا ويصعد بنظره إلى السماء الشاسعة المكشوفة، ويشير بعصاه إلى طرق الصحراء، الموصولة من نجمٍ إلى أخيه.. وقد نتقمّص أجدادنا البعيدين، الذين أتوا بنا من كوكبهم الرمليّ، وثاراتهم القبيحة، إلى سواحل بلاد الشام، وأبقوا جيبًا صحراويًا هو صحراء النقب، قريبًا من بيوتنا حتى لا ننسى جذرنا الأول؛ الجزيرة العربية.. لكننا، وفي كل الأحوال، سنرى حبّات الرمل المفككة، والمتفرّدة المنفصلة عن باقي الحبيبات، وسندرك خسارة هذا التفكك، ونعي حيوية أن نتماسك، وأن لا نشبه الرمل، بل نكون سبيكة ذهبية، عزيزة على التشظّي والانفراط.

* * *

اليوم، يكون قد مرّ على انفجارها العبقرى أكثر من اثنتى عشرة سنة، وها نحن نشهد، اليوم، ميلاد انتفاضة جديدة، اسمها انتفاضة الأقصى أو الاستقلال.. لا فرق. والشيء بالشيء يُذكر.

تلك انتفاضة كاملة!

كان الفهد خارجًا بكامل سخونته، من الغابة البكْر، يحمل قلب الريح، كأنه عاهل العاصفة، كان ريّانًا، مُشْبَعًا بغضب الأشجار التى ماتت واقفة، ولم تركع! وكان صمته قِطَعًا من غضب الليل الذى كَنَس البساطير الثقيلة من ليل المدن والقرى، وجعل يقظة

الخوف أبديةً فى حدقات الخونة والجنود.

تلك كانت انتفاضة. أما انتفاضة هذا العام فإنها سبعٌ روّضته البيوت، وأطلقته على الدخلاء. أما تلك فكانت فهداً بريّا، له أناقة البرق وإغواء الغزال.

هذه صوت الرأس، أما تلك فكانت شعلة الجسد كلّه.

تلك كانت زفّة واحدة أو جنازة واحدة، أو بالأحرى كانتا متداخلتينِ إلى درجة اختلاط الدمع بالحبق، وملوحة عرق الأعراف بعسل شهد الفرس.

تلك كانت صيحة إسرافيل الفلسطينى، الذى أيقظ الحجر والشجر والطير والينبوع، أما هذه فصحوة الجسد من خَدَر العملية الجراحية الفاشلة.

تلك كانت غيث كانون الواضح، أما هذه فهى تردد الغيمة فى عباءة العاصفة.

تلك كانت البداهة والبديهة، أما هذه فإنها صنعة الثوب الكنعانى المطرّز.

تلك كانت الدخول الحاسم إلى بهاء الموت برضا كامل، أما هذه فالحسابات تزاحم المشهد الذى يشدّك إلى أن تغسل الأرض، كل الأرض بوريدك الكريم.

تلك تاج المليحات، وأم الحكايات، وقصّة الراوى الذى لن تنتهى لياليه. أما هذه فهى مسرحية الكاتب المسلّح الناضج، الذى تقلّب على سفود الجمر، وما فتئت تأكل كبده ليل نهار.

تلك لحم التفاحة الأحلى، وليلة الدخلة التى لن ننسى لذعة القُرنفل فيها، أو حُرقة عجين ورقة الليمون، وصخب أغنيات الأهل الفرحين، أما هذه فهى زواج الوردة للمدى الدامى، فى فضاء قاعة المدعوين والشهود.

تلك شهوة الزيت، وانفعال الشفتين، ورضا الزوجات عن الغياب الملىء بالدوالى والرسوخ. أما هذه فإنها البهجة بالموت العالى، والفجيعة باللوعة المجانيّة.. أحيانًا.

وتلك مقابسات ليالى القبر التى أشرقت بالجنين الرسولى، أما هذه فهى نهضةٌ

الفتى لتكتمل دروسه، وتصحو مداركه.

* * *

يغيب الآن الموسم كله، بإرهاصاته، وحلقاته وأسواقه وتجمعاته!

وتحضر هندسة الحرب، لتبعدنا أكثر عن فِطرة ما كان فى ذلك الموسم من حالات وحكايات. كأن الناس كانوا فى موسم قطف الزيتون، أو بناء معبد كبير، أو كأنما يريدون تحويل نهر عظيم عن مجراه، أو إزاحة البحر إلى الوراء.. لهذا لم يتأخّر أحد! كان الرجال أطفالاً وشباناً وشيوخاً فى الحقل أو البرّ، وكانت النساء يكملن أعمالهن فى البيت دون توقّف!

ولعل التاريخ لم يشهد حالة انشغال دائبة مثل التى كانت، أيام تلك الانتفاضة الكبرى - ولا أقول الأولى - هذه الانتفاضة قيّدت الكثير من الناس، واقتصر فعلها على جيل محدد، يتمتع بلياقة رمى الحجارة واستعمال المقلاع، أو على المُدَرّبين جيداً على استخدام السلاح والرشاشات، ما جعل الكثيرين، وبالتحديد القاطنون فى المدن المحررة «المناطق أ»، يبحثون عن دور مباشر لهم فى هذه الانتفاضة، فلا يجدونه! مما جعل الكثيرين يرزحون تحت وطأة ضميرهم وسؤاله القاسى الممضّ، وهم يرون الشبان الصغار يبتلعون أدوارهم، ويتربعون على عرش المشهد السخىّ الجرىء.

كما أن المرأة تراجع دورها كثيراً، ولم تهيئ لها هذه الانتفاضة ذلك الدور الواسع العملاق الذى وفّرته لها تلك الانتفاضة التى انفجرت أواخر العام ١٩٨٧، حيث حلّت المرأة مكان زوجها الذى اعتقلوه، فأصبحت أمّاً وأباً، وعمّق حضورها ذلك الدور الاجتماعى المشرّف الذى ظهر فى تشييع الجنازات التى طالما انتهت باشتباك طاحن مع جنود الاحتلال، وفى عيادة الجرحى، ومواساة العائلات الثكلى، وزراعة المساكب والخضراوات، وتطوير الاقتصاد البيتى.. ولم نسمع أحداً يسأل عن مصير أُسرته، وهو فى أسداف الزنازين، أو فى عين المتراس الحمراء.. ولم يخلع الناس - آنذاك -

التطهريّة التى تليق بالأولياء والفلاحين البعيدين.. ولم يسقط رجل فى إغراء المقارنة بين الطبقة المستريحة الحريرية، التى تشكلت فى السنوات الأخيرة، وبين أحوال الدهماء أو الرعاع -هكذا يسميهم البعض-، وينظر إليهم على أنهم ليسوا أكثر من حطب، يصلح للاشتعال تحت طنجرة السياسة حتى تنضج، وبالتالى لا يأكل منها إلاّ الطبّاخون المعلمون، أو المَهَرة.

وفى تلك الأيام، كان الانضباط أعلى، فى السنوات الثلاث الأولى، وكان جدار الانتفاضة صلبًا، لم تخترقه الأصابع الخفية المدسوسة، أو الشائعات السوداء. وكان الاستنفار كاملاً، ولهفة الناس حاسمة، حيث نكشوا حواكير بيوتهم وزرعوها، ورموا المنتجات الإسرائيلية، وكانوا أكثر قناعة بالتقشف الحقيقى الذى فاق زهد الرهبان فى الجبال الجرداء، ولم تكن -حينها- تلك المجموعة التى تدبّ الآن بين الناس، تشدّها مصلحتها - بصفتها كمبرادور يستورد البضائع الإسرائيلية، أو وكلاء لكبرى شركات الدولة العبرية- أو يدفعها طموحها الأجوف -بصفتها، كما ترى نفسها، مؤهلة لوراثة الحكم، أو من أولى الأمر الذين يجب أن يصنعوا القرارات المصيرية للشعب والقضية-.

وفى تلك السنوات، كانت عبقرية الانتفاضة تتمثل فى تحييد أسلحة الاحتلال الثقيلة، باعتمادها على الحجر والمولوتوف، كما تتمثل - أيضًا - بالالتزام الحديدى والدقيق بالقرارات التى كانت تصدرها القيادة الوطنية الموحدة عبر بياناتها آنذاك. أيام الانتفاضة الكبرى كان لها لون واحد هو الأبيض الذى يسعى للانتصار على الأسود بكل مكوناته ومصادره. ولم يدخل الرماد إلاّ بعد ثلاث سنوات أو أكثر، من بدء ذلك الانفجار العبقرى الواسع والعميق.

فى تلك الأيام، كانت روح الجندى المجهول تمور فى ضلوع كل الناس، فكان التكاتف والتكامل والتكافل قد وصل إلى أقصى صوره ودرجاته، إلى حدّ أستطيع أن أقول، دون مبالغة: إن المليونين ونصف المليون فلسطينى فى الضفة والقطاع كانوا أُسرة واحدة، فالأب للجميع، والأم والدة كل الأبناء والبنات، والأولاد أشقاء نزلوا من

مجرى واحد وعسيلة واحدة، يتشابهون إلى حدّ التوأمة، ويتسامحون إلى أن أصبح الإيثار لغة منحوتة، لا يغلبها قولٌ مشبوه أو صراخ حاسد.

تلك الانتفاضة غسلت الجسد الواحد، من كل أدرانه وشوائبه، بعد أن صهرته في مرجل هائل، وسكبته لامعًا مضيئًا، لا طريق له إلا الأمام، بعد أن أحرقت، هنا وهناك، تلك الجيوب المعيبة؛ سواء أكانت بؤرة للمخدرات، أم السقوط الأخلاقي، أم علبة لليل القاصف، أم بقعة كريهة متصلة بالاحتلال، أم الشقاوة المريبة.

تلك كانت التاج الذى أكمل حجارته المسحورة، والعُرسَ الذى اكتمل إلى حدّ المعجزة، والحجر الخرافى الذى حكّ هواء الفولاذ، فدبّت النار فى هشيم الدنيا، وفهقت السماء بنجومها، فغاب الليلُ.. إلاّ قليلاً.. بانتظار الشروق الكبير.

* * *

لقد فطن البعض إلى أن تلك الانتفاضة ستقلب موازين المنطقة الكبيرة، فاتفقوا فيما بينهم على أن يعترضوها.. فكان مدريد وكان أوسلو.. وكانت الكارثة!

لم تذكر رقمى تلك «الشحرورة» السمراء! فانتبه المعتقلون، فى كل الأقسام، إلى البنطال الكاكى المحشور بلحمها وهى عائدة، تحمل أوراق الإفراج عن عددٍ من المعتقلين. وليس غريبًا، ربما، أن ينتبه المعتقلون والأسرى، إلى مفاتنها المتواضعة، وهى قادمة، تخبّ، نحو بوابات الأقسام، لتنادى على «الأرقام» التى سيتم الإفراج عنها.

والشحرورة هذه، امرأة قصيرة مكتنزة سمراء، لعلها من جذر يمنىّ أو من الفلاشا الذين وجدوا أنفسهم على تلال «يهودا والسامرة» فأصبحوا بشرًا! ولقد أطلق المعتقلون اسم «شحرورة» عليها لأنها تُشحرر المعتقلين. واللفظة آتية من كلمة «شحرور» العبرية، ومعناها حرية أو إفراج أو إطلاق سراح!

ولعل إدارة المعتقل وضعت هذه الشحرورة مرسالاً «يُبشّر» السجناء، بعد طول اعتقال، بفرج العودة إلى المرأة والبيت، أو بالأحرى لتكون مصيدة للقليلين من ضعاف النفوس المكبوتين الذين يرون فيها كل الأنوثة والدلال!

ولطالما مشت الشحرورة بين أقسام معتقل «أنصار٣»، أو ما يُسميه الإسرائيليون «كتسيعوت»، حيث كان كتسيعوت هذا مبنىً متواضعًا بناه البريطانيون أيام انتدابهم لفلسطين، ليكون مركزًا يشرف على الحدود الفلسطينية المصرية، واستلمه الإسرائيليون، فجعلوه ساحة إعدام للجنود المصريين الأسرى عام ١٩٥٦، وعام نكسة ١٩٦٧، وعندها كان اسمه «كيلى شيفع» أو السجن السابع.

وثمة رأى يقول: إن أصل هذا المعتقل يعود إلى أيام الامبراطورية العثمانية، حيث أقام الأتراك مركزًا لحماية القوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الشام، وكان هذا المركز يدعى «نقطة الحفرة» أو «مركز الجورة» أو «سجن الحفرة» أو ما إلى ذلك.

* * *

التاريخ يعيد نفسه، بشكل مُكْلِف، على مَنْ لا يقرأه، أما هنا فى «أنصار٣»، فالتاريخ ثيِّب، جربناه وطلّقناه، وحاول أن يعود بِكْرًا، حتى ننزف من جديد، أو نسوق أغنامنا فى جبال الضبع، كأننا رعاة عميان!! ومهما يكن من اختلاف، فالسجن سجن، الهدف واحد والحوذىّ السادىّ لم يتغيّر، والنهر لم يبدّل ماءه، بل إن السابح لم يخلع ثوبه كالأفاعى، ومع ذلك، لِتَلُهُ الأيام كما شاءت بالدُّمى التى تقطّعها فى العتمة، بالمقصّ، فتخرج فى النهاية ناقصة ذراعًا أو ساقًا.. لا بأس، فنحن لسنا دُمْية، وحتى لو اعتبرونا كذلك، فإن لهذه الدُمْية رأسًا، على الأقل، وشفتين حمراوين، كما يقول شارلز سيميك.

* * *

فى آذار ١٩٨٨، ومع ازدياد أعداد المعتقلين الفلسطينيين إثر تفجّر الانتفاضة، اضطرت الدولة العبرية لبناء سجون جديدة على شاكلة معتقلات النازية، فالفكر

الشوفينى يعيد نفسه دائمًا، وكأن التاريخ يفقد دوره وحكمته لدى سدنة هذا الفكر، وتبدو العنصرية فى التاريخ خارج حدود القيمة الروحية أو الأخلاقية، وتدخل حدود المرض الذى له أعراض معينة ومدونة، منها استعمالها المفرط والعصبى لكل أنواع القوة وغرورها وأشكالها، فهى سرعان ما تقتل وتقمع وتبنى السجون ومراكز الاعتقال والتعذيب، فمهّدت الرمال المحيطة بـ «السجن السابع»، وضربت اثنتى عشرة خيمة فى كل قسم، ستًا مقابل ست، وبينهما مساحة تمتد إلى عشرين مترًا.

وكل قسم محاط بثلاثة جدران من السياج الشائكة، تفصل مسافة متر أو أكثر بين كل سياج وسياج، حيث يرتفع السياج أكثر من عشرة أمتار، والأسيجة متقاربة ومتراصّة فى الجدار الواحد، حتى أن طيرًا قد لا يستطيع الدخول من بين السلك وأخيه! ودفعت إدارة السجن إلى كل قسم مئتين وأربعين معتقلاً، موزعين بالتساوى على الخيمات الاثنتى عشرة، ليصبح نصيب كل خيمة عشرين سجينًا، يحمل كل منهم أربع بطّانيات وقطعة جلد بحجم الإنسان تسمى «البُرش» يفرشها السجين تحت بطّانية هى فرشته، وبطّانية أُخرى يجعلها وسادة، وتبقى بطانيتان، هما غطاء المعتقل فى ليل شتاء الصحراء القارس الذى «يقصّ» المسمار!

وقد جعلت إدارة «كتسيعوت» ستة أقسام فى كل وحدة أو مجموعة، حيث ترى شارعًا رمليًا بعرض خمسة أمتار بين كل قسم وقسم، أى أن كل مجموعة أو وحدة تحتوى على ألف وخمسمئة معتقل... وبالطبع، كان هناك خمس وحدات هى كل «أنصار٣» أو «كتسيعوت»، أو ما يزيد على سبعة آلاف وخمسمئة معتقل.

ولمّا أدركت إسرائيل أن الانتفاضة ستستمر، وأن «حبالها طوال» راحت تُكرّس هذا المعتقل، وتحيله سجنًا مركزيًا، فأمرت بتعبيد أرضية الأقسام والشوارع التى تحيط بها، وأبدلت الحفرة العميقة المحاطة بألواح زنك، وأرضيتها ألواح خشبية، فى وسطها فتحات، هى المراحيض... راحت تبنى حفرًا أسمنتية جعلتها مراحيض وحمامات للسجناء.. وظل المعتقلون الداخلون، لقضاء حاجاتهم، يرون بحر الوسخ المترجرج المقرف الذى ينداح تحتهم، وتصلهم طراطيشه، بين الحين والآخر.

* * *

ما إن تضع قدميك على العوارض الخشبية، وتبدأ بفكّ أزرار بنطالك، لتقرفص فوق الفتحة الواسعة، لتقضى حاجتك.. ويخرجِ من باب بدنك ما اختزن فى أمعائك من طعام تافه، حتى يبدأ خيالك يذهب بك إلى سيناريو الوقوع فى المستنقع المضطرب الذى يموج تحتك... يا إلهى!!

تخيّل لو زحلقت أو زلّت قدمك، وسقطتَ إلى الأسفل؟!!

ماذا سيكون مصيرك؟

الموت فى حفرة المجارى؟!

أية مِيتَة هذه؟!

انتبه، إذًا! وثبّت قدميك، وانتبه وأنت تشطف بإبريق الماء قحفتك المسموطة.. تخرج من المرحاض، وبقعة الماء بادية على مؤخرة بنطالك.. وتسرع إلى ماسورة الماء وقطعة الصابون تفركها، وتغسل يديك.. وتنفضهما فى الهواء، أو تمررهما على جنبات قميصك، وتحمد الله أنك لم تمت، حتى الآن، فى تلك الحفرة المهولة!

ولكن، مَنْ يدرى ما الذى سيجرى فى المرّة القادمة؟

* * *

(حالما بدأ «سوان» فى التعرّف على «أوديت»، بدأ يشك فيها)، وأنتِ أيتها الصحراء! منذ أن وصلناك، هاجمتنا الكآبة مثل كلبة مجنونة، تقف أمامنا، تغلق الطريق بلهاثها المبلول الأحمر، فنرجع للوراء قليلاً، حتى نتحفّز، ونجد طريقًا آخر بعيداً عن نشيجها المسعور، أو نمدّ ذراعنا فى فمها، حتى نقبض قلبها الحامض، وفى الحالتين يراودنا إحساس بأننا فى الفراغ، خارج الزمان والمكان.

* * *

هذه هى المرة الثالثة التى أُساق فيها إلى «كتسيعوت». كان ذلك فى صيف ١٩٨٩، حيث قضيت عامًا كاملاً قبل ذلك، امتد حتى ربيع ١٩٨٩، حين جاءت الشحرورة، ورطنت برقمى ضمن أرقام المُفرج عنهم.

والآن، أنا فى معسكر الظاهرية المُرعب، قضيت فيه، هذه المرّة، عشرة أيام، لم أغسل فيها يدى أو وجهى، ولم أتناول خلالها سوى خبز «الفينو» والماء، وبعض حبّات من الرزّ. فالغرفة التى كنتُ فيها مع ثلاثين فتًى ورجلاً، لم تكن تتسع لأكثر من خمسة عشر، وكان علينا أن نقضى حاجتنا، فى برميل بلاستيكى يطفح بالوسخ، ويترنح أحيانًا تحت مَنْ يجلس فوق فوهته المقززة... فينقلب، وكثيراً ما انقلب، فتمتلئ الغرفة والبطانيّات بالوسخ والفضلات والنتن الخانق، لهذا، كُنّا نُفضّل ألاّ نأكل، وأن نشرب ماءً كثيراً، وتحوّل الاغتسال إلى رفاهية حالمة لاستحالة ذلك، ولعدم وجود صابون أو شامبو!!

* * *

للغرفة، فى معتقل الظاهرية، بابٌ حديدى مُغطّى بصفيح حديدى سميك، حتى لا تكاد ذرّة الهواء تدخل إلى الغرفة! لكن هذا الباب عبارة عن جرس تنبيه، يذكّرنا بقدوم الجنود إلى الغرفة واقتحامها، إذ لم يتخلَّ الجنود عن عاداتهم القبيحة، والتى كان من ضمنها أن يركلوا الباب الحديد ببساطيرهم، فيُحدث ايقاعًا خَشنًا، أو فرقعة مدويّة.. تبعًا للركْلَة! وعندها علينا، نحن المعتقلين الثلاثين، أن نقف فور سماع الركْلة، ونوجّه وجوهنا للحائط، ونرفع أيدينا إلى الأعلى، دون أن ننبس ببنت شفة!

وعندما ينشقّ الباب، ونرى جناح النهار، علينا أن نقول بصوت جماعى واحد «موخانيم يا كابتن».. فيقوم الجنود بإحصائنا، والتأكد من أن أحداً لم يهرب!!. وقبل أن ينصرفوا وينغلق الباب، لا بُدّ من صفعة هنا أو ركلة تحت الظهر هناك، أو بصقة أو شتيمة..

يتنفس المعتقلون الصعداء! ويحمدون الله أنهم ما زالوا «موخانيم»، أى «جاهزين»؛ للعدّ والإحصاء، ورفع الأيدى والتوجّه إلى الجدار، وقَوْل «نَعم» بعد ذكر رقم السجين، وسبّ كل شىء.. وكان يمكن لهذا الموقف أن يكون عاديًا جداً، السجانون يعدّوننا لدواعٍ أمنية، ولكنى أعترف هنا أن ذلك لم يكن كذلك، لم يكن يتم بهذه الصورة الروتينية العادية.

كان الموقف فيه تعمد الإذلال والإهانة، كان يقصد من صياحنا الجماعى أن نتحول إلى قطيع لا يعرف سوى أننا «موخانيم» لكل شىء، لركلة غير متوقعة، لعصا من هذا الجندى أو ذاك؟

لرصاصة حاقدة، لسخرية من مجندة «بنت هوى» دخلت مع ضابط الساحة المكلّف بعدّنا؟

كان هذا الموقف يملأنى بالحقد الأسود والأعمى، والجنون الذى يمنعنى من فتح فمي والصياح «موخانيم يا كابتن..»

ودفعنى الجنون ذات مرة إلى القول للضابط.... «أُختك يا كابتن»، وحمدت الله أن الكابتن لم يسمع.. وإلا لفعل بنا الأفاعيل.. كان الزملاء يصيحون «موخانيم يا كابتن» فيتفطّر قلبى.

* * *

نادى الجنود علينا عصر ذلك اليوم، وخرجنا من الغرفة، وللحظة الأولى، لم نستطع أن نرى شيئًا، لأننا لم نر الشمس طيلة تلك الفترة، وبعد حين وقفنا بعضنا خلف بعض، وكنّا أكثر من مئة سجين، نادوا علينا كأرقام، والويل، كل الويل، لمن نسى اسمه الذى هو رقم وأعداد، (والغريب أن لكل رقم معادلة تكتشفها مع الوقت، أو سرًا له دلالة ما!).

وبعد ساعتين، ربطوا كل اثنين بكلبشة واحدة، اليد اليمنى لسجين مع اليد اليسرى لسجين آخر... وزجّوا بنا فى موقف سيارات مُغطى بالزنك، وكان علينا أن نظل واقفين حتى تحضر الحافلات، وتنقلنا معصوبى العيون مقيدين إلى مصيرنا المحتوم... إلى «أنصار٣». وبقينا ننتظر حتى صباح اليوم التالى! فهل أخبركم كيف أمضينا تلك الليلة واقفين مثل الأفيال أو الأشجار؟.. والجنود النزقون يحيطون بنا، وينتظرون مَنْ سيقع منا، ليتسلّوا عليه ضرباً ولطماً وركلات فى كل مكان!!

صعدنا إلى الحافلات، وكان زميلى فى الكلبشة الأخ «نبهان خريشة» الذى تيسّر لى أن أتعرّف إليه منذ ثلاثة عشر عامًا، أيام كنّا طلاباً فى جامعة بيرزيت.. وكان – بحق– جسوراً، ومعنوياته عالية، مما أدخل الطمأنينة والبهجة إلى ضلوعى.

صعدنا إلى الباص، وأجْلسَنا الجنودُ على المقاعد، وراحوا يعصبون أعيننا بشرائط من القماش الكاكى السميك، حتى لا نرى أو نعرف إلى أين نمضى كجزء لا يتجزأ من الحرب النفسية لهدم معنويات المعتقلين. وعندما اكتمل الجلوس، راحوا ينادون على أرقامنا التى هى أسماؤنا، ونجيب بـ «موجود»... وتتحرك الحافلة، وتصل إلى مشارف «كيلى شيفع» عصراً!

لقد مرّ يوم كامل دون أكل أو نوم. لا بأس... وتدخل الحافلة إلى باحة رملية تنتهى بـ «كرفان» أو غرفة جاهزة، يجلس فيها ضابط ومعه، طبعًا، الشحرورة تلك، وطبيب، وعشرات الجنود يحيطون بالباحة. ويأمرنا الجنود أن نهبط من الحافلة، بعد أن يزيحوا العصبة عن العيون، فنهبط مثلما صعدنا.. ونصطف طوابير بعضنا خلف بعض، فيقرأون علينا، ثانية، أسماءنا الرقمية، ونقول «موجود» ثم يفكّون الكلبشات، ويتقدم كل واحد منّا بمفرده نحو الطبيب الذى يسألنا إن كان يُعانى أحدنا من مرض أو مصيبة.. والجواب، طبعًا لا يهم الطبيب؛ فعنده جواب واحد هو المقبول وهو «لا يوجد به مرض!» ثم نمضى خلف «الكرفان»، واحداً واحداً، ونخلع كل شىء عدا الملابس الداخلية، ويعطوننا قميصًا برتقالى اللون وبنطالاً كحليًا باهتًا، دون أن ينتبه

الجندى إلى حجم السجين ونمرة لباسه.. (فهناك فى الأقسام بدّلوا فيما بينكم)، يقول الجندى. حسنًا أيّها الجندى. ثم نتجه صوب الشحرورة التى تجلس خلف طاولة خشبية متهالكة، وتقول كلمتها المعهودة: اقعد على طيزك يا حيوان!!

فنقعد على أقفيتنا مقرفصين، ومنظرنا يدعو للضحك المبكى، فكيف لواحد مثلى يلبس نُمرة خمسين، يتسلّم ويلبس بنطالاً نمرته أربعون، وعلىّ طبعًا أن ألبسه.. حتى ولو أدخلت ساقىّ فيه بالقوة... ويبقى الجذع فالتًا دون غطاء!!

نقعد على «المقعدة» كما أمرت الشحرورة، وتسألنا عدة أسئلة: اسمك؟ عمرك؟ بلدك؟ هل سجنت قبل الآن؟ أين؟ ثم تعطيك رقمًا جديداً هو اسمك الجديد فى «كتسيعوت»... وبعد أن ينهى المئة معتقل هذه الإجراءات يكون الليل قد امتد إلى نصفه.. فيأخذنا الجنود طابوراً واحداً، أيادينا خارج جيوبنا، ممنوعين من الكلام أو حتى النحنحة.. ويوزعوننا على الأقسام، ليتسلّمنا جنود آخرون، يسوقوننا خلف بعضنا، كلٌ فى قسمه... وبالطبع، مرّ وقت توزيع العشاء.. وعلينا أن ننتظر وجبة الفطور عدة ساعات أُخرى.

يستقبلنا المعتقلون، فمَنْ كان نزيلاً، هنا، قبل اليوم فإن الزفّة تكون من نصيبه، وأما مَنْ يدخل «أنصار٣» أول مرة، فثمة لجنة وطنية فى كل قسم تتعهد الإخوة والرفاق الجدد؛ توزّعهم على الخيام حسب أعمارهم وانتمائهم السياسى والجغرافى ومستواهم التعليمى والثقافى، حيث تتم مراعاة التوازن فى التوزيع، ويجلسونهم فى حلقة، ويتولّى مسؤول اللجنة شرح الوضع وكيفية الحياة فى هذا المعتقل، بما يُدخل الطمأنينة والثبات فى قلوب الوافدين.

* * *

هنا تتكرّس بشخصياتك الثلاث! لكن، يجب أن تحذر، فإن وجودك أربعًا وعشرين ساعة طيلة اليوم، فى حيّز محدود، فيما ستضطر لأنْ تمارس كل أشيائك.. سيعنى أن

جانباً من شخصيتك الأولى سينكشف، وسيراك الآخرون، مثلما تراهم، نصف عراة، كمقدمة لُعرْى يوم القيامة القادم!

شخصيتك الأولى هى أنتَ كما أنتَ، كما ترى نفسك وحدك أمام المرآة، أو المرأة التى أطلت الحياة معها، أو كما ولدتك المرأة الأُم!

ولكى تُغطى ثغرات الأولى، عليك أن تلبس قناعك المُهذّب الأنيق.. لتصبح مقبولاً..! والقناع إما إسقاط وإما تبرير وإما كل آليات التعويض أو الارتكاس أو... أما ما تصبو إليه، وما ترغب أن تكونه، لتتطابق مع النموذج المثالى، فهو شهوتك الدائمة، ورغبتك الباقية.. وهى شخصيتك الثالثة.

وبقدر ما تتخلص من قناعك، وتعيش بشخصيتك الأولى، بقدر ما تكون صادقًا ومعافى وحقيقيّا.. لكننا يا صديقى، مضطرون لأنْ نكون بعضنا مرايا بعض.. فلا بأس!!.. لهذا يقولون إن السفَر أو السجن يُعرّف الناس بعضهم ببعض، ويكشف المعادن!! والحقيقة الأكيدة هى أننا عرفنا بعضنا جيداً، وتم فرزنا جيداً.. فشكراً لغربال السجن هذا، وسحقًا له.. أيضاً.

* * *

يا شماتة الأصحاب! ما أن رأونى أحمل بطانيّاتى، وأطلّ برأسى.. حتى تنادوا.. وقالوا: رجع المتوكل... هيه... ويصطف الأصدقاء والمعارف خلف السياج «الشبك»... كأنّهم يستقبلوننى، ضاحكين، مازحين، شاكرين الله أن أعادنى إليهم!!

وبالطبع يسأل أحدهم عن «الوضع» خارج السجن، وآخر يسأل عن «البلد» وآخر عن «فلان»... إلخ، لكننى بالتأكيد أكتفى بهزّ رأسى، ضاحكًا دون صوت... حتى لا أمضى الليلة فى الزنزانة عقابًا على «كلامى» معهم!

* * *

يريدنا الاحتلال الإسرائيلى، أن نصبح جزءاً من هذه الصحراء، إحدى فسيفساء التوحّش فيها، ولو كنتُ وحدى فى هذه الصحراء، فربما أصير ذئبًا يطأ الحنظل والعوسج، ويضرب بمخالبه جحور الضبّ، وتتهدل أكتافه، وتزهر عيونه كالمواقد، ويبدأ أنفه، بخنفرته الخشنة، يشمشم آثار الرمم، وبول البقر الوحشى.

لكننى لستُ وحدى، لأن هذا الحراك البشرى يُكرّس آدميتى ويبقينى بشرًا، رغم مصارعة هذا التنّين الذى له ألف رأس من الرمل والرصاص والسياج.. تُطالعنا أنّى تحركنا أو غفونا أو أكلنا، وتظل الكلمة والصرخة فزّاعتين تُبعدان الوحش الذى يضرب رؤوسه فى بعضها، فتُحدث زلزالاً مُريبًا، يوقظ وحوشًا جديدة، تُخرج رؤوسها من تحت الرمال.. وتحاول أن تحاصرنا، فنصرخ.. لنظل بشرًا، نطأ الأرض المُمهّدة، ونغفو على زهرة سوسن، تتراءى لنا من بين الرؤوس.

* * *

تستيقظ مرهقًا، كأن تعب الزمان كلّه حلّ فى بدنك، تقوم متثاقلاً، تغسل وجهك كأنك تصفعه بالماء البارد.. وتجلس بلا مبالاة على الأرض، دون اكتراث، ولا تنظر لشىء.. كأنك وحيدٌ على قمة هرم من الغبار اللامتناهى.. ويمضى الجنود، ويجىء الفطور.. فلا تأكل! ثمة حجر خشن يسدّ بلعومك! تنهض، بعد أن تبلّ جرعةُ شاى جفافَ فمك، وتشعل سيجارة «اسكت».. وتمضى إلى الخيمة، تعيد فرْش البطانيات، وتسقط على وجهك فى نوبة بكاء، تحاول أن تخفيه، بأن تغمر وجهك فى البطانيّة الوسادة، حتى يدخل أحد الأصدقاء، ويسمع نهنهة صدرك، واضطراب رأسك المهتزّ.. يقترب منك.. ويمسّد شعرك، فتنهض، محاولاً إخفاء وجهك، وبكُمّ قميصك تمسح دموعك.. فيشعل لك سيجارة ويعطيك إياها.. ويسود صمت كاوٍ.. تحاول أن تنظر إلى عينيه، فتجد ماءً زجاجيًا يبرق فيهما..

– لماذا نعود إلى هذا المعتقل؟

الظُلْم ثقيل.. ثقيل.. ثقيل..

* * *

فى أيار من العام ١٩٨٨، كنتُ قد خرجت من فترة «التحقيق المركزى» فى أقسام المخابرات فى طولكرم ونابلس، وكان طبيعيًا أن تنمو لحيتى وشعرى وأظفارى، وأنا فى «الخزانة» و «الإكس» مدة ثمانية وسبعين يومًا، ابتدأت من نهاية شباط حتى مطلع أيار، رأيت فيها ما يدور فى القبر بعد الموت! بعدها تمّ تحويلى إلى الاعتقال الإدارى، حيث تم نقلى من زنازين سجن نابلس إلى معتقل الفارعة المهول، الذى كان إسطبلاً لخيول الانتداب والجيش الأردنى، ثم أصبح زنازين لخدمة شهوة اليهود الساديّة. فما أن تدخل معتقل الفارعة حتى يتلقاك الجنود بهراواتهم، قبل أن ينزعوا العصبة عن عينيك، وبعد «حفلة الاستقبال» (الضرب مدة ساعة) يتلقّاك الطبيب والجنود،... يسألونك، ثم يعطونك رقمًا - اسمًا جديدًا.... ثم تذهب إلى «ساحة الشبح»، وهى مساحة تقدر بنصف دونم، يأمرك الجنود، وقد أحكموا الكلبشات حول معصميك، أن تقف آخر الساحة، مقابل جدار أسمنتى، وعليك أن ترفع يديك إلى الأعلى وكذلك أحد ساقيك.. والويل كل الويل لو أنزلت يدك أو رجلك. فالمسموح هو تبديل الساق بالساق الأخرى فقط!.. وتبقى مشبوحًا هكذا مدة لا تقل عن يومين كاملين دون طعام أو شراب، والوجبة الدائمة هى اللطم والهراوة، والبُسْطار الذى يُلصقك بالحائط. ولزيادة وجبة العذاب والإهانة، فإنه ليس من المستغرب أن يرمى الحراس فوقك قشر البطيخ أو قاذورات أخرى مختلفة، ولكنك تتوقعها من لزوجتها أو رائحتها الكريهة. ولقد أصبح ذلك الجدار شبيهًا بحائط البراق، غير أن هذا الجدار أكثر قداسة من حائط المبكى الذى سرقوه من البراق، وجعلوه شاهدًا على تضرّعهم الكاذب ودموعهم المخاتلة الوقحة... ثم يأخذونك إلى الزنزانة ويزجّونك أنت واثنين آخرين فيها، رغم أن مساحتها، بالضبط، بمقدار القبر. ويتم تسليم كل واحد ثلاث بطّانيات، ويسمح لنا أن نخرج من الزنزانة، إلى الحمّامات يوميًا، لقضاء حاجتنا مدة خمس دقائق بالثانية!

حتى أصبحنا حالة اشتراطيّة نفسية، لا تتحرك أمعاؤنا، ونشعر أننا «سنعملها» إلاّ عندما يطقطق المفتاح فى الباب.. فنتسابق على المراحيض... ونخرج منها للحنفيات، لنغسل أيدينا ووجوهنا، ودون صابون طبعًا، رغم أن المراحيض فيها برابيج مياه لنغسل القحفة بعد الغائط، ولكن من أين لنا الصابون أو ورق التواليت!! ساق الله.. وعلينا، طبعًا، أن نفرك أيدينا جيداً لننظفها... دون جدوى... ونضطر لنتناول ربع رغيف الفينو وحبّة البطاطا المسلوقة باليدين ذاتهما... ونضع بأصابعنا اللقمة تلو أختها فى فمنا.. وطبيعى أن يكون هناك «جردل» (دلو بلاستيك) داخل الزنزانة لنقضى حاجتنا الخفيفة فيه! ولا أُنكر أن بعضنا كان يضطر - إذا أصابه الإسهال - أن «يعملها» في الجردل... وطبعاً لا ماء ولا ورق ولا صابون.. بل رائحة فوّاحة!!

* * *

لم يذهب الشتاء تماماً! ولم يسحب أذياله الرمادية.. وكنّا مشبوحين أمام حائط الصفع، فى ساحة الفارعة.. وجادت السماء بالمطر.. كان الجنود يلبسون «الأفرهولات» المانعة، كأنهم دببة هجينة داكنة، أمّا نحن فكان لزامًا علينا أن تبقى أيادينا مرفوعة إلى الأعلى، ونقف على رجل واحدة.

وفجأة، أحسستُ يدىّ أنهما غُصنا شجرة، وأننى جذع شجرة منزرعة فى الأرض.. وبعد قليل، ستضرب جذورى أكثر فى عمق الأرض، وستبرعم أصابعى وذراعاى، وستطلق أذناى وأنفى وبُصيلات شعرى ورقًا... وسأصبح مثل الجميزة الراسخة... وبدأ النسغ يصّاعد من أخمص قدمى، إلى جبينى وأطراف أصابعى.. وأصبح جلد جسدى سميكًا وأكثر صلابة وخشونة... وها هو كتفى ينفتح ليخرُج غصن جديد، وتنشقّ خاصرتى ليطلع منها برعم جديد.. وأطلّت الشمس بعد قليل، فعادت الطيور، وحطّت على القضبان الخضراء المتنامية، فيما بقيت عيناى فتحتين أعلى الجذع، تراقبان هذه الشجرة المُمرعة التى كادت تُغطى بجذوعها معظمَ ساحة الشبح... بعد منتصف الليل، استيقظتُ فوجدتُ نفسى مُمدّدًا فى زنزانة مع اثنين من المعتقلين...

يسهران على رأسى، وما أن فتحت عيونى حتى قالا: الحمد لله على السلامة... لقد توقف النزيف.. والجرح فى رأسك غير عميق.. كيف حالك الآن؟

* * *

أذكر ذلك الآن بإلحاح. بعد إحدى عشرة سنة، ذهبت بصحبة العزيز الشاعر غسان زقطان لنحيى أمسية شعرية فى سجن الفارعة الذى أصبح مركزًا شبابيًا، تم تأهيله ليكون مركزًا للنشاطات الرياضية والدورات التثقيفية، ويتبع لوزارة الشباب والرياضة الفلسطينية.

... وعندها طلبت أن تكون الندوة الشعرية فى الساحة، ووقفت، بالضبط، قبالة جدار الشبح والصفع، ولعلها من أكثر الندوات الشعرية المؤثرة، والمشحونة بكل تلك الصرخات والأوجاع... والمحمولة على الضربات التى ما زلت أسمعها، على بوابات «الخزائن» الحجرية! وبعد الندوة ذهبنا فى جولة داخل المعسكر، ورأى أخى غسان زقطان المكان الذى تم حبسنا فيه، والخزائن التى كانت تنطبق مثل القبور على المعتقلين المحشورين فيها.

والخزانة هى غرفة من الباطون المُسلّح، طولها سبعون سنتيمترًا بعرض سبعين سنتيمترًا، ولها باب حديدى سميك، يتم زجّ المعتقل داخلها مقيّدًا بالكلبشات، وعلى رأسه كيس خيش كريه، ويظلّ المعتقل واقفًا داخل تلك الخزانة إلى ما شاءت المخابرات... وقرارات التعذيب.

وتنتشر هذه الخزائن فى كل مراكز التحقيق، وإلى جانبها تقع الإكسات التى هى زنازين صغيرة، وسُميت بـ «الإكس» للتدليل على شطب مَنْ يدخل إليها.

بعد أيام قليلة من تلك الندوة، كتب غسان زقطان يقول: (كان المكان يبدو أليفًا بممراته المرتبة وطرقاته المرصوفة، غرف النوم وقاعات الدراسة، نوع الأثاث... ولون الجدران النظيف، الزهور المسقية حديثًا.. كل شىء كان يوحى بالألفة، حتى أولئك الأطفال الذين يعبرون الشارع الرئيسى قادمين من المخيم ليقفوا على الباب ويحدقوا

فى الداخل... هذا العبور الآمن كان يذهب بنا إلى الألفة التى تعم المكان وأشجاره وطيوره.. هكذا كان «مركز الفارعة»؛ سجن الفارعة سابقًا عندما وصلنا، أخى المتوكل طه وأنا، بناءً على دعوة من أصدقاء.

خلف البناء الدراسى الرئيسى تقع الباحة الكبيرة، وحولها تتوزع صفوف من الأسمنت بأسقف منخفضة:

- هنا غرف التحقيق

- هنا الخزانات

- الخزانة زنزانة ضيقة جداً، أشبه بتابوت يوضع داخله المعتقل...

- هنا ساحة «الشبح»

- هذه هى «الزنازين»

فى الممر الضيق الذى تتوزع على جانبيه زنازين ضيّقة كانت تتردد أسماء المعتقلين، فى حين أحاول أن أقرأ ما لم يتمكن الدهان الجديد من إخفائه... أسماء وإشارات وتواريخ وشعارات، هنا كانوا، مئات منهم أولئك الذين يتذكرون هذا المركز الهادئ الذى نعبر طرقاته النظيفة... عندما كان سجناً.

لم أكن هنا، ولكننى أستطيع أن أتذكر سجن الفارعة أيضًا، الذى ارتبط لدى بأخبار قصيرة ومؤلمة وأسماء شعراء وكتّاب وفنانين ومناضلين محترفين حملتهم إليا شاحنات الليل معصوبى العيون والأيدى على مدار سنوات الاحتلال الطويلة تلك.

أفكر، فيما يواصل الأصدقاء ذكرياتهم، أنه كان ينبغى الاحتفاظ بالمكان، أو على الأقل بهذا الجزء منه، كما كان، بصفته شاهداً على بربرية الاحتلال، وعلى صمود أهلنا... متحف للذاكرة... ليست الشفهية التى أسمعها الآن فقط، ولكن تلك الموثّقة والمكتوبة... حيث لا وقت للنسيان).

* * *

... وللتاريخ، فإننى أمضيت فى الخزانة، فى مركز التحقيق بطولكرم، مدة اثنين وثلاثين يومًا، ليلاً ونهارًا فقط... سبقتها أربعة أيام أمام العديد من المحققين، دون أن يُسمح لى بالنوم دقيقة واحدة. ثم تمّ زجّى فى «الإكس» حتى الساعة الأخيرة من الأيام الثمانية والسبعين التى أمضيتها متنقلاً بين الجلوس أمام المدفأة، ثم إخراجى شبه عارٍ ومكلبشًا تحت المطر حتى ساعات الصباح، وبين الضغط النفسى، والتجويع والترهيب، أو بين حمّامات منتصف الليل المثلّجة، أو تركى مكلبشًا وكيس الخيش الكريه على رأسى أيامًا متوالية، مهملاً.. هكذا، أو منعى من قضاء حاجتى، هذا عدا الشبح المتواصل حتى الخدَر أو الشلل!

* * *

يدخل المحقق، وهو مسلّح بشعار واحد، ويظلّ يحفر فى بقعة واحدة، ويحفر لعله يجد شيئًا، ويدخل محقق آخر، ويحمل شعارًا آخر، ويروح يجزّ بمبضعه على نغمة واحدة فى زاوية محددة.. لعله يستخرج شيئًا ما، ويدخل محقق ثالث ورابع وعاشر.. وهم مُتفقون على مجموعة من النقاط، حيث تشكل هذه النقاط دائرة كاملة، يحاولون سلخها... والنفاذ منها إلى قلبك وعقلك.. والسخرية فى الأمر كله أن هؤلاء يعتقدون حقًا أنهم الأذكى والأرفع، وأنك بالنسبة إليهم مجرد فأر تجارب، تنكسر عند نقطة معينة، وتنهار فى مستوى معين من الضغط النفسى أو الجسدى «المعقول» أو غير المعقول، ولوهلة ما تشعر أنهم يطبّقون عليك الأساليب التى يتعلمونها فى التحقيق، ثم، وفى لحظة واحدة، تنكسر هذه القشرة الرقيقة اللامعة، ويظهرون كامل أحقادهم وعنصريتهم، ويتحولون بعدها إلى ثيران وجواميس وخراتيت لا يفهمون ولا يمارسون سوى القوة، والقوة فقط.. عندها تسلمهم جسدك الأعزل الطرى.. تنكمش على نفسك، تخاف قليلاً، ولكنك تعرف أن النجاة قريبة.

لكنك تواجههم بأنهم ليسوا بشرًا، بل محترفو تعذيب وإرهاب، وأن ادعاءهم بالحضارة والأناقة ما هو إلاّ قناع، سرعان ما يتهتك، أمام أصغر حقيقة من حقائق وجودنا وحقّنا، فى الحياة مثلهم... تمامًا!

وبشكل مباشر تقول لهم: إن الشبح والتجويع و «دُشَّات» الماء البارد والكلبشات... ما هى إلاّ أدوات تحاولون من خلالها قهرنا وإخضاعنا، ولكن عليكم أن تختصروا الوقت، وتطلقوا الرصاص علينا، لإنهاء هذه الملهاة المُرّة التى لن تُفضى إلا إلى تعميق الكراهية..

أما البديل فهو الاعتراف بالحقائق الساطعة، وبأنّ ما تدّعونه من معلومات ما هو إلاّ تخيلات وأكاذيب وأحاجٍ... وما عليك، أيها السجين، إلاّ أن تبدو أكثر تماسكًا وزهوًا بعد كل «حفلة» شبح أو حمّام أو خزانة.. ولا تنسَ أن تُذكّر المحققين بأنهم موظفون، ولهم صورة البشر، وعليهم أن يتصرفوا كالآدميين... وأن العنف والإذلال له نتيجة واحدة، هى إعادة التأكيد بالكلمات نفسها على مسامعهم.. فعندها سيفقدون أعصابهم.. وستضحك، دون أن يلحظوا ابتسامتك المنتصرة!

* * *

بعد أسبوع كامل، تم نقلنا من معتقل الفارعة، وكنّا أقل من عشرين معتقلاً، فى حافلة، معصوبى العيون، والكلبشات تدمى معاصمنا، إلى سجن «عتليت» الواقع بين الطنطورة وحيفا، وصلنا منتصف الليل، وبعد الإجراءات نفسها، أدخلونا إلى غرف السجن الذى ذكّرنى فور رؤيته بسجن عكا القريب، وثورة البراق، والشهداء الذين تسابقوا إلى المشانق فيه.. و «من سجن عكا طلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازى... وثالثة الأثافى عطا الزير». فى سجن عكّا أمضى والدى سبعة أعوام معتقلاً، أيام الجهاد ضد الانتداب والعصابات الصهيونية، والشهود يؤكدون أنه تمّ أسرُه وكان جريحًا عام ١٩٣٢، ليخرج بعين واحدة، ويدٍ تشهد على ثلاث رصاصات، وساق تشهد على شظية شقّت اللحم والعظم!! رحمك الله يا أبى، أيها الشيخ الذى جاء بى إلى هذه الدنيا.. ليرحل عنها، وفمى ينقط باللعاب... رحمك الله يا أبى، لقد أورثتنى السجن والقصيدة...

* * *

كانت غرف سجن عتليت، أقرب ما تكون، للعقود العتيقة أو البيوت ذات الأقواس الضخمة، مقسّمة إلى عدة غرف تفصلها قضبان حديدية غليظة وقاسية... وقديمة.

أمضينا تلك الليلة، ليحملونا ظهر اليوم الثانى من حيفا، شمال فلسطين، إلى «كتسيعوت» جنوب بئر السبع، فى قلب صحراء النقب، على الحدود المصرية!

* * *

يطيرُ بنا التمنّى كأنّه قضاء غامض، ونحن نرتحل من مكان إلى مكان.

ماذا لو أصابت سائقَ هذه الحافلة سكتةٌ قلبية، وتدهورت الحافلة فى أحد الوديان.. عندها سيكون هؤلاء الجنود جثثًا هامدة.. أما نحن، فسنتمكن من الهرب... أو.. ماذا لو اجتمعت الدول العربية، وشنت حربًا كاسحة ضد إسرائيل.. عندها سيتركنا الجنود داخل الحافلة، وسيهربون، وستدخل جحافل العرب المنتصرين لتكسر حديد الكلبشات، ويسقونا الماء.. ويقولوا لنا: الله يعطيكم العافية.. أو.. ماذا لو استطاع واحد منّا أن يُفْلِت إحدى يديه من الكلبشات، ويفاجئ الجندى الحارس، وينقضّ عليه، ويأخذ سلاحه: عندها سنأخذ الجنود رهائن، ونحظى بـ «تبادل» يُحرّرنا جميعًا من السجن.

أو، ماذا لو كان سائق الحافلة عربيًا، مدسوسًا بين الجنود، وفجأة يوقف الحافلة، ويشهر سلاحه المخفىّ فى وجه الجنود.. ويُطلق سراحنا.. أو.. ماذا لو أبرقت وأرعدت.. وهطل المطر مدرارًا.. ونزلت صاعقة على هذه الحافلة.. فحرقتها، عندها سنتمكن من الإفلات وسط هذا الماء المشتعل الصاخب.. أو.. فجأة! يعلو صوت أحد الجنود، بلغته العربية الثقيلة، وهو يصرخ فى أحد المعتقلين عندما حاول أن يرفع، قليلاً، العصبة عن عينيه، لعلّه يرى إلى أين نمضى.

.. وماذا لو!!

* * *

وصلنا تلك الليلة، من أيار، وكانت الحافلة مكتملة العدد، وبعد أن تعرّفنا على الشحرورة، وجُملتها المشهورة، دخلنا المعتقل الذى لم يكن حينها إلاّ معتقلاً صغيراً مكوّنًا من وحدة واحدة، أو ستة أقسام، تنام على الرمل وتصحو على عقاربه وأفاعيه التى عقصت ثلاثين سجينًا، ولدغت عشرين آخرين. وقتها كان لا بُدّ من أن يجتمع ذوو الخبرة من المعتقلين؛ سجناء سابقون، وطلبة جامعيون، وأعضاء نشيطون فى الفصائل الوطنية، لتنظيم حياة المعتقل... وبدأ بالفعل الترتيب لذلك... وخلال أسبوع واحدٍ، كان النظام قد تم تعميمه، وتم تشكيل لجان النظافة، والمطبخ، والأمن، والفصائل، واللجنة الوطنية العليا، ولجنة الصندوق والطعام والنشاطات، خصوصًا أن المخضرمين فى المعتقلات قد تم نقلهم جميعًا من سجن جنيد غرب نابلس، إلى معتقل كتسيعوت.

* * *

بعد أن تكاثرت حوادث لدغ الأفاعى عدداً كبيراً من المعتقلين، وأصبح مرأى العقارب مريبًا ومرعبًا، اقترحت لجان الأقسام أن يسهر، كل ليلة، ثلاثة من المعتقلين، فى كل خيمة، لحراسة السجناء من الأفاعى والعقارب.. لكن غسان الحرامى «أبو زياد» صاحب النوادر، كانت لديه وجهة نظر أخرى، لها وجاهتها وفتنتها! وهى أن يقوم الشيخ أحمد بـ «التعزيم» على الأفاعى، وحبسها فى دوائر، ومن ثم «تنظيمها» لصالح المعتقلين، وإعطائها الأوامر لتلدغ الجنود!

– لكن الشيخ أحمد لم يكن حاويًا فى يومٍ من الأيام يا حرامى!.. وتروق الفكرة لعماد عامر الذى أصبح اسمه فى المعتقل، لوسامته، «شيتا».. فيحملها، ويبدأ بالترويج لها.. لتصل الفكرة اللمّاحة إلى الشيخ أحمد، فيهشّ ويبشّ، ويبدأ الادعاءَ بأنه يستطيع أن يقيّد الأفاعى ويطرد العقارب الصفراء!!

وكم كانت دهشتنا، عندما كان يقفز الشيخ أحمد فجأة، حاملاً حذاءه، ويقلب إحدى البطانيات ويبدأ طرق حذائه.. فنرى العقرب المتفسّخ بفعل ضربات الشيخ!

.. وبعد أيام قليلة، بدأت لجنة القسم تواجه مشكلة حقيقية، مفادها أن كل المعتقلين، تقريبًا، يريدون أن ينتقلوا إلى النوم فى الخيمة التى ينام فيها الشيخ أحمد.. بعد أُسبوع تقريبًا، تم نقل الشيخ أحمد إلى عيادة السجن. لقد لدغته أفعى! ومن فضل الله عليه، أنها كانت «فرخًا» صغيراً.. غير مهلك!

* * *

تصحو مبكراً، فترى شال الغبش ينسلّ برشاقة، ليجلو الطريق فى الأفق، أمام حبال الشمس الطالعة من الشرق، هذا فجر الصحراء.. فما على البدوى النائم، فى ضلوعى، منذ عشرين قرنًا، إلاّ أن يصحو الآن، ليرفع ستائر خيمته، لتدخلها مياه الشمس، ويرتّب بطانياته، ويطوى فرشته البلاستيكية، ويركزها مكانها. ويُلقى تحية الصباح على زملاء الخيمة، ويذهب إلى الماسورة التى تقذف ماءها البارد ليَغسل وجهه، ويفرك قطعة الصابون برفق، حتى لا تذوب، لأن إدارة السجن صرفت قطعة صابون صغيرة واحدة، ولمدة أسبوع، لكل خيمة.. لاستعمالها فى غسل اليدين والوجه، والحمّام الأسبوعى.

ومع تمام السادسة صباحًا يكون كل المعتقلين قد افترشوا الأرض، على شكل أسراب متتالية، ليأتى الضابط وثلة الجنود، لإجراء «العدد» أو إحصاء المعتقلين. وطبيعى أن ينادوا على أرقامنا، لنقول «موجود»، ثم لا نقوم عن الأرض أو نأتى بأية حركة، حتى يخرج الجنود، وينغلق الباب بالمفتاح! لكن عشرات الجنود المنتشرين، فى الطرقات الفاصلة بين كل قسم وآخر، يظلّون على حالهم، متمنطقين أسلحتهم، ومدافع الغاز.. والكلاب تلهث حولهم، تلحمس أيديهم التى تحاول أن تداعبها.

وعلى الساعة السابعة، بالتمام والكمال، يدخل «الشباب» يحملون طناجر الشاى وطعام الإفطار.. ويبدأون بالتوزيع، حيث يبدأون كل وجبة، من عند الخيمة الأولى، ثم يبدأون فى اليوم الثانى، من عند الخيمة الثانية، وهكذا.. أما الإفطار، فهو ملعقة تطلى «مربّى» وثلاث شرائح خبز فينو وأربع حبّات زيتون، وقطعة «مرجرين» زبدة ونصف بيضة.

أو يكون حبة بطاطا مسلوقة، وأربع حبّات زيتون، ونصف بيضة و«مرجرين». أو يكون حبة بطاطا مسلوقة، وأربع حبات زيتون، وحبة بندورة. أو مغرفة فول، مع أربع حبات زيتون وسنتيمتر مكعب من المرجرين.. وطبعاً يحمل كل واحد منا كوب الشاى البلاستيكى، ليدلحوا له من هذا السائل الأسود، الذى لم نشربه ساخناً، بل فاتراً ومزاً، أو شديد المرارة أو التحلية.

بعد الفطور، ينهض ثلاثة معتقلين، من الخيمة الأولى، ويجمعون الكؤوس والصحون البلاستيكية، ويذهبون بها، فى صندوق بلاستيكى كبير، إلى فتحة ماسورة الماء ليغسلوها! وفى اليوم الثانى ينهض ثلاثة معتقلين آخرون، من الخيمة نفسها لغسل أطباق الغداء، ويليهم ثلاثة آخرون لغسل أطباق العشاء.. وتدور دوائر الغسل على كل المعتقلين، دون استثناء، ويكون ذلك، طبعاً، بإشراف لجنة التنظيف التى غالباً ما تُصدر أوامرها لَنْ غسلوا أطباق الصباح لينظّفوا الساحة من أعقاب السجائر أو بعض ما تطاير من ورق.

مع الساعة العاشرة، تبدأ لجان النشاطات العمل، حيث يتم تقسيم المعتقلين إلى مجموعات. فهذه مجموعة لمحو الأميّة، وتلك مجموعة تعلّم اللغة العبرية، وتلك الإنجليزية، وتلك الفرنسية، وتلك لتعلّم النحو والصرف، وتلك لتحفيظ القرآن وتفسيره، وتلك لقراءة الكرّاسات والكتب التى وضعتها اللجنة لمجموعة ما لقراءتها حتى تتم مناقشتهم بمضامينها بعد أسبوع.. وهكذا.

وعند الساعة الثانية عشرة منتصف النهار، يدخل «الشباب» حاملين طناجر طعام الغداء المكوّن من مغرفة رزّ صغيرة، ومغرفة شوربة بزر مكانس، أو مغرفة شوربة عدس، أو شوربة يخنة بطاطا أو بصل، وثمة نصف حبة برتقال، أو نصف حبة تفاح، أو نصف قرن موز، مرتين أسبوعياً، يتم توزيعها على المعتقلين!

وحين ينتهى «الشباب» من الغداء، تبدأ لجنة النظافة الإشراف على غسل الأطباق، وتكليف ثلاثة معتقلين جدد لهذه المهمة، وعند الساعة الواحدة ظهراً، يرفع

أحدهم الأذان لصلاة الظهر... وهنا مشكلة المشكلات!!

فلقد منعت إدارة المعتقل المعتقلين من ممارسة ثلاثة أشياء رئيسة فى ساحة القسم، وهى: الصلاة أو رفع الأذان، ثم الرياضة والتجمّع لأكثر من اثنين، ثم الغناء أو إقامة الاحتفالات.

لكن المعتقلين أصروا على رفع الأذان -وعندما سمعت الأذان فى ذلك المكان لأول مرة، شعرت بالصوت العذب والكلام العذب يكسر الحواجز والأسلاك، ويحيل الحصار والصحراء والشمس إلى رياض غنّاء تنضح بالزهر وسلسبيل الماء- فدخل الجنود، واعتقلوه المؤذّن، وزجّوه فى الزنزانة! فخرج مؤذّن آخر، فاعتقلوه، وخرج مؤذن ثالث.. فاعتقلوه، حتى ثلاثة وعشرين مؤذنًا اعتقلوا فى يوم واحد. وما كان من حنّا الساحورى إلا أن تبرّع برفع الأذان لصلاة الظهر.. ومن يومها أصبح «حنّا» أحسن مؤذن للمسلمين وأشجع مَنْ رفع الأذان!

ولّما اعتقلته إدارة السجن، وقالوا له: أنت مسيحى، فكيف تصلّى صلاة المسلمين؟ قال «حنّا» لهم: تلك كانت معركة بيننا وبينكم، ولم تكن بين المسلمين واليهود. ثم إن رفع الأذان هو واجب وطنى. وفوق كل ذلك: إذا سجنتم كل المسلمين فى الزنازين، فإننى سأرفع الأذان وسأصلّى بدلاً منهم.. وسأبقى على دينى.. ولا تعارض بين هذا وذاك.

أما الصديق المرح فؤاد كوكالى، فقد اعتبر موقف الأخ «حنّا» سابقة يجب الاعتراف بها، والحسبان لها، خاصة أن المسلمين زادوا «صوتًا» فى حين كسب المسيحيون «مسلمًا» إضافيًا. وبالطبع يختتم كوكالى جملته بضحكة طفل برىء.. لا تنتهى قهقهته، حتى تدمع عيناه، فيستغفر الله، بكل الديانات.

وكالعادة، وضعت إدارة السجن حنّا فى الزنزانة فترة مضاعفة.. وعاقبته ثلاثة أضعاف ما عاقبت به المسلمين.

فى تمام الساعة الثالثة ظهرًا، تُعاد كرّة «العدد»، وربما، بل غالبًا، ما تتركنا إدارة المعتقل جالسين على الأرض اللاهبة مدة وصلت الساعة أو أكثر، حتى «تُشرّفنا»

وتحصينا. وبالمناسبة، لقد طلبت إدارة السجن منّا، وقت العدد، أنْ نضع أيدينا خلف ظهورنا، ونطأطئ رؤوسنا، ونجلس متربعين على الأرض، دون أن يُسمح لنا بافتراش كرتونة أو ثوب أو بطانية.. لكن المعتقلين، وبإصرار، كانوا يضعون أيديهم أمامهم، ويرفعون رؤوسهم.. وبالتدريج تغاضت إدارة السجن عمّن وضع شيئًا تحته وقت العدد.

* * *

أيها الجندى القابض على بندقيته، كأنها حِرْز مُقدّس! لماذا، وأنتَ ترى حالنا، والظلم الهائل الذى يبهظنا، لماذا، لا تصرخ فى وجه قائدك، وترمى سلاحك فى وجهه، وتنتصر للعدالة؟

اطمئن أيها الجندى! لا نريد ذبحك، أو إلقاءك فى البحر! فلماذا يطيب لك القهر والإذلال والتجويع والضرب؟؟ لماذا؟

ماذا صبّوا فى قلبك، وماذا قالوا لك عنّا؟؟

مَنْ الذى عبّأ عقلك بكل هذه الكراهية العمياء؟ وكيف لك أن تحتمل كل هذا الظلام بداخلك، وهذه السموم بأنفاسك! وكيف لم تمت من ثِقَل ما حشوك به من موت، وجعلوك مشوّهًا إلى هذا الحد؟

هل ترى عيناك أيها الجندى، غير الذى تراه عيون البشر؟ وهل تسمع أذناك غير الذى تسمعه آذان الناس؟

ألم تر ما يَفعله قومك بنا؟ ألم تسمع الصرخات والولولات والأنين؟

كيف تسمح لك إنسانيتك أن تكون شريكًا فى ساحات الإعدام؟

ألم تلاحظ أننا بشر مثلك، لنا عيون ووجوه وأيدٍ وأرجل.. وأننا نأكل ونشرب ونمشى... إن صمتك، أيها الجندى، وحَمْلك هذا السلاح، وسرعتك فى سحب أقسام البندقية، وإطلاق الرصاص، جعلتنى أحلم ليل نهار كيف أُطبق بكلتا يدى حول عنقك، وعنق كل جندى مثلك.. لا لأنك جندى مشوّه أحمق، بل لأنك جعلتنى أعرف الكراهية!

وجعلتنى أكرهك وأنتَ على حالك هذه، بل دفعتنى إلى أن أفكر فى القتل، أعنى قتلك أنت.. حتى أوقف القتل، على هذه الأرض... كم أنت مشوّه أيها الجندى! كم أنتَ بعيد عنا..!

* * *

ثمة قصّة وقعت وقت العدد، كادت تحصد ألف قتيل منّا. كُنّا نجلس والضابط الإسرائيلى ينادى على أرقامنا، وفى تلك اللحظات اضطر أحد المعتقلين، على ما يبدو، لينفّس بعض غازات بطنه.. فخرج الصوت وتضاحك بعض المعتقلين على هذا «الصوت» الذى جاء فى غير أوانه.. لقد كان صعبًا على «أحمد الحزين» و«على الرجوب» و«الفطافطة» ألاّ يضحكوا.. رغم أنهم محسوبون من قيادة المعتقل ورجالاته الأشداء، فما كان من الجنود إلاّ أن ابتعدوا عدة أمتار، وسحبوا أقسام رشاشاتهم، وأعطى الضابط الأمر لهم بإطلاق الرصاص.. لولا أن شاويش القسم الشجاع منير العبوشى اعترض بجسمه البنادق، وسارع بلغته العبرية إلى شرح الموقف للضابط.. حتى هدأً روعه!! فعادوا بعد ساعة، وأعادوا «العدد» وعاقبونا بالدخان والراديو!

– مَنْ هو شاويش القسم، وما هو عقاب الراديو والدخان هذا؟ – شاويش القسم هو أحد المعتقلين الفلسطينيين، ينتخبه المعتقلون ليكون حلقة الوصل بينهم وبين إدارة السجن، على أن يكون هذا الشاويش معروفًا بوطنيته وصلابته وإتقانه العبرية، وغالبًا ما يكون «خرّيجًا» من أحد السجون الإسرائيلية.

أما عقاب الدخان والراديو، فإن إدارة السجن توزّع على كل معتقل خمس سجائر يوميًا من نوع «خنتريش»؛ وهو دخان سيئ ومن دون فلتر ويُسمّى «أُسكت»، حيث تقطع ادارة السجن الدخان عن المعتقلين، حسب مزاجها، يومًا أو أكثر. أما الراديو، فإن إدارة السجن التى وضعت مكبرات صوت نشرتها على كل الأقسام، وعلّقتها على

أعمدة الكهرباء، فإنها «تشنّف» آذاننا بنشرة أخبار من «صوت إسرائيل» صباحًا، وأخرى مساءً، وأحيانًا تُسْمعنا أغنية أم كلثوم عصرًا! وفى أحد الأيام، كان صوت أم كلثوم يسبح مع غروب الصحراء وهى تهدهد قصيدة «سلوا قلبى»، ولما أتت على قول أحمد شوقى (وما نيل المطالب بالتمنّى» قطعت إدارة السجن الأغنية، وعاقبت أم كلثوم على أغنيتها تلك، فلم نعد نسمعها.

وعند الساعة الرابعة، تعود لجنة النشاطات إلى الحياة، حيث تفتح ورشة نقاش فى كل خيمة، ويتم فرز أحد المتحدثين، لمناقشة الحضور فى موضوعة معينة، أو إلقاء محاضرة، حسب تخصصه واهتمامه.. وهكذا يدور المتحدثون، كل يوم فى خيمة، ويتم اقتراح ندوات ومحاضرات جديدة.. وتظل الندوات كخليّة النحل، حتى الساعة السادسة موعد طعام العشاء. وطعام العشاء هو ذاته طعام الإفطار!

وبعد ساعتين، أى عند الثامنة، يدخل الجنود ومدافع الغاز، ليتمّموا «العدد » الثالث! ثم يقول الضابط لشاويش القسم الجُملة نفسها:
عند العاشرة يتم إغلاق الخيمات.. وعَ النوم! وما بدّى صوت.. مفهوم!!

وقبل العاشرة بقليل، يكون المعتقلون قد اصطفوا فى شبه طابور أمام ماسورة الماء، يحملون فراشى أسنانهم، و«البشاكير» على أكتافهم، ويذهبون إلى بحر الحمّامات الطافح المقرف، ليفرغوا ما حملته المثانى. أما إذا ازدحم جسم أحد المعتقلين بالماء، وأراد أن يذهب إلى الحمّام، لقضاء حاجته بعد العاشرة، فعليه أن يخرج من الخيمة بصحبة شاويش القسم، الذى يضطر لاصطحابه.. وانتظاره أمام الحمّام.. حتى يقضى شأنه! وكثيراً ما يقضى الشاويش هذا، ليلته فى هذه المشاوير الآسنة. لهذا تقوم لجنة الصندوق، بصرف ثلاث سجائر إضافية للشاويش، تقديراً لجهوده. ولجنة الصندوق هذه، مسؤولة عن تسلم السجائر والصابون، وشفرات الحلاقة (١٢ شفرة شهرياً لكل قسم)، ما دفع أكثر من تسعين فى المئة من المعتقلين إلى إطلاق شعر ذقونهم! وتقوم هذه اللجنة بتوزيع التموين بالتساوى الشديد على الجميع، ودون تمييز!

المعتقلون، عادة، وبعد أن يتم إسدال أذيال الخيمة، عند العاشرة ليلاً، يقوم بعضهم برفع أطرافها، حتى يدخل ضوء أعمدة الكهرباء، قليلاً.. ليواصلوا القراءة.. وللقراءة فى السجن طعم آخر مختلف، فهنا لا تتم القراءة لزيادة المعرفة، ولكن، باعتبارها تحدياً من نوع آخر، نوعاً من إثبات الذات والانشغال بأمر «علوى» لايستطيع السجّان منعه عنّا. للقراءة فى السجن طعم تطهّرى ونضالى، ولهذا، فإن ما نقرأه فى السجن لا ننساه عادة.

وساق الله على تلك الليالى التى كان «بُرشى» أو سريرى إلى جانب سرير الصديق الشاعر وسيم الكردى الذى جعلنى وإياه نحفظ العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وروايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، والطاهر وطّار، وجان بول سارتر، ومنشورات «دار التقدم» السوفييتية، من روايات وكتب فكرية وتنظيرات ماركسية... أما باقى المعتقلين، فكانوا يحلمون بيقظتهم.. ويخرجون بأرواحهم إلى آفاق بعيدة، يلتقون أزواجهم وأبناءهم وأحبابهم.. ويحلمون.. ويحلمون..

* * *

ثمة بئر عميقة، لا يملك رؤيةَ ما فيها إلاّ علاّم الغيوب وأنتِ! وما فيها كثير! وهو ما تحاول إخفاءه أو إنكاره، بل تسعى لنسيانه..

- لكنه خربشات المراهقة وهوس الشباب! فلماذا الخجل؟ بل ما الذى نبّهك لتلك لبئر التى دفنتَ فيها كل عيوبك وفلتات جنونك؟

يا للفضيحة والعار، لو انكشف المستور! يا ويلك.. أما كان بإمكانك أن تكون أكثر ىقّة ومعقولية؟! وما أدراك أنّك لن تفضح نفسك، كما فضح ذلك الشاب نفسه، وقال كل سراره وهو نائم!

كأنه كان تحت تأثير تنويم مغناطيسى، فى غرفة طبيب، وعلى سريره الإكلينيكى؟

- لكننى لا أتحدث وأنا نائم؟

ومَنْ أدراك؟ ربما تتحدث هنا فى السجن، ويكون البعض مستيقظًا، وسيسمع كل خطاياك وزلاّتك..

- إذن، لن أنام!

لكنك ستنام، فالنعاس مثل الموت أو المرض، لا يستأذن، ولا يرعوى، ولا يخضع لتعليمات الملوك، أو فرمانات السلاطين.. إننا بشر.. إننا بشر..

- لأننا بشر، سأنام إذاً، فما فعلته بشرى تمامًا.. وليسمعوا ما لم أقله، وما سأقوله..

تنام.. وفى الصباح، تنظر وجوه زملائك.. فلا ترى شيئًا جديداً، فتسرى الطمأنينة إلى نفسك.. وتتأكد أنك لم تحلم بصوت مسموع.. ولم تتكلم! الحمد لله..

* * *

الليل فى «كتسيعوت» محيط من الثلج غير الملموس، لكن العظام تتخشب من مساميره التى تصطك بالنخاع الشوكى، وخناجره القاسية التى تعرّى العظام من كل دفء. أما النهار فهو هواء ملىء بالذباب والبعوض الوقح، ولشدّة حرّه وقيظه تكاد أمعاؤك تخرج من بين شفتيك! وربما لن يسعفك ماء الثلاجة!

- هل ثمة ثلاجة؟

ثلاجة المعتقلين هى برميل بلاستيكى، دفنه المعتقلون حتى رقبته فى الأرض، ولفّوا ما تبقى منه بقطعة بطانية، وأغرقوا محيطه بالماء، وغطوه بقطعة قماش نظيفة، غالبًا ما تكون قميصًا برتقاليًا كئيبًا.

أما الرياضة الفُضلى، فهي «الكسدرة»، «ويا عيني» على المشي السريع، حيث يذرع معتقلان أو ثلاثة ساحة القسم جيئة وذهاباً، مدة ساعتين أو أكثر، خصوصاً بعد «العدد» الثالث وحتى إغلاق الخيمات.. أما باقي المعتقلين فيتحلّقون في جلسات متناثرة هنا وهناك، يتحدثون، يتناقشون، يضحكون، يُغنّون، يسهمون في لا شيء.. وبعضهم يعمل نحّاتًا، حيث يجمع بعض الحجارة الصغيرة، التي يقترب شكلها من الرخام، ويبدأون بشحذه مع حجر آخر، مستعينين بالماء، أو بمسمار تمّ تهريبه.. ليتشكل بين يديه تمثالاً أو أيقونة أو حبّات سبحة، أو خاتمًا أو تعليقة عقد.. أو شكل حرف.. وما أكثر ما نحت المعتقلون!!

أما وسيم الكردي وأنا، فكُنّا، غالبًا، ما ننادي على ذي الصوت الجميل، الرجل الفكاهي خفيف الظل إبراهيم رمضان، وعلى الأصدقاء طلال دويكات، وأبي عاصف البرغوثي، وأبي محمود السلوادي، وعلى دخل الله، والصيدلاني أحمد عديلة.. ونشكّل نجمة كنعانية تضجّ بالغناء والشعرِ والقفشات والحوارات.. والحنين.. أو مناقشة أمر ما!

وكثيرًا ما كانت تتسع الجلسة لتشمل عدداً رائعًا من الأحبّة، أذكر منهم الرجل الطيّب محمد خالد، وعمر أبا عبيد الحنون الرقيق، وكامل جبيل، وسمير الشاويش، وبدران جابر، وجبريل البكري، وأبو صبحة والحوراني، والحزين، وعلى الرجوب، ولؤي عبده، وجمال الديك وأبا بشار!

- مَنْ أبو بشار هذا؟

أبو بشار رجل تجرّأت عليه السنوات، وبلغ الستين، اعتقل تسع سنوات في معتقل الجفر الصحراوي، وظلّ شيوعيًا صلبًا، يتقن الثبات والدماثة والابتسامة الكبيرة. أما زهران أبو قبيطة فكان غالبًا ما يشاركنا فكاهتنا دون أن يتخلّى عن جديته ورصانته العميقة.

وكثيرًا ما يمر بنا أبو دلال ضاحكًا مازحًا.. وأبو دلال هذا أشجع مَنْ رأيت وسمعت! رجل جسور، أعتقد أن الموت سيتردد كثيرًا قبل أن يقترب منه.. لكن أبا دلال شديد التواضع، وهو كتلة من الطيبة والرقة والإيثار.

لقد كانت نجمتنا الكنعانية مصدر جذب طيّب للعديد من المعتقلين الراسخين فى عوالم السجن والنضال، حتى إن رجلاً مثل رشيد منصور، والمعروف بتبتُّله وتديّنه، وحرصه على أداء صلاة الضحى، والصيام يومى الخميس والإثنين.. كان يحب جلستنا، ونُسعد بشَهْد لسانه وطلّته المضيئة. أما زياد الذى يخيفك حضوره المجرد، فسرعان ما تكتشف الرقّة والرجولة والمرونة خلف هذه الصلابة الظاهرة.

أما عصام فإنه يحمل ذاك اللمعان الذى كان يميز الشهيد القائد أبا على إياد، حيث إن «عصام» ينتمى إلى العشيرة التى أنبتت أبا على إياد، ويحرص عصام، على ما يبدو، على أن يظل محافظًا على هذا الخيط الذهبى المهيب الذى يشعّ من جبهته الناضجة الصلبة.

أمّا د. ثابت الثابت، وأبو الطيب جرادات، فإنهما «يزعلان» إذا ما اتسعت الجلسة، ولم يكونا حاضرين.. لكن غيابهما كان محموداً، لأن د. ثابت كان يلازم المرضى حتى يبرأوا، وعندما يتعب يُسلّم المهمة للدكتور سعيد الطريفى الذى كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن صحة المعتقلين، فى حين يكون أبو الطيب يدور من خيمة إلى أخرى مع عبد الفتاح أبى الذهب وأبى صالح يتحسسون أحوال السجناء، معتبرين أنفسهم آباء لكل الشبّان الذين وجدوا أنفسهم، فجأة، فى حمأة هذى الصحراء.

أمّا نايف، فإنه يبقى بكامل تماسكه وجدّه المتواصلين يعمل ليل نهار، فى المطبخ، والتنظيم... وترتيب الأوضاع.. والبسمة البريئة لا تفارق أسنانه الواضحة.

أين أنتم يا كلكم الآن؟ هل تحتاجون لكتسيعوت جديد حتى تلتقوا ثانية؟ على أشغالكم، فى هذه الدنيا، اللعنة.. وإبراهيم رمضان، مع كل هذا، لا يكفّ عن الغناء، بمصاحبة الصديق الشجاع فتحى جرادات والحاج نادى، مختار «سعير» المتوّج، اللذين يُشكّلان كورالاً، يزيد نشازهما فى الغناء... فى تواصل ضحكنا.. الذى غالبًا ما ينتهى بصمت عميق!

وهل تذكر باسم يا إبراهيم؟!

ذلك الشاب «المشخّصاتى» الذى كان يقلّد أشهر ممثلى السينما المصرية، وخصوصًا توفيق الدقن؛ بصوته الأجش، وسخريته النهارية المحمولة على المفارقة، واللعب على ملامح وجهه وتنغيم صوته.. كان باسم شديد الحزن، لكنه يفتح ستارة مسرحه وسط الخيمة، كُلّما طاب وحى الموقف. كان يبدأ بتقليد محمود المليجى، ويُغنى كما يفعل فريد الأطرش، بكاريكاتورية صوتيّة مبالغ فيها، ويتقمص عادل إمام وإسماعيل ياسين، وغيرهم.. ويُنهى عرضه بتوفيق الدقن. حتى نسى المعتقلون اسم باسم الحقيقى، وصاروا ينادونه بـ «توفيق الدقن».

لقد خشينا، كثيراً، من الموت ضحكًا، عندما كان ينفجر باسم العنبتى، وهو يقدم لنا أفلامه المجّانية، كلما كانت المناسبة مواتية، والتى أحيانًا، يجعل أحد المعتقلين المسؤولين بطلاً لواحدٍ منها، فيُسقط على لسانه وحركاته شهواتنا ورغباتنا... وأحلامنا المكبوتة.

أين العَنبتى؟

إننى أفتقد، جداً، توفيق الدقن، يا إبراهيم.

بل، أين أنت الآن يا إبراهيم؟ إنّ صوتك ما زال يُجَنّح فى فضائى كلما ذهبتُ وحدى إلى وحدى! وكيف أحوالك يا أحمدِ عديلة، يا مَنْ كنت تغسل الملابس الداخلية للمرضى وتطعمهم بيديك أنتَ وجمال الديك كأنهم أبناؤكم القاصرون؟

وهل تذكر يا إبراهيم ليلة نبهان خريشة المزدوجة؟

كان نبهان خريشة شاويشًا لقسم ٤، عندما لم يستطع «بكر المبسوط» الجلوس ساعة العدد على «مؤخرته»! فظل الضابط والجنود واقفين على باب القسم، ولمّا استفسروا عن «رفض» هذا المعتقل الجلوس.. لم يتمكن نبهان من أن يشرح للضابط مأساة «الباسور» التى داهمت بكر هذا، ومنعه النزيف من الجلوس.. لكن الضابط لم

يفهم على نبهان لضعف لغته العبرية.. وأخيراً، قال نبهان للضابط إن لديه مشكلة فى مؤخرته.. ولمّا ضحك الضابط.. كان الدم قد غطى أرضية الساحة. وسُمح لبكر المبسوط أن يقف ساعة العدد والدم يقطر منه.. بعدها أمضى الأطباء المعتقلون ساعة كاملة، وهم يعبثون بـ «قاعدة» بكر المبسوط الذى آلمه الباسور حتى الصراخ.

وللتسرية عن بكر أقام المعتقلون حفلة على شرف باسوره.. فسمع الضابط الغناء! فنادى الشاويش نبهان خريشة مستفسراً منه عن سبب الغناء الممنوع... فقال له نبهان: إن المعتقلين يحتفلون بعيد ميلاد أبو هريرة!

– مَنْ أبو هريرة هذا يا نبهان؟

شرح نبهان للضابط مَنْ هو أبو هريرة.. ومضى، وبعد نصف ساعة ارتفع صوت الغناء.. فهرع الضابط يلوم نبهان ويحذّره، فقال له نبهان: إنهم يحتفلون بعيد طهور أبى ذرّ الغفارى!

– مَنْ أبو ذرّ هذا يا نبهان؟

حاول نبهان أن يشرح الأمر للضابط، لكن أغنية «غلاّبة يا فتح» فضحت نبهان. وبان الأمر.. وسمع الضابط كلمة «فتح» فأخذ نبهان إلى الزنزانة مصحوباً بتهمتين، الأولى: الضحك على الإدارة بحجة مشكلة «باسور» بكر، والثانية: الاحتفال بأعياد ميلاد رجالات «فتح»، وهما أبو هريرة وأبو ذرّ الغفارى!

ذهبت إلى عيادة بكر فى خيمته، فوجدته مبطوحًا على بطنه، يئنّ من الألم، ويضحك من التعليقات التى يسمعها من الأصدقاء: (سلامة قفاك يا بكر) (إن شاء الله قفا «إيتسك» ولا قفاك) – وإيتسك ضابط أمن طويل القامة، أنيق، يحمل عصا الجنرالات دائمًا، يضع نظارته الشمسية ليل نهار، لا يبتسم، كأنه مصنوع من الشمع.. لكنه لا يرحم! وهو نموذج للرجل الأبيض الدموى المُهلك–.

– كيف وضعك يا بكر؟ وبكر بلدياتي، كلانا من قلقيلية.. يهمس لي بكر بأن «أبو الهزاع» و«أبو على شريم» وبقية شباب البلد معتقلون.. ووصلوا اليوم إلى القسم الثاني!

أبو الهزاع؟

أحمد هزاع شريم، أمضى عشرين عامًا، غير منقوصات، فى سجون الاحتلال، امتدت من شتاء ١٩٦٨ حتى شتاء ١٩٨٨، وكان إفراجه فى ذروة الانتفاضة، وبعد عشرين عامًا، هى السنوات الطويلة المليئة بالعذاب والفجائع، خرج أبو الهزّاع ليجدد نضاله ونشاطه الوطنى فاعتقلته إسرائيل.. واحتمل عتاب خطيبته التى عليها أن تنتظره أكثر.. كأن عشرين عامًا لم تكن كافية، للاستعداد وإتمام الزواج.

كانت كافية يا أحمد تلك السنوات، ولم يكن ليعتب عليك أحد، لو استرحت قليلاً، وتزوّجت لترى ابنك قبل أن تخونك الأيام تمامًا!

أمّا وريث سيدنا أيوب فى القرن العشرين، وأعنى أبا على شريم فقد أمضى ثمانية عشر عامًا فى سجون الاحتلال، وها هو يعود إلى السجن صابرًا راسخًا، كأنه جبل صلد لا تهزه القيود، ولا تخيفه الزنازين والجنود! فكيف لنا ألاّ نصبر ونقاوم ونغنّى.. ونحن فى حضرة هذه الآلاف المؤلفة من مخضرمى النضال والكفاح والصبر الواعى المطمئن!

* * *

اشتدّ الألم على بكر، حتى اضطررنا إلى أن نبقى حوله طيلة الليل، ولا أمل فى نقله إلى أى مشفى، لأن العلاج المتاح فى السجن هو إعطاء المريض حبّة «أكامول» أو «أسبرين».. وفى أقصى الحالات يتم إعطاء المريض شريطًا من كبسولات المضاد الحيوى «الأنتى بيوتيك». لكننا، وبعد مراجعة الطبيبين ثابت الثابت وسعيد الطريفى، وجدنا ضالتنا لعلاج بكر بوساطة «طشت» ماء ساخن!

فنادينا على «المختار» مسؤول المطبخ والصيانة فى الأقسام الأخ قدورة موسى، ابن جنين، الذى لا يهدأ ولا ينام، وهو يدور من قسم إلى آخر يتفقد الماء والنظافة وكميات الطعام وأمور الصندوق، وما يحتويه من صابون ودخان.. والذى كان يُهَرِّب، بطريقته، راديو صغيراً، لكل قسم، وكميات إضافية من الدخان والطعام.. وبالطبع كان قدورة ضابط الارتباط السريّ بين كل أقسام المعتقل!

- أحضر لنا ماءً ساخنًا من المطبخ يا أبا موسى! فيسارع قدورة موسى بضحكته الطازجة حاملاً «طشت» ماء يغلى.. ويترك الباقى للطبيبين ثابت وسعيد.. وبالمناسبة فهما طبيبا أسنان!

* * *

وإذا غاب قدورة أبو موسى، أو كان مشغولاً فى مطبخ المعتقل، ولا بُدّ من بعث رسالة من قسم إلى آخر، فثمة طريقة «الحمام الزاجل» أو «الصحون الطائرة» حيث يتم لفّ الرسالة وربطها بحجر أو بقطع ملبّدة من لبّ الخبز.. ورميها بأقصى قوة إلى القسم الآخر.. ودائمًا هناك شخص مكلّف بالتقاط الرسالة وتسليمها للجنة القسم الوطنية..!

إذ إن لكل قسم «لجنة وطنية» أو «لجنة نضالية» تتكون من ممثل لكل فصيل (فتح، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، الحزب الشيوعى الذى أصبح حزب الشعب) وهى أعلى لجنة مسؤولة عن كل شىء داخل القسم، ولها مرجعية تزوّدها بتعليمات دورية، غالبًا ما تكون أُسبوعية. والمرجعية هى «اللجنة النضالية العليا» المكونة من الفصائل الأربعة المذكورة، ويكون ممثل حركة فتح منسقًا للجنة العليا، ولجنة القسم... لأن أكثر من نصف المعتقلين ينتمون، أو أنصار، لحركة فتح.

ويقوم كل فصيل بتسمية أو فرز ممثليه للّجان الوطنية فى الأقسام، وكذلك ممثله فى اللجنة العليا.

وتكون لكل لجنة نضالية فى كل قسم لجان فرعية تشرف على كل صغيرة وكبيرة، تبدأ من الطعام وتوزيعه، مروراً بالنشاطات والفاعليات، وانتهاءً بإصدار البيانات والتعليمات المحلية، والضبط والرقابة الأمنية.

ثم إنّ لكل فصيل لجانه الخاصة، وغالبًا ما تتركز حول التنظيم والأمن. عدا أن لكل فصيل لجنته المركزية على مستوى كل المعتقل، ولجنة تنظيمية على مستوى القسم، ويتم انتخاب هذه اللجان التنظيمية بطريقة الاقتراع السرّى والمباشر، وبشرط منع الترشيح، بمعنى أن على كل مَنْ ينتمى لحركة «فتح»، مثلاً، أن ينتقى أو يرشّح سبعة أشخاص ليكونوا لجنة مركزية.. ومَنْ يُجمع عليهم المعتقلون الفتحاويون تتم تسميتهم كلجنة مركزية للحركة فى المعتقل، ويتم تكليف كل عضو لجنة مركزية ليكون مسؤولاً عن قطاع من القطاعات التالية: الأمن، الثقافة، التنظيم والتعبئة والتوجيه، اللجنة العليا، النشاطات، الاتصال والإعلام، التموين أو الصندوق.. إلخ.

أما الإخوة فى «الاتجاه الإسلامى» فكانوا خليطًا من عدة مجموعات، هى الاخوان المسلمون، الجهاد الإسلامى، حزب التحرير.. ولم تكن «حماس» قد اشتدّ عودها بعد، ولم ينتظم أعضاؤها فى هرميّة تنظيمية لها حضورها وفاعليتها، رغم أن الأشقاء فى الاتجاه الإسلامى، كانوا يتميزون بالشجاعة والالتزام والانضباط العالى، وساهموا مساهمة طيّبة فى تمتين جبهة المعتقلين فى صراعهم مع إدارة المعتقل.

* * *

كأنى رأيته وهو يهبط من البدر المكتمل الموشّح، بثيابه البيضاء، الموشّاة ببقع الأرجوان المقدّس، وقدميه الناعمتين اللتين مرّرت المجدلية ضفائرها عليهما!

كان شفيفًا، عملاقًا، كان شَعره مخضلاً بالمياه، يضفضف ويضىء.. فتح ذراعيه، كأنه ما زال مصلوبًا، فتنزل سحابتا أردانه حتى تلامسا الرمل.. يا سيدى البهىّ المخذول بقُبلة الخيانة اللئيمة! عُدْ إلى أبراج السماوات، واهتف للعلىّ المجيد، الذى

يرانا.. ليمسح عن وجهك دموع المعتقلين البسطاء، واقرأ بشارتك النافذة، في هذه البراري القاسية؛ بأنك جئت لتلقي سيفًا، في قلب الرمل.. لعلّ صغارنا يدخلون – الآن – باب العامود، ويدلفون بأناشيدهم الصغيرة، إلى طريق الآلام.. فلا يُصعّرون خدودهم، بل يكسرون صليبهم، ويرمون تيجان الشوك.. وينظرون إلى الأعالي، التي تُسبّح لمجد أمواه القلوب، التي تغسل الطريق من غبار الجنود.. الذاهبين، وحدهم إلى الجلجلة.. ويعلو قُدّاس الحياة واليمام.. في كل الأزقة والأجراس.. والنداءات الخاشعة.. يا ابن البتول! لن يتمكّنوا منك ثانيةً، فاذهب، على مهل.. إلى غبش الخشوع والملائك الساهرين..

* * *

في صيف ١٩٨٨، أعلمتنا إدارة السجن بزيارة «وزير الدفاع الإسرائيلي إسحق رابين» للمعتقل!

ورابين هذا هو الذي أمر بتحطيم وتكسير أيدي وأطراف المنتفضين، فما العمل؟ هل نقابله؟ هل نتظاهر في الأقسام؟ ماذا نردد؟ هل نرشقه بالحجارة وقطع الصابون؟ هل يهجم عليه ثلاثة من حاملي شفرات الحلاقة، ويمزّقون وجهه؟

(لكن إدارة السجن جمعت شفرات الحلاقة قبل يومين، ومثلما تسلّم شاويش القسم ١٢ شفرة، عليه أن يسلّمها ١٢ شفرة... وإلاّ تقوم الدنيا ولا تقعد) إذًا، ما العمل؟

أجمع المخضرمون وأعضاء اللجان الوطنية والفصائل، بعد طول نقاش وحوار... على تشكيل لجنة لمقابلته، وطرح مجموعة من القضايا عليه، وتم تشكيل اللجنة من: لؤي عبده، أبي الرامز، بدران جابر، موسى أبي صبحة، محمد الحوراني، أبي بشار، سامي الكيلاني، عز الدين العريان، نايف سويطات، جمال الديك، بلال الشخشير، ثابت الثابت، كامل جبيل، رضوان زيادة، وكنتُ معهم.

دخل رابين محاطًا بأكثر من ثلاثين جنديًا مدجّجًا –من القوات الخاصة على ما يبدو، لاختلاف لباسهم والشعار على أكتافهم وطواقيهم– جلس في أول خيمة، في قسم ٣،

وسُمح للمعتقلين أن يقتربوا، دون أن ينبسوا ببنت شفة! وحاول رابين أن يبرر إجراءات وزارة الحرب التى يقودها بشراسة وساديّة ضد الأطفال والناس العُزّل.. والجميع صامت... وعندما انتهى هزّ رأسه، كأنه ينتظر سماع شيء ما..

بدأ لؤى عبده الحديث باللغة العبرية، بثقة واتزان ووضوح، وافتتح حديثه الموجه إلى رابين بقوله: إن إجراءات الاحتلال هى إجراءات فاشية نازيّة، وإننا سنمضى قدماً فى الانتفاضة حتى نتخلّص منكم (الاحتلال)، وإذا أردتم أن تتفاوضوا معنا، فإن لنا ممثلاً شرعيًا وحيداً موجوداً فى تونس، اذهبوا -إذا أردتم التفاوض- إليه فى تونس، فهناك لنا رئيس اسمه ياسر عرفات، وأعتقد أنك يا سيّد رابين تعرفه جيداً... فى «الكرامة» عرفه موشيه ديان، وفى بيروت عرفه بيغن وشارون، إلخ.

واستيقظنا صبيحة اليوم التالى، فلم نجد لؤى عبده ولا بلال الشخشير ولا رضوان زيادة (الذى توفى بعد إبعاده بعامين فى غربته.. بعمّان)... لقد تم إخراجهم من القسم منتصف الليل، ليكونوا خارج فلسطين، مُبْعدين... مع آلاف المُبْعَدِين الآخرين!

* * *

ربما، كان لا بُدّ من الدم، حتى تكتمل التفاحة أو البرتقالة أو البيضة، وحتى يكفّ الجنود المدججون عن ركلنا وصفعنا، بسبب أو دون سبب! كان ذلك، عزّ ظهر يوم ١٦ / ٨/ ١٩٨٨، حيث كان الجنود يسحبون معتقلاً إلى الزنزانة، ولشدّة ضربه، غطى دمُه كاملَ وجهه.. ولّما كانت السياج لا تمنع الرؤية، احتجّ بعض المعتقلين بالصراخ:

الله أكبر.. وما هى إلاّ ثانية أو أقل حتّى كانت «الله أكبر» تخرج من سبعة آلاف فم زلزلت الصحراء.. فيما ذهب المعتقلون يبحثون بين الرمل عن الحجارة والحصى، وحمل بعضهم قطع الصابون والأحذية... وألقوا كل شيء على الجنود الذين فتحوا النار عشوائيًا على كل الأقسام، بصورة هستيرية، وبدأ الجنود المنتشرون فى طرقات الأقسام فتح فوهات مدافع الغاز... وظهر المسؤول الأول عن معسكر كتسيعوت «أنصار ٣» العقيد تسيمح ورأى ما رأى، فتناول بندقية «الأم سكستين» من أحد

الجنود، وصوّب نحو المعتقلين... وغطّت سماء المعتقل غيوم الغاز الخانق... فارتمى معظم المعتقلين أرضًا، يسعلون ويعطسون... وهدأ الرصاص... وبعد نصف ساعة، انجلى المشهد، فرأينا المدافع والدبابات الثقيلة، توجّه فوهاتها الكبيرة الغليظة باتجاه الأقسام... وأمر ضباط، لم نرهم من قبل، أن نحمل الجرحى ونضعهم أمام بوابات الأقسام، لنقلهم إلى المستشفى، ففعل المعتقلون، وحمل الجنود الجرحى والمصابين إلى مكان قيل لنا إنه عيادة السجن... وبعد ساعتين، نادى ضابط السجن على الأخ منير العبوشي الذى كان شاويش القسم، كما كان ممثلاً للمعتقلين، وعلى الأخوين عبد الله ياغى وسالم أبى صالح شاويشىّ القسمين اللذين استشهد فيهما اثنان من المعتقلين.. وأبلغوهم أن الشهيدين هما بسام السمودى وأسعد الشوّا... أعلن المعتقلون الإضراب عن الطعام، حداداً واحتجاجًا.. وليستمر المعتقلون تسعة أيام دون طعام، حتى استجابت إدارة السجن إلى بعض مطالبهم، فكان أن أصبح نصف التفاحة تفاحة كاملة، ومُنِعَ الجنود من ضرب السجين أمام زملائه، وتم تبديل «بُرش» البلاستيك بسرير خشبى يُسمى «مشتاح»؛ وهو ألواح خشبية متباعدة.. وتكسر الظهر، عند النوم!، وتمت زيادة كمية الطعام، وإدخال القهوة وجبة أسبوعية!!

* * *

هل تنفست الصعداء لأن العناية الإلهية حرستك من الرصاص؟ آه أيها الجبان.. لقد انكشفتَ.. إنّك تخاف الموت!!

– لا.. ألم ترنى، والرصاص المجنون يئزّ حولى، بقيت واقفًا، أو منحازًا لنقل بعض المرضى إلى داخل الخيام، حتى لا يموتوا خنقًا أو رصاصًا؟!!

لكنك سعيد بأنك ما زلت حيّا، بل إنك ستدّعى البطولة، وأن الموت لا يهمك..! على كل حال احمدْ ربّك، لأنك كنت مشغولاً ساعة زلزال الرصاص.. ولو فكرتَ لحظةً باحتمال موتك لسقطتَ ميتًا! ألم تسمع المثل القائل: إنّ مَنْ يخشى الذئب.. فإنه يراه.. ستراه يا صديقى.. ستراه! انتظر..

* * *

بعد شهر تقريبًا، استطاع الفارس الشجاع، المناضل الشاعر توفيق زيّاد من زيارتنا في قلب «أنصار ٣»، كان وقتها عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي)، جاء... وشدّ على أيدينا، وسمع مطالبنا، وعلا صوت احتجاجه.. وودّعنا وهو يلوّح بقبضته، وهو يقول: سننتصر... سننتصر! وسمعنا صوتَ هذا النورس الأسمر، وهو يصرخ في وجه «تسيمح» القاتل... وسمعناه، وكأنّا به يهتف بقصيدته «مليون شمس في دمي» التي يقول فيها:

سلبوني الماء، والزيتَ، وملح الأرغفةْ وشعاع الشمس، والبحر، وطعم المعرفةْ وحبيبًا – منذ عشرين – مضى أتمنى لحظةً أن أعطفَهْ سلبوني كل شيءٍ: عتبة البيت، وزهر الشرفَةْ سلبوني كل شيءٍ غيرَ قلبٍ، وضميرٍ، وشَفَهْ!!

كبريائي، وأنا في قيدِهم، أعنف من كل جنون العجرفةْ في دمي مليون شمس تتحدّى الظُّلَمَ المختلفةْ وأنا أقتحم السبعَ السماوات بحبي لكَ.. يا شعبَ المآسي المُسرفَةْ فأنا.. ابنكَ.. من صلْبكَ قلبًا، وضميرًا، وشَفَهْ!!

يَدُنا ثابتةٌ.. ثابتةٌ ويَدُ الظالمِ، مهما ثبتت، مرتجفَهْ!!

بعده جاء عدد من أعضاء الكنيست العرب منهم: محمد ميعاري، وعبد الوهاب دراوشة، وأعضاء من حزب «راتس» اليساري، قبل أن يصبح اسمه «ميرتس». وبدأ المحامون زيارتنا، واستطعنا، لأوّل مرّة، بوساطة المحامين، أن نتخارج مع الأهل، ومع المدن المشتعلة التي يضيء نشيدُها ودمُها شمسَ الله ونجومَه!

وهنا، لا بُدّ من ذكر المحامي الإنسان محمد كيوان، ابن أم الفحم الذي كان جنديًا مجهولاً في دفاعه المستميت عن المعتقلين، وتقديم ما أمكن لهم... رحمه الله! لقد استشهد وهو يحرث أرض أم الفحم لتظلّ عربية!

وهو الذي حمل قصيدة «ونحن سواء» التي كنتُ كتبتها للأخوات المعتقلات والأسيرات.

* * *

المرّة الأولى التى سمحت فيها إدارة معتقل «كتسيعوت» للصليب الأحمر بزيارتنا، كانت فى نهاية أيار ١٩٨٨، حيث دخلت امرأة سويسرية وشاب فرنسى، كوفد من الصليب الأحمر ليسمعا مطالبنا، ويطمئنا على أحوالنا.

قابلهما الإخوة الحورانى، وأبو صبحة، والضميرى والبكرى وأنا فى إحدى خيمات قسم «١»، وحاولنا أن نشرح لهما كل شىء، وقدّمنا لهما قائمة مطالبنا المشروعة، التى تبدأ بتحسين شروط اعتقالنا، ومروراً بحقّنا فى زيارة الأهل لنا وكذلك المحامون، وانتهاء بحقنا فى توفير الصحف اليومية والكتب والقرطاسية، إلخ.

كانت الأقلام معدومة، وكذلك الأوراق! لكن الشاب الفرنسى ذاك، نسى عمداً قلمَه لنا، فيما تركت الفتاةُ السويسرية دفترَها الصغير.. ربما استشعرا المحيط المرعب الذى يلفّنا.. فتعاطفا معنا!

بعد شهر، أو أقل، جاءت سيّارة كبيرة محمّلة بالكتب والورق الأبيض والأقلام والمساطر.. مع وفد من الصليب الأحمر، وبدأوا -على مرأى من الجنود- يوزّعون على الأقسام هذه الحمولة التى رقصنا لها! وأخبرونا: بإمكانكم أن تكتبوا الرسائل الشهرية إلى أُسركم... رغم أن إدارة السجن ستراقب كل الرسائل قبل أن نوصلها إلى البريد، لتصل إلى أهاليكم!!

عندها، استطاع المعتقلون أن يقرأوا جيداً قصص وروايات غسان كنفانى، وسميرة عزام، وإميل حبيبى، وأشعار محمود درويش، وسميح القاسم، وفدوى طوقان، وكمال ناصر.. وأن يحفظوا الكثير منها، وأن يناقشوا، لاحقًا، فى الجلسات الثقافية مضامينها وصورها وأشكالها الفنية! وبدأوا يتعرّفون على الوجه الآخر للقائد صلاح خلف «أبو إياد» من خلال كتابه «فلسطينى بلا هوية».

* * *

المباح قليل، والمسكوت عنه لا يُحصى! فكيف ستشرح أوجاعك، أيها المتأجج بكيمياء الرغبة، ولمسة البركان المهيب؟

وكيف ستجوح والبكاء عيب في كتابنا المهترئ؟ وكيف لك أن تقذف كل الزجاج المشروخ الذي يُدمي رئتيك؟ وهل تستطيع أن تمارس عادات الجنّ المخفيّ، أو الحصان الذي يشمّ ضفيرة الفرس تحت شمس اللوز، في البراري المفتوحة، للصهيل والنحل والفَراش الموعود بالنار؟

يتحلّقون حول بعضهم البعض.. فتأخذهم اللغة الجمعيّة إلى منابرها وإيقاعاتها الجاهزة.. ومع الشروق والمغيب، يتحللون من ربقة الكلام المُعلّب.. وينسلّون، بخفوت وتكتّم، إلى الحكايا، والليالي العاصفة بالنبيذ والشهيق البعيد!

فهل يكتفون؟

إن الغَزَل، والمبالغةَ في عبادة غلالات الليل وبنات حواء، هو آلية تعويض! مثلما تشرح النكاتُ الساخرةُ حالةَ اللارضى، والاحتجاج السلبي، على ما يدور!.. ودائماً ثمة لغة أخرى، تجدها في قاع المدينة، أو على جدران المراحيض العامة والحيطان.

وهنا في «أنصار٣»، لغة أخرى أيضاً، تهمس بفحيحها وخريرها، في كل الزوايا، ما يشير إلى أن هذه المجاميع هي مجتمع آخر، له مواصفات البلد.. وآه يا بلد!

* * *

وماذا عن الصحف أيها الصليب الطيّب؟!

بعد يومين بدأت إدارة السجن توزيع صحيفة لكل معتقل!

والصحيفة هي «كولاج» مكون من أخبار مقصوصة من صحف عبرية وعربية وإنجليزية.. تم مونتاجها على أربع صفحات، وتصويرها عدة نسخ... وتوزيعها على

المعتقلين!! وبالتأكيد، فإن الأخبار المُنتجة والمدبلجة، تتحدث كلّها بلسان إسرائيل وتطعن فى خاصرتنا!

ولمّا سأل شاويش القسم ضابط السجن عن جدوى هذه الصحيفة، التى لا يقرأها أحد قال الضابط: ألا يقرأها واحد من كل ألف، فقال الشاويش: ممكن... فقال الضابط: إذا استطعنا أن نؤثر كل يوم فى سبعة معتقلين، فهذا يكفينا..

* * *

ما الذى جاء بك، إلى هذا الجحيم؟ أما كان بإمكانك أن تتوارى قليلاً، عن عين النار؟ لماذا كنتَ مندفعًا لتكون ساترًا تحمى المدينة؟ هل أنتَ المسيح الذى سيفدى البلد.. وتبكى أُمّهُ؟! أم أنتَ حارس أحلام الأسوار والأغانى؟ كان بمقدورك أن تتشاغل بعملك وأكل عيشك!

وكان سيتمّ ذلك بدعوى أن هاجسك الحرف وليس السيف!

بل إنك تخشى من أن يكون كل هذا الألم والصراخ والدم، عبثيًا ومجانيًا.. فلماذا العذاب، إذًا؟

وغداً، ماذا ستفيد وتستفيد؟ بل ستخرج، إنْ خرجتَ حيًا، إلى رتابة الفراغ والعادة المقيتة! وستكون، فى أحسن الأحوال، واحداً من آلاف مؤلّفة.. ولن تتمايز عنهم.. فلماذا لم توفّر على نفسك، هذا الجنون والذلّ، والموت الساقط مع الشمس القاهرة أو النجم البارد؟!

– ماذا تقول يا رجل؟

هل سمعك أحدٌ غيرك؟ أُسكت! فأنتَ الآن رجل حقيقى، وتستطيع أن ترفع رأسك جيداً، وأنتَ تطأ الأرض كالنمر الواثق، ولا بأس إنْ ارتفع صوتك فى الجلسات، فأنتَ الآن معتقل!!

وسينقلب تاج الرمل هذا إلى هالة من الطمأنينة والرسوخ والمجد.

اعتدلْ فى جلستك! واسمع ما يقوله الآخرون.. فلقد ذهبتَ بعيداً، وتركتهم حولك، كأنّ طيراً عظيماً قد حملك إلى سماوات الظلام.. لكنك تعود الآن إلى دائرة الأصدقاء الساطعة.. فلا تنطفئ، وابدأ كلامك من نهايته.. عليك اللعنة!

* * *

كنتُ وقتها شاويشاً لقسم «١»، عندما أصدر «إيتسيك» قراراً يقضى بأن نطأطئ رؤوسنا وقت «العدد»، ولما أبلغتُه أمام المعتقلين أننا نرفض هذا الطلب. هزّ رأسه، وضرب عصاه بيده.. ومضى!

عند مغرب اليوم الثانى أخذونى إلى الزنزانة الضيّقة، الموضوعة بجانب ثلاث زنازين أخرى، هى كلها زنازين جاهزة، مكوّنة من بناء أسمنتى وأرضيتها مُغطّاة بكميات كبيرة من الجير «الشيد»، عرضها متر وطولها ثلاثة أمتار، لها بوابة حديدية سميكة... أخذونى، وأدخلونى إلى الزنزانة... وربطوا رجلىّ بكلبشة... ويدىّ خلف ظهرى بكلبشة أخرى، ورمونى على أرض الزنزانة وربطوا كلبشة رجلىّ وكلبشة يدىّ بكلبشة جديدة... هذه تسمى «ربطة الموزة»، حيث يتكور الشخص مثل الهلال، ووقعت الهراوات على كل جسمى، فهل أصرخ أم أحتمل وأصمت؟!

إذا صرخت، فإن هذا معيب لى، بصفتى شاعراً ورئيس اتحاد كتّاب فلسطين، وستهبط معنويات المعتقلين الذين ينظرون إلينا كقيادة للمعتقل!

وإذا احتملتُ وسكتّ، فإن هذا سيجعل الجنود يطمعون فى ضربى، وسيقولون فى أنفسهم: إن هذا لا يحسّ... فاضربوه!!

* * *

ماذا لو متّ؟ وجاءك ملاك الموت؟

ابدأ من أول المشهد، ولا تنس شيئًا سيندفع الخبر الصاعق بين الجموع..!

هل تتخيّل المشهد جيداً؟ أكمل إذاً.. ستجتمع اللجنة النضالية، وستلتقى إدارة المعتقل، لترتيب نقل جثمانك.. وسيحملونك وحيداً إلى أهلك.. توقف! كيف سيخرج أهلك لاستقبال موتك؟ وكيف سيصوّحون المدينة بصراخهم المفجوع..

.. وزوجتك، وأولادك، وأمك، وأشقاؤك، وأصدقاؤك.. والجنازة.. وبيت العزاء..

ترفع يديك، فتمسح دمعة حزنكَ على موتك! وعزاؤك أنك ما زلتَ حيّاً!

ولكن! لماذا يتكرر هذا المشهد؟ اللعنة..

* * *

ما زلت أحتفظ باللوحة التى رسمها لى (سائد حلمى)، على «بلوزة» بيضاء، أو قميص داخلى، كان أحد قطع الملابس الداخلية التى بدأت تصل إلينا عبر المحامين، من الأهل أو الصليب الأحمر.

كنتُ معجبًا بسائد حلمى، هذا الفتى الهادئ الصبور، الذى أمضى فترة اعتقاله فى الرسم على الفالينات، هدية منه للمعتقلين، شرط أن يُقدَّم له بالمقابل إطار صورة، يُصنع من الكرتون والنايلون، ويتم تثبيته بخيوط ملوّنة، وله إطار معدنى خفيف، هو ما يتبقى من أغلفة أنابيب معاجين الأسنان والحلاقة. كانت اللوحة بانوراما لوحدات المعتقل، وفى داخلها الأقسام والساحات والوجوه الغاضبة، وقبضة كبيرة تشقّ كل هذا الوجود، تشعّ من حولها الشمس.

ولعل سائد ابن مخيم العروب الواقع شمال مدينة الخليل، لم يكن خريج معهد للفنون الجميلة، لكنه كان علامة فارقة، طالما اعتمدنا عليها فى رسم لوحات، وتخطيط

شعارات، نزيّن بها ساحة أحد الأقسام، لتكون جزءاً من احتفالاتنا بالمناسبات الوطنية أو الدينية، والتى، دائمًا، كانت تنتهى باقتحام الجنود للقسم، ومصادرة كل المُعلّقات و«زنزنة» عدد من المعتقلين!

وفى إحدى المرات، كان على رأس حملة الاقتحام نائب مدير المعتقل، وكان ضابطًا يهوديًا من أصل ليبى واسمه «ألبرت»، كان يتحدث العربية، ويعرف مزاج العرب وعاداتهم وطقوس حياتهم.. وعندما رأى إحدى لوحات سائد.. خرج من فمه صفير إعجاب حقيقى! وغمغم قائلاً: إنكم مصممون على الحياة يا أولاد الكلب! لكن كامل جبيل، الذى كان وقتها شاويش القسم، ردّ له شتيمته بأحسن منها.. فبلع ألبرت الشتيمة.. ومضى!

فى الوحدة «ج» القسم الثانى، وفى خيمة رقم ٥٣، كان عبد الله علاونة «أبو الأمجد» ينام على بُرشه، وفوق رأسه تتدلى مُعلّقة سائد حلمى، لقد كانت لوحة لشهيد يضىء بدمه آلافًا مؤلّفة، يحملونه كالراية، فى مسيرة هادرة!

ما هذا يا أبا الأمجد؟

– إنها لوحة.. وعلينا أن مُجنّل كل شىء، حيث نقيم.. حتى أحزاننا.. وعندما دخل الجنود، فى ساعة شؤم إلى القسم، لمصادرة الشعارات واللوحات، صادروا لوحة أبى الأمجد.. فبكى، وكان إفراجه فى اليوم الثانى، وكان ينوى حمل تلك اللوحة تذكاراً معه إلى البيت. لكنه حمل معناها الساطع، فما أن وصل إلى جبع، قريته الواقعة جنوب جنين، حتى تماهى فى تظاهرة اصطدمت مع جنود الموت... وراح الرصاص ينخل جسده، حتى رسم، فى اليوم الثانى، وفى شوارع جبع، لوحة سائد بنبضها وحيويتها ودمها الحقيقى.

* * *

لن يصدّقنى أحد..!

- لماذا؟

لأننى رأيته..

- رأيتَ مَنْ؟

رأيت الذئب نفسه، ثانيةً، كان ينظر إلىّ من خلف السياج، كان، كما رأيته أول مرّة، هرماً متهدّلاً، والدمع يبرق فى عينيه.. وكأن الجنود لم يروه أو يحسّوا بوجوده!!

- ألم يره أحد غيرك؟

ربما، لا أدرى.. لكننى رأيته.. أقسم لك.. وبعد أن وقف مليّا متجمداً ينظر إلىّ، لفّ دورة كاملة.. وابتلعه الظلام..

- ربما تهيؤات يا صديقى.. لا، وسأنتظره الليلة، فإنه سيعود!

بعد ساعة أو ساعتين، جاء صديقى، وأيقظنى بانفعال، وسحبنى خارج الخيمة، فرأيت الذئب كما وصفه لى صديقى، غير أن ذئبًا صغيراً يقطر الدم من عنقه المذبوح، كان مُعلّقًا بين فكيّ الذئب الذى.. ما أنْ رآنى حتى عاد بهدوء من حيث أتى..

* * *

فى شهر تموز ١٩٨٨، أدخل الصليب الأحمر، رقع الشطرنج، والزهر (الشيش بيش والـ ٣١) إلى أقسام السجن، فوجد عدد كبير من المعتقلين ضالتهم فى قتل الوقت، وتمضية ساعات الرمل الثقيلة. وأدخلت إدارة السجن «المقاشات» (صوانٍ بلاستيكية مستطيلة لسكب الطعام فى مربعاتها التى تفصلها خطوط بارزة) وأدخلت «القعارات» (صحون بلاستيكية كبيرة الحجم، قد تتسع لثلاثة ليترات من الماء).. فاجترح المعتقلون لاستغلال هذه «القعاراه» معجزاتٍ مضحكة، أولّها أنهم قطّعوا الخبز إلى مربعات صغيرة فى القعاراه، وسكبوا كؤوس الشاى على الخبز حتى يرنخ، ثم يضعون قطعة المرجرينا «الزبدة» على سطح الخبز، ثم يقطعون أصابع الموز فوق كل ذلك،

ويعصرون برتقالة أو اثنتين، ويتركونها قليلاً.. ثم ينقضّون عليها! وهم يفعلون ذلك، كعملية احتيال لإيجاد وجبة جديدة يسكتون بها نداء أمعائهم الخاوية. أما أبو عاصف البرغوثي وأبو محمود السلوادي، فلهما طريقة أخرى في استغلال «القعاراه»، حيث يدلحون فيها كمية الرز والشوربة وقطع الخبز وحبات الزيتون وشقفة المرجرينا والشاي.. دفعة واحدة، ثم يحركون بملاعقهم البلاستيكية هذه الخلطة.. ويبدؤون التهام «القعاراه» وما فيها! وفتحي جرادات يجحظ بعينيه، ويفركهما.. غير مصدّق ما يرى!

* * *

مرّ أُسبوع، ولم يدخل بطوننا سوى الماء والملح.. وربما سيطول الإضراب عن الطعام.. وهنا تتفتق خيالات المعتقلين عن «أكلات» عجيبة! وقد هدّهم الجوع!

وفي هذه الأثناء، تتأكد من أن الله، عز وجل، لم يُخضع الإنسان إلاّ بالجوع أولاً.. ثم بالنار والويل والثبور.. يجلس المعتقلون، يتذكر كل منهم ألذ طبخة، وأطيب طعام... فيقول قائل: تخيلوا لو أن الله ينزل علينا طنجرة ملفوف أو محشي!

ويقول آخر: تخيلوا أن «منسفًا» أمامنا الآن.. ماذا سنفعل به؟

ويقترح ثالث أن نتذكّر طبخة «المنزّلة» أو «البامية في الطابون مع لحمة رأس عصفور».

أما أغرب ما سمعت، أن معتقلاً تخيّل «مرج بني عامر» مليئًا بالرز المغطّى باللحم، وتمطر السماء «شوربة».. ونأكل بالمعاول!!

فيما رأى آخر أن برندة بيتهم مُغطاة بالكنافة.. فينزل من نافذة الشُّرفة، ويغطس في الكنافة.. أما الشيخ أحمد، فكان يدعو الله تعالى بأن يأمر الولدان المخلّدين، أن يهبطوا من الجنة، ويأتوا إلينا حاملين صواني اللحم والفاكهة والخمر الحلال.. وننام، وعلى أطراف أفواهنا بقايا ضحك ناشف، وما تبقى من صور اللحم والموز، وكلمات

تدعو لأبى الشمقمق... ولا سامحك الله يا ابن الرومى الذى تلمّظت أمام الزلابية العباسية الطافحة بالسمنة والسكر.. ولم تأكلها عنوة.. بالسيف.

دائمًا كُنا نضع جانبًا لبّ الخبز، ونلفّه فى كيس بلاستيكى، ليحتفظ بنعومته، ونلحف فى طلب تهريب رؤوس البصل من المطبخ.. وما أن ندخل الخيمة بعد العاشرة ليلاً، حتى يدفعنا الجوع إلى البحث عن أكياس الخبز وفحول البصل، ويكون عشاؤنا خبزًا وبصلاً.. وننام! وما أن نستيقظ صباحًا، حتى يكون «الفسفور» قد عبّأ الخيمة.. ويا سلام! على الروائح التى تفوح مع كل حركة، أو تحية أو تثاؤب كسول!

وغالبًا ما كُنّا نُطرّى لقمة الخبز والبصل بكأس شاى ساخن!

– كيف؟

كان بعض المعتقلين يتفنّنون بإتقان عمل الفتايل «بابور الورق»، حيث يحضرون لفافة ورق تواليت، ويفردونها.. ثم يغطّون سطح كل الورق بمادة المرجرين «الزبدة» ويعيدون لفّ الورق كما كان.. ويشعلون سطحها.. فتصبح مثل رأس الغاز! ثم يأتون بعلبة فارغة من مطبخ السجن، كانت إحدى المعلبات، ويجعلون لها يدًا من أسلاك تلتف حول عنق العلبة.. يدلحون فيها الشاى، ويحملونها مثل القنديل فوق اللفافة المشتعلة.. حتى يسخن الشاى.. وبعد حين صرنا نشرب القهوة الساخنة.. منتصف الليل، وفى الشتاء الذابح! تخيّلوا!!

* * *

محمد روحى الملقّب بـ «أبو سلاح» شاب وطنى وهادئ، يحبّ أشعار محمود درويش، والحديث عن أسرار النساء.. وطالما شربنا معًا الليالى مع القهوة، التى أعدنا تسخينها على «الفتيلة».. وكان أول مَنْ قرأ مسودات «فضاء الأُغنيات» ديوانى الشعرى الثانى فى المعتقل، بعد ديوان «زمن الصعود».. وكان قد اقترح علىّ أن أُسميه «جمهورية الخيام».

«.. أبو سلاح» هذا، كان يحمل، إحدى الليالى، علبة القهوة، المعلقة كالقنديل، فوق نار الفتيلة.. ولم ينتبه إلى أن القهوة كادت تتبخّر لكثرة تقلّبها على النار.. فأشرتُ إليه لينتبه..!

- أين سرحت يا أبا سلاح؟

ابتسم أبو سلاح، وأنزل قنديل الماء البنىّ من يده، وضرب كفًّا بكف.. وضحك، كأنه سمع نكتة طازجة!

- مالك يا أبا سلاح؟ أضحكنى معك.. قال «أبو سلاح»: نفسى أن أبطح الشحرورة وسط الشارع الرئيس الذى يقسم وحدات وأقسام المعتقل.. وأمام الجنود وكل المعتقلين.. أوقفها، وأخلع ملابسها قطعةً قطعة.. وأرفع... وأضعهما على... و... ضحكت.. وضربت كفًا بكفّ.. فيما تعالت ضحكات اثنين آخرين اعتقدت أنهما كانا نائمين.

- ما بكما تضحكان.. يا ملاعين!

اعتدلا فى جلستيهما.. وضحكا من جديد.. لقد كانا يحلمان أن يفعلا فى الشحرورة مثلما حلم أبو سلاح..

* * *

بعد عام تقريباً، من افتتاح هذا المعتقل الذى شطروه إلى نصفين، الأول لمعتقلى أبناء الضفة الغربية، والثانى لمعتقلى أبناء قطاع غزة، فى محاولة من إدارة السجن لتعميق الفصل، وعدم إتاحة الفرصة لتكريس وحدة الحال، بين أبناء الشعب الواحد.

قلنا بعد عام من افتتاح هذه البقعة الجهنمية، أدخل الصليب الأحمر، ولأول مرّة، علب الحلوى والملبّس، لمناسبة حلول عيد الفطر، إلى المعتقل، وصدرت التعليمات لكل الأقسام أن يقيموا صلاة العيد جماعة فى ساحات الأقسام، ومهما تكن النتائج!! وتمت الصلاة، ولم تستطع إدارة المعتقل فعل أى شىء لتعطيل هذا القرار الجماعى الحاسم! واصطف المعتقلون فى دائرة واسعة، فى ساحة الأقسام، ووقف أحد المتحدثين المميزين

ليلقى كلمة فى المعتقلين، يشدّ أزرهم، ويهنئهم بالعيد، ثم صافح بعضهم بعضًا، وتناولوا حبة حلوى.. لم تستطع بالتأكيد أن تطفئ مرارة الحزن والفقد، أو تمنع بعض الدمعات من التقاطر الخجول.

ونادرًا ما كان معتقل يعلم بموت أبيه أو أمّه أو أحد أقاربه، لصعوبة الاتصال مع الخارج، إلاّ إذا جاءت دفعة جديدة من المعتقلين، أو نقل أحد المحامين الخبرَ إلى السجين! عندها كانت لجنة القسم تفرغ إحدى الخيمات، وتحيلها إلى بيت عزاء، فيأتى كل المعتقلين قاطبة لتقديم العزاء إلى السجين المُصاب.. ويتبرع أحد الإخوة بتلاوة مباركة من آيات القرآن الكريم طيلة فترة تقديم العزاء، ثم يقرأون الفاتحة على روح المتوفى، وينفضّ العزاء، شرط أن يتم فرز ثلاثة من بلديات المُصاب أو أصدقائه، ليظلّوا معه طيلة أيام أخرى، للتخفيف عنه، ومشاركته ساعاته الصعبة الموجعة.

* * *

الكآبة هلاك، ينبغى ألا تصدع لها، وإلاّ دفعتك إلى حافة الجنون، لهذا، عليك أن تخرج من دوّامتها فورًا، وأن تستنفر كل أسباب قوتك وثباتك، وتطردها، كما يُطرد الشيطان من الروح البريئة.

وعليك أن تشغل نفسك بالقراءة، والأفضل بالجلوس مع مَنْ تحبّ وتستريح، وأن تواجه حالة الاكتئاب بعقلك، وجهًا لوجه، كأنك طبيب نفسك، تجمع كل عوامل الثقة والاطمئنان والقوة والزهو التى بداخلك، وتجعلها متراسًا فى وجه هذا الهواء الفاسد الغامض.. ومرّة تلو أخرى، يتراجع الاكتئاب، ويصبح أكثر هشاشة وضحالة وخفّة!

والسجن أرض خصبة لهذا النبت الشيطانى الذى يشبه الأفعى، أو الفأر النجس! وكلما تراكمت الهموم، تسللت الأفعى بنعومتها السامة إلى وريد القلب، وكلّما حضرت الأحزان والأسى دخل الفأر قلبك يقضمه بأسنانه المسننة!

والكآبة معادلة كيميائية كاملة، لا تؤثر فى النَفْس أو الروح فقط، بل تحس بحِبال أفاعيها، وهى تلتف حول مضغة صدرك، لتهتك أستاره، وتوقف تدفّقه النورى.. البهيج!

بل تخشى أن يحتشد قلبك، فجأة، برغوة الكآبة، فيضيق مجرى التنفس، وتصبح على موعد مع السيد عزرائيل!

ولعل حدوث اللامتوقّع، المخيف، أو ما لا نعرف نهايته هو السبب الرئيس للكآبة! ولسوء الحظ أن كل هذا، وأكثر منه، يحدث كل لحظة، ويقع أمام عيوننا، يوميًا، فى المعتقل، ونلمسه على جلودنا وجدران روحنا.. ورغم كل هذا، نُبعد هذه الكآبة بالحياة، بكل مكوناتها، من الكلام.. إلى الغناء، ومن المجابهة إلى التصميم، الأمر الذى يعيد صياغتنا، ويجعلنا أكثر قدرة، وخرقًا للعادة، من غيرنا.

* * *

لم تكن الدولة العبرية بحاجة إلى سبب لاعتقال الفلسطينيين، فثمة قانون «يُشرّع» لها كل ما تريد، بدءًا من القوانين العسكرية، وانتهاءً بقوانين الطوارئ البريطانية البائدة، التى تجيز كل أشكال القمع والاستلاب وإزهاق الأرواح، بدعوى الحفاظ على الأمن والنظام!

ويقف «الاعتقال الإدارى» فى مقدمة قوانين الطوارئ، إذ يحق للدولة المحتلة حجز الإنسان ستة أشهر، دون إبداء الأسباب، كما يحق لها تجديد أمر الحجز أو الاعتقال ستة أشهر أُخرى... وأخرى... دون سقف أو تحديد. لهذا عمدت إسرائيل إلى هذه الحيلة «القانونية»، التى أتاحت لها اعتقال اثنين وأربعين ألف فلسطينى منذ تموز ١٩٦٧ حتى تموز ١٩٩٣، حيث أمضى بعضهم عشر سنوات فى الاعتقال الإدارى، أو عشرين أمر حجز إداريّا!

وتذهب الدولة العبرية حتى النهاية، فى لعبتها «القانونية» هذه! إذ تحيل المُعتقل إداريًا إلى المحكمة العسكرية، لتثبيت اعتقاله، إن كانت ثمة أسباب موجبة لذلك، أو لإطلاق سراحه، إذا لم يقتنع القاضى بأسباب الاعتقال. لكن التبريرات جاهزة، والمسببات حاضرة ومفبركة ومقنعة، الأمر الذى جعل تلك المحاكم صورية مئة بالمئة!

كُنّا نقف أمام «القاضى» العسكرى الذى غالبًا ما يكون ضابط مخابرات، وينبغى أن يكون مع «المتهم» محامٍ ليترافع عنه.. وتبدأ اللعبة – المحكمة، وباللغة العبرية الفصحى... ولمّا يطلب المحامى من القاضى كشف أسباب اعتقال موكّله، يبصق القاضى تلك الجملة الشهيرة التى تنهى المحكمة، ألا وهى «هناك ملف سرّى»!.. وبعد دقائق يصدر قرار تثبيت حكم الاعتقال.

* * *

بعد أن أنهيت الأشهر الستة الأولى، أى الاعتقال الإدارى الأول، الممتد من ١٨ / ٢ – ١٧ / ٨/ ١٩٨٨، تم إطلاق سراحى!.. لكن المخابرات الإسرائيلية، وبعد عشرة أيام، دهمت بيتى ليلاً، وقلبته رأسًا على عقب، بعد أن حطّمت الأثاث، ومزّقت الفراش ومقاعد الكراسى، وصادرت كمية كبيرة من الكتب، وأخذتنى معصوب العينين، وبعد شهرين من «الحجز الإدارى»، كان ثلة من المحامين يترافعون عنّى فى المحكمة، شأنى شأن الكثير من المعتقلين، ولمّا بيّنوا للمحكمة أنه لم يكن أمامى وقت كاف «للاعتداء على النظام والأمن» لأننى، ببساطة، كنتُ معتقلاً، أجاب القاضى بأنه ثبتت على المتهم حيازة مواد تحريضية ممنوعة! ولمّا سأل المحامون عن تلك المواد، قال القاضى: ديوان شعر ذو مضمون عدائى ضد دولة إسرائيل، ومؤلّفه المتوكل طه. وعندما حاول المحامون إيضاح الأمر للقاضى بأن مؤلف الكتاب هو نفسه الذى يقف أمامه، إذ أن اسمى فى الأوراق الرسمية المتوكل نزال، أما «طه» فهى لقب.. عندها رفع القاضى نظارته عن عينيه، وقال: إذًا لدينا سبب آخر لتثبيت حجزه واعتقاله.

* * *

معطف الليل من هواء! يفرد جناحيه وسادةً لإعادة ترتيب الأشياء، أو ليأخذ العيون إلى رحلة الغموض، أو الموت المؤقّت. والليل يبسط حريره البارد تحت رأس المُتعبين، فيمتصّ الغيظ والعرق المتيبّس، ويعرّى الغافى من كل حباله وقيوده، ويُطْلقه جناحًا يَغمس ريشه فى الشهوات الممنوعة، أو ليتخطّى أسوار النهار، أو ليُخرج كل الرمل بصرخة كابوس حاد، واهتزاز الماء المتصبب من الجبين.

والليل يبدأ مشدوداً.. لينتهي بالركود الهادئ.

نتمطّى على الفِراش الفقير، ونسند رقابنا على جدار مُرتّب، فيظلّ الجسد فى مكانه، فيما تذهب الروح إلى أحلام يقظتها... وتعود لتصطدم بالنتوءات الصعبة، والمشاهد المكفهرة الخشنة.

ماذا حلمت أيها الراكض خلف خيط الوهم اللذيذ، هل وصلت إلى البيت، وكشفت الغطاء عن الجسد الرَّخِص البضّ.. وماذا بعد؟ هل أكملتَ الصورة التى ستظل ناقصةً ما دامت الحياة..؟

تتعب الروح من مشاويرها البعيدة.. فيتسلل الوسن إلى صحنين ذابلين، هما عيناك.. وتنام!

* * *

«إيتسك» و«راز» ضابطا الأمن فى معتقل «أنصار٣»، يعرفهما المعتقلون بمشيتيهما وهما يتبختران بين الأقسام، كل حينٍ وحين.

وكان كثير من المعتقلين يتشاءمون من هاتين البومتين الأنيقتين! كان ضابطا أمن المعتقل يُرسلان فى طلب بعض السجناء، وبالذات أولئك الذين ليست لهم تجربة فى عالم السجن والاعتقال، وأساليب الدهاء فى التحقيق والإسقاط... ويشنّان حرباً نفسيّة على «المطلوب»، ويضعانه فى أجواء مخيفة وترقّب طويل، حتى تصبح «الفريسة» سهلة الوقوع فى الفخ! ثم يُدْخِلان «المطلوب» إلى غرفة مكيّفة نظيفة، ويجلسانه على مقعد مريح، وأمامهما قنينة ماء مثلّجة وكوكاكولا وسجائر فاخرة، ويبدآن معه التحقيق. فواحد منهم «يشدّ» والآخر «يرخى»... وتستمر لعبة الترهيب والترغيب... ثم يطلبان منه أن يتخلّص من سعير المعتقل وأيامه القاسية، ويهوّلان الأمور له، ويهددانه، ثم يدّعيان أن لديهم أخباراً تفيد أن المعتقلين يشكّون به، وينظرون إليه كمشبوه!... ثم لا يطلبان منه أن يتعامل معهما مباشرة، بل يقولان له: سنُطلق سراحك فى المحكمة، وسنلتقى معك فى أى مكان تريده.

* * *

لقد أفادت التقارير أن النسبة الغالبة من «المطلوبين» انتصروا على «إيتسك» و«راز»... ولم يقعوا في مطبّ السقوط.

وقد تنبّهت قيادة المعتقلين إلى الأمر مبكراً، فبدأت شرح كل هذه الأمور للمعتقلين المستجدين، على طريق تحصينهم، وخلق مناعة كافية لديهم، ليستطيعوا مواجهة ذلك الموقف! ثم، وبطريقة غير مباشرة، تم فرز مجموعة من المعتقلين المجرّبين، لالتقاط مَنْ يعود من المقابلة... للاستفسار منه عمّا جرى ودار... ويرفعون تقريراً للجنة الأمنية المعنية بالأمر، لمتابعته، أو لاستخلاص العبر منه.

* * *

كان ثمة رأيان، للمعتقلين، يتغالبان، لتسيير أمور السجناء. الأول يسعى إلى ضبط كامل الوضع في السجن، بطرائق هادئة، بعيدة عن إثارة الهوَس الأمني والضبط الحديدي، بل الدفع بالتي هي أحسن، ورصد المشبوهين، دون فتح زوايا للتحقيق معهم وإخافة ضعاف القلوب والنفوس، والعمل ما أمكن لعدم الانجرار لمصادمة إدارة السجن، وخلق حالة مشدودة حذرة، كلها ترقّب، وطوارئ... والرأي الثاني، يسعى إلى تأزيم العلاقة مع إدارة المعتقل، ومصادمتها، والتحقيق مع المدسوسين، ومعاقبتهم، وخلق أجواء صارمة، وقيود حاسمة وتعليمات رادعة لضبط كامل الوضع في السجن!

وأعتقد أن الرأي الأول هو الأكثر عافية وصحة وذكاء، وهو الذي ساد وغلب! وهذا ما جعل مُناخ الحياة في السجن مُحتملاً ومعقولاً، وغير منفّر للمعتقلين الجدد، الأمر الذي جعلهم، وبعد الإفراج عنهم المرة الأولى، يعاودون نشاطهم الوطني خارج السجن، ويعودون ثانية، مطمئنين، راضين مرضيّين إلى «أنصار٣» أو غيره من المعتقلات.

* * *

مدينة العذاب، «أنصار٣»؛ هذا المعتقل الصعب أظهر وأخرج أجمل ما فينا، نحن المعتقلين الفلسطينيين، كما أوضح أسوأ ما في الجنود الإسرائيليين... لأن مهمّتنا

كانت تقضى أن نتربع على عَرش الزلزال، مثلما دفعتهم أوهامهم إلى التشبّه بأبشع المخلوقات، وتمثّل أكثرها دموية!

ولعل ذهابنا بالجَمال إلى أقصاه، هو الذى خلق لدينا قوّة إضافية! ولا أعنى جَمال المكان، بقدر ما أعنى عيوننا الجديدة ورؤيتنا العميقة المختلفة، التى رأت المكان، وسبرت غوره، وأحاطت به وأدركته، واجترحت الأشكال والآليات المناسبة، للتعاطى معه، بحيث ظل المكان تحت سيطرتنا ما أمكننا ذلك.

والجمال داخلى بالضرورة، يتعلّق بتجاوز نقاط الضعف فينا، بعد التوقف أمام الخاصرة الضعيفة، أو الثغرات فى تربيتنا الجمعية.

والجَمال، هنا؛ قوةٌ حالت دون تفريغنا من محتوانا النضالى والإنسانى والثقافى، وخلق حالة من العدمية فينا... ورافعةٌ اعتلت بنا، فوق مشاريعنا وأحلامنا الفردية؛ بدءًا من الغرائز المكتسبة، انتهاءً بنفى الخوف، فى ظل التماهى الجماعى، والتشابك الدافئ الذى طرد الانكفاء والتراخى والإحساس المرضىّ بالوحدة.

بدأت رسائل الأهل تفتح لنا نافذة نتنفّس من خلالها، وأصبحت صور الزوجة والأولاد تطمئننا عليهم، وشيئًا فشيئًا، بدأت الخيمات تعجّ بالصور المعلّقة بإطارات مصنوعة فى المعتقل، كُلٌّ يُعلّق صور أسرته فوق رأسه، وغالبًا ما تلاحظ معتقلاً يسرح مع تلك الصورة المعلّقة بصمت صاخب أمامه! كأنه يقول:

وفى فترة الاعتقال الثالث، كان موعد ولادة زوجتى!

وربما لم أكن قلقًا عليها، لأنها محاطة بعائلتها وأهلها، وباهتمامهم الحريص ورعايتهم الكبيرة، ودلالهم الواضح، ولأن زوجتى من النوع الصلب الذى يستوعب تغيّرات الحياة، ولا يَنكسر أو يَنهار أمام حدث هنا أو أمر هناك! بل إن مرونتها ووعيها وتجربتها فى الحياة علّمتها أن تكون واقعيتها سببًا لصالحها ومعها، وليس عليها..

وبعد أيام وصلتني رسالة تبشّرني بميلاد «نوّار» الآية الثانية، على ألواح قلبي، بعدَ أن ملأت «هزار» حياتنا بهجة وحيوية!!

* * *

– هل تذكر تلك الليلة؟!

كانت متجاوبةً دون اتفاق مسبق، كأن ورقة الليمون التي طبعتها على بوابة الدار، و «الصمْدة» وتلك الأغاني الهائجة الحلوة، كُلّها تؤذن لأن يدخل الرجل على زوجه، فتخلع، لأوّل مرة، كل ثيابها، وتندسّ تحت حرير الترقّب واللمعة الخارقة، التي ستجعلها امرأة من جديد، وتطوي سنوات الفتوّة، وتضعها على مدرج الأمومة.. والغرق الحلال!

– أين أنتِ الآن.. أما كان بمقدور أمكِ أن تلدك طائرًا يحطّ أنّى شاء، ويهبط حيث ربابة الشهوة الجارحة!

عليكَ أن تنسى، وأنت تذرع دروب «جمهورية أنصار»، كل النساء.. وأن تُبقي نفثاتك المحمومة، وخيالاتك الفوّارة، في ثلج العمل، وأن نُحنّط صهيلك، إلى الكشْف الآتي..

– لكنك تتحسس في الليل عنق النار، وتخشى من فيض العسيلة، ودفقة صبابات الخيال!

سأحبس النار في القمقم، حتى ييسر لهذا الجان، مَنْ تحكّ فانوسه السحري.. وبعدها، لكن الطوفان..

– ذكّرتني بالجنّيات اللواتي يعشقن الرجال، لماذا لم تعشقني جنيّة مليحة، وتأتي بطاقية الإخفاء، لتطفئ هذا الموقد؟؟ أين أنتِ أيتها الجنيّةُ.. تعالي.. واصحبيني إلى مدن النحاس البعيدة.. الغارقة في قيعان الماء..

* * *

كـان بعض الذين أُفـرج عنـهم، يبـعـثـون بصـورهـم وهـم يجلسـون قـبـالة «صـدر منسف»، أو «كـوم لحـمـة مع الرز»، أو وهـم يلتـهـمـون «صـدر دجـاجـة»... ليغـيظوا بهـا أصدقاءهم الذين خسروا أكثر من عشرين كيلوجرامًا خلال الأشهر الستة الأولى فى السجن.. وأصبحوا رشيقين أكثر من اللازم، ويصلحون «مانيكات» رجّالية لعرض الأزياء! كما كان يقول جمال الديك هذه الجملة.. دائمًا، ويُوجّهها لعلى الرجوب السمين «الناصح»، كلما رآه!!

وخوفًا من أن تصبح لنا جدائل وضفائر مثل الخنافس أو الجيبز أو البوهيميين، وخوفًا من انتشار القمل والبق... حرصنا على حلق شعر رؤوسنا، وبالأمر التنظيمى الصارم! وكان حلاّق القسم (حسام الحرامى)، ابن قرية جيوس الواقعة شمال شرق قلقيلية، وهو صاحب صالون «الناطور والحرامى» فى مدينة طولكرم! كان شابًا مهذبًا ذوّاقًا، ولا يشبه أخاه غسان الحرامى، الذى تعتّق فى الظُرْفِ والسجون.. وجاءنا، هنا، ليكون، حيثما حلّ، سبب الضحك العالى، وخفّة الظلّ، وسرعة البديهة الفكهة الحاضرة.

وبعد أن يُنهى «الحرامى» حلق رؤوسنا، يقوم بتسليم عدّة الحلاقة لمسؤول المخزن الجندى الإسرائيلى «شوكى» الذى كان يخاف، لسبب غامض، من قدورة موسى، مُمثّل المعتقل فى المطبخ والمخزن!

* * *

لم أكن أرغب فى توضيح سبب خوف «شوكى» من قدورة موسى، لكننى سأقول... ومهما يصير.. يصير!

كـان قـدورة أو «أبو مـوسى» يـأخـذ من المحـامـين مـبلغـًا من المال، ثم يعطيـه لـ«شوكى» ليشترى لنا أجهزة راديو صغيرة، حيث يأخذ «شوكى» ثلاثة آلاف شيكل، ليشترى لنا أجهزة بستمئة شيكل، والباقى يأخذه لنفسه، الأمر الذى وفّر لكل الأقسام أجهزة راديو وبطّاريات. أى أن أبا موسى «كَسَرَ عَيْنَىْ شوكى...» وأصبح يطمع فى أن يشترى لنا ما نشاء، شرط توفير مبلغ مُغرٍ من الشواكل!

كانت اللجنة الإعلامية تتسلّم المذياع، وعليها أن تسمع نشرات الأخبار، وتلخّصها، ثم يتم تعميمها على الأقسام، وكان إبراهيم رمضان المسؤول عن كل أجهزة الراديو ومتابعة أحوالها، وإخفائها.. وبهذا لم ننقطع لحظة واحدة عن المحيط المتفجّر الطاحن! وهنا لا ننسى أن نشير إلى الصديق الصحافى سالم أبى صالح، الذى كان يوحى بعظمة وأهمية وخطورة المهمّة التى يقودها وهى «سياقة» المذياع، وقيادة الدفّة الإعلامية، ونشر رذاذها اللامع الحلو (التقارير والأخبار) إلى كل الجهات، عدا قيادته القسم الذى استشهد فيه بسام السمودى يوم ١٦ / ٨ المشؤوم... وجدع يا أبا صالح!

* * *

دخل «ألبرت» اليهودى، الذى لم يعد ليبيّا، مع أكثر من مئة جندى، أيديهم على الزناد، فجأة، إلى القسم! وأمروا المعتقلين أن يجلسوا لـ «عدد» استثنائى، فجلس الجميع، وراح الجنود يفتشون بين الأبراش والبطانيات وأكياس ملابسنا الداخلية... وأخيراً عثروا على «المذياع». وتم استدعاء شاويش القسم منير العبوشى للتحقيق معه عن كيفيّة دخول المذياع، رغم تلك الإجراءات والتفتيشات! وكاد ألبرت يفقد أعصابه، ويصيبه الجنون: كيف أدخلتم الراديو؟؟... وأخيراً طلب ألبرت من منير العبوشى أن يعلمه كيف تم إدخال المذياع، ووعده بأنه لن يعاقب القسم بالسجائر أو بمنع زيارة المحامين أو بوقف الرسائل، لكن منير العبوشى وجد جواباً مقنعاً وهو أن الجنود الإسرائيليين وضعوا هذا الراديو بين أمتعتنا، ثم ادّعوا أنهم وجدوه... ولمّا سأله ألبرت: ولماذا نفعل ذلك يا عبوشى؟

قال له منير: حتى تعاقبونا يا ألبرت!

وتمت معاقبة القسم أسبوعًا كاملاً بالسجائر والقهوة والرسائل وسماع «صوت إسرائيل».

* * *

سلك معدنى شديد يلتف حول رأسك، يشتدّ، ويضيق.. فتنهض من نومك، وتجلس حتى تتأكد أنك لن تموت الآن!

وتحاول أن تتشاغل، وأن تفرك صدغيك.. وتنظر حولك، فترى نزلاء الخيمة نياماً، وموسيقى الشخير العالى تتعاكس وتتقاطع، كأنها أوركسترا موزّعة بين شخير هذا وشخير ذاك.. فكيف سيبارحك الأرق، وينقطع السلك المعدنى، وتنام؟

تشعل السيجارة الأخيرة، وتنظر لعلّ أحداً من الزملاء، أصابه الأرق، لعلّكما تتسامران.. فيقطع تفكيركَ صوتُ الموسيقى السفلى التى، غالبًا، ما تعقبها رائحة البيض الفاسد!

إذًا، كيف ستنام!

اللعنة على المعتقل، وعلى الليل والأرق.. تحاول أن تدفن رأسك تحت البطانية الوسادة، فتختنق من رائحة الرطوبة المشبعة الثقيلة.. وترفع رأسك.. وتبقى بين يقظة وصوت وشخير ورائحة.. حتى تتكسر قشرة الليل، ويبدأ الديك البعيد بإيقاظ الشمس.. وبعد ساعة، ربما، تستيقظ مضطراً لـ «العدد».. تمشى متثاقلاً، كأن رمحًا قد فخت جمجمتك، واستقرّ فى جبهتك، أو كأن رأسك قد فارقك من صداعه المهلك، وشظاياه الحارقة.. يا إلهى! ما الذى جاء بى إلى هنا؟!

* * *

لم تكن «الجندرمة» قادرة على قتل تلكِ الأفعى التى يتحدثون عنها، غير أن عاملى التنظيف والطبّاخين الذين كانوا يحملون بقايا الطعام والخضروات فى أكياس وسلال لإلقائها فى الحفرة العميقة التى وجد الجميع أنها مناسبة لاحتواء كل البقايا والفضلات البشرية، كان هؤلاء العمال يسمعون صوتًا أقرب ما يكون لصفير الزويعة، قادمًا من جنبات الحفرة ومغائرها وشقوقها الكثيرة والعميقة، لكنّ جنديًا انكشاريًا ابيّضّ شَعره فجأة، أقسم على المصحف، وهو ينتفض راجفًا، أنه رأى أفعى بحجم مئذنة قريتهم.

في المساء، أمر الضابط العُثْمَلِّي بإشعال نار ضخمة حول الحفرة، وبعث في طلب شيوخ القبائل المحيطة ليتب قصة أفعى تلك الحفرة. أجمع شيوخ القبائل على أن هذه الحفرة انشقّت فجأة إثر رعدة شتوية صعقت الأرض فخسفتها، وأحدثت فيها هذه الحفرة التي لا يعرف أحد قرارها، لهذا سُميت المنطقة بـ «الحفرة» أو «الجورة». ولّما أرادت القوافل المتجهة شمالاً من سيناء، التزوّد بالماء، كانت تُعرّج على هذه الحفرة التي قيل إنها ظلت تفيض بمائها حتى سنوات قريبة. لهذا السبب -قال الشيوخ-: أقامت الدولة العثمانية مركزًا إلى جانبها كنقطة حراسة، سُمّيت بـ «مركز الحفرة» أو «الجورة»، بل إن شيخًا يافعًا أضاف: «إن ماء الحفرة قد غار في الأرض منذ أن أُقيم أول مركز للجندرمة في هذه المنطقة»!

وعندما جاءت بريطانيا، تسلّمت المركز والحفرة، فأطلقت على المركز اسم (عوجا حفير) وجعلت الحفرة مكبًا للنفايات ومصبًا لشبكة المجارى، بل مدفنًا سريعًا وسهلاً لكثير من الجنود البدو الذين رفضوا أوامر الضباط البريطانيين، أو الذين جُرحوا في الحرب من أبناء العرب والأقليات والهنود!.

ولّما وقعت الدولة العبرية على هذه الأرض، يُقال بأنها ألقت بجثث الأسرى المصريين في قاع هذه الحفرة، وأبقتها، طبعًا، مكبًا للنفايات ومصبًا للمجارى.

ويبدو أن الأفعى التي يتحدثون عنها، وجدت ما تأكله طيلة سنيّ «العُثمليّين» والانتداب والاحتلال اليهودى، غير أن اليهود، رأوا، ربما، الأفعى فابتعدوا قليلاً وبنوا السجن الذى أسموه «السجن السابع»، وضربوا سياجًا حول الحفرة، لكنّ عددًا من الجنود اليهود اختفت آثارهم، ولم يجد ضُبّاطهم تفسيرًا لغياب جنودهم الغامض، سوى أن الصحراء ابتلعتهم، رغم أنهم يدركون أن قوّة غامضة اختطفتهم وابتلعتهم، وربما يكون هذا من فعل الأفعى، لكن الضباط تطامنوا فيما بينهم، ولم يذكروها بسوء.

* * *

كان أحد المعتقلين قد ازدحم الماء بجسمه، فاستيقظ منتصف الليل، وتوجّه إلى وحدة المراحيض الواقعة خلف الخيام أقصى ساحة القسم، لكنّه، فجأة، توقّف وأُغمي عليه، ولمّا تنبّه شاويش القسم لما وقع له، حمله إلى خيمته ورشّ على وجهه الماء، وخضّ بكفه خدّه غير مرّة، لكنّ الشاب، وقبل أن يستيقظ، تماماً، كان يهرف بكلمات تردّد فيها قول: الأفعى... الأفعى.

بعد قليل لم يصدّقه أحد!! قال، وألحف، وأقسم، وأغلظ، أنه رأى أفعى طولها أكثر من عشرين متراً وارتفاعها يطاول علو السياج!

* * *

كان الصيف قائظاً ونسائم ليله تهمس بخجل، تحمل بعض الصبا، فينتعش النائمون الذين تمدّدوا على «بروشهم» دون غطاء، لكنهم استيقظوا واحداً تلو الآخر، على صوت جاءهم من بعيد، لكنه موحش وغريب، ويبدو كأنه يفحّ من تحت رؤوسهم.

اعتدلوا في جلساتهم، وظلّوا ساهمين، والصوت يتجاوب مع صداه... وبقوا على هذه الحال حتى انقطع الصوت واختفى!

ما هذا الصوت؟ قال بعضهم: هذا صوت نحيب قلب الأرض التي تنذرنا ببركان قريب.

وقال البعض: هو صوت طير خرافي جاء ينشر ريحاً جديدة، ستغطي الصحراء وتحرقها من جديد.

وقال البعض: هذا صوت آلات وماكينات اخترعها الاحتلال الإسرائيلي ليُرهبنا ويقضّ مضاجعنا ويخيفنا.. فلا تقلقوا... وقال البعض: هذا صوت أفعى عمرها ألف عام، مُغطّاة بالريش كما الطاووس، ولها قرنان كالتيس البريّ، مثلما لها في كل فصل رجلٌ أو دابّة تبلعها دفعة واحدة، وتخلع ثوبها مرّة كل عام. تسكن هذه الأفعى مغائر البرق والصواعق وتلد مع الرعد.

منذورة إلى يوم الدين، لتكون نموذجًا لأفاعى يوم الحساب. لا تأكل إلاّ قاتلاً أو قاطع طريق، وتنتحب كلما بكت أرملة أو جاع يتيم، دمعها صناديق الذهب المخبّأة فى خواصر الآبار والمغائر والجبال، وغضبها وباء البلاد الذى لا يُبقى ولا يذر. تموت إذا ما استتب العدل فى المعمورة، وتدفن عظامها حتى لا توخز ناقة تحمل حنّاء عروس. تتقن كل لغات الأرض فهى صنو الملك النبى، ولديها علمُ الجان الذين حبسهم سليمان فى قوارير النحاس والزجاج، دخانًا فى قيعان المحيطات. لديها مرونة التحوّل إلى عروس أو رجل أو عجوز أو فرس أو ما شاءت، لهذا تتحوّل إلى امرأة تطرق باب الأيتام لتحضنهم وتمسح رؤوسهم بريش يديها وتحمل لهم الطعام. وتقف حارسة للشيخ الذى قتلوا أبناءه، وتوقد له الحطب وتحدّثه عن صبر الرجال. وتقف فرسًا تحمحم بين يدى الفارس الذى اغتصبوا أهله وقافلته.

تتسرب مثل الحلم إلى عينىّ التاجر الأمين، فتحذّره من السطو القادم، أو الحريق المعدّ، وتهمس فى أذن العروس فتعلّمها لغة الريحان وطاعة الجسد.

تصعد إلى السماء الدنيا، فتحمل غيمة مكتنزة وتبعثها مطرًا يطفئ نار الاعتداء. أو تنخرط مثل اللولب دوّامة فى وجه قافلة العبيد أو النخّاسين. ترقص على دفوف البيادر وليلة ميلاد هلال العيد، وتبكى إذا احترق قلب والد، أو انشلخ عقد الدار.

* * *

الآن يعلم المعتقلون مصدر النحيب الغرائبى الذى أحاط بالأقسام ليلة سقوط الشهيدين فى «أنصار٣». واليوم يدركون سرّ قدوم الغيمات التى أنزلت ماءها فى عزّ صيف الصحراء فابتلّ رمل الطرقات، وطابت هذه المعمورة الصغيرة لقاطنيها. ولهم أن يعرفوا مَنْ الذى كان يفرد ريشه فى السماء البعيدة، فيظلّل الأسرى، ويردّ شأفة الشمس الوهّاجة عنهم.

وجاءت الساعة التى تكشف عن وجه ذاك الذى كان يعبئ براميل الماء الفارغة، والمعتقلون نيام، أو الذى كان يمسح عرق الحُمّى وقطرات الوجع عن جبين المرضى، أو الذى كان يجمع الملابس (الغيارات) المُتّسخة من كل الخيام فيغسلها.. ويطويها نظيفة عند رؤوسهم.

* * *

كُلّما توجّه إلى وحدة المراحيض، يتوجّس خيفةً من أنْ يقع! وعلى ما يبدو، فإن الحرص الزائد يؤدى إلى نتيجة معاكسة. فما إن مغصه بطنه، وتلوّت أمعاؤه، حتى فتح باب الخيمة، ودلف إلى صندوق الزنك الكبير، ونسى أن يغلق باب المرحاض وراءه... وجلس ينتع ويشدّ على ليف بطنه، ثم انتبه إلى أن الباب مشرع، فحاول، وهو مقرفص، أن يردّه بيده... فى المرحاض المجاور كان معتقلٌ آخر يقضى حاجته، سمع ارتطامًا وبقبقبة وتهويشًا وصراخًا مكتومًا، فاعتقد أن زميلاً له وقع فى الجورة، فقطع جلسته، وخرج مفزوعًا يخبر المعتقلين عمّا سمعه!!

وما هى إلاّ ثوان، حتى كان كل معتقلى القسم يحيطون بالمراحيض، لكنهم لم يروا شيئًا، وبدا سطح الماء، الطافح بالوسخ والغائط والورق الذائب المتفسخ، ساكنًا! كان لا بُدّ من أن ينظر مسؤول كل خيمة فيحصى عناصر خيمته، ويعدّهم فردًا فردًا... والمفاجأة كانت أن أبا ضحى غير موجود؟!

- إذًا، أبو الضحى هو الذى سقط فى الجَورة؟!

قالوا: انظروا بُرْشه لعله نائم...

- بُرْشه فاضٍ...

ماذا سنفعل؟! قال شاويش القسم.

* * *

لاحظ الجنود أن ثمة جلبة حدثت فى القسم، فتوجه الضابط المناوب وسأل الشاويش عن الأمر، لكن الشاويش، وبعد أن أمر المعتقلين بالدخول إلى الخيام، أخبر الضابط الإسرائيلى أن شاباً مريضاً بالإسهال هو سبب هذه الضجّة، لكنه تحسّن!

ذهب الضابط، ودخل المعتقلون إلى خيامهم، مع الثانية بعد منتصف الليل!

بعد ساعة أو يزيد، خرجت لجنة القسم بقرار نهائى، مفاده: أن يتم إبلاغ إدارة السجن بسقوط أبى ضحى فى الجورة، ويتم فرز ثلاثة من الشبان، لتقديم شهادة (إفادة) إلى إدارة السجن، تؤكد أنهم شهود على سقوط أبى ضحى، وهو يقضى حاجته، وعلى شاويش القسم أن يبلغ الضابط الإسرائيلى المناوب بذلك، قبل أن يتم إجراء «العدد» الصباحى بعشر دقائق.

* * *

خرج شاويش القسم وأعضاء اللجنة، وتوجهوا إلى المراحيض التى انقطع زائروها، لعلهم يروا جثة أبى ضحى، أو أى أثر يدلّ عليه... فعادوا أدراجهم، إلى الخيمة، ثانيةً، ليجدوا النقاش المحتدم بين المعتقلين على حاله...

– يجب أن ننقذه، وبالإمكان أن نربط أحدنا بحبلٍ نصنعه من قمصاننا، ونُدلّى شخصاً منّا ليبحث عنه، ويخرجه...

– هذا مستحيل، لأنه انتحار.. ولا فائدة من إخراجه بعد ساعتين، لأنه مات وشبع موتاً... ولو أردتم إنقاذه، لفعلتم ذلك فوراً.

– يا إخوان! لو مات أبو ضحى لطاشت جثته... وإن عدم ارتفاعها دليل على أنه حيّ...

– حيّ؟ ماذا تقول؟ هل جننت؟ فهو إنْ لم يمُت غرقاً، فقد مات من الرائحة والقرف..

– فكّروا كيف سنغسل جثته، ونكفّنه، ونضمن أن توصله إدارة السجن إلى أهله، شهيداً معزّزاً مُكرّماً... وأقترح أن نفتح باب العزاء منذ الصباح، ولمدة ثلاثة أيام!

– يجب أن نضرب عن المراحيض، كما نضرب عن الطعام، حتى يتم تحسين وضع المراحيض، ونتجنّب سقوط آخرين.. أية ميتة لقيتها يا مسكين.. يا أبا ضحى؟؟ الله يرحمك!

– هناك ثلاثة معتقلون من دير السودان، وواحد منهم هو قريب أبى ضحى، فى القسم الثانى، يجب إبلاغهم بالأمر... وتقديم العزاء لهم...

– يجب، أولاً، أن نحقّق مع الشاب الذى أبلغ عن سقوط أبى ضحى فى الجورة، لنتب علاقته بالأمر، ونسأل من أين هو، وهل ثمّة عداوة بينه وبين أبى ضحى...؟!

– يا جماعة! صلّوا على النبى.. الصباح رباح، اذهبوا لأبراشكم وناموا... وغداً، لكل حادث حديث.

* * *

ربما نام بعضهم أو كاد... ومع الخيط الأوّل من الفجر، دخل شاويش القسم إلى الخيمة الأولى لإيقاظ الطبّاخين، الذين يجب أن يتوجهوا إلى مطبخ المعتقل لإعداد وجبة الفطور، قبل «العدد» بساعتين.. ومن ثم توجّه إلى الخيمة الثانية لإيقاظ رئيس لجنة القسم، الذى ذهب إلى خيمته ولم يعد، فوجده ممدّداً بحذائه على البرش، دون غطاء... لكزه بقدمه، ونادى عليه... وفجأة دخل شاب، وأخبر الشاويش أن أبا ضحى نائم فى برشه؟!!

تحلّق المعتقلون حول أبى ضحى ينظرون إليه ويتفحصونه، كأنهم يرونه لأوّل مرّة، وهو مبتسم، يؤكد لهم أنه لم يبارح بُرْشه، وكان نائمًا... ولم يسمع شيئًا، ولم يذهب إلى المراحيض!!!

انفضّ المعتقلون، وانفرجت أساريرهم، وظنّوا أن كابوسًا جماعيًا أصابهم، أو أنهم كانوا مسرنمين... اختلطت ظنونهم، وقلّبوا شفاههم.... ولم يجدوا بُدّاً من تصديق ما قاله الرجل عن نفسه!

– فى الأمر ريبة! قال شاويش القسم لنفسه، ثم سأل أبا ضحى

أين كنت الليلة؟

أجاب: فى خيمتى وعلى بُرشى...

– لم تكن فى خيمتك، ولا فى بُرشك! بل إن رائحتك تضجّ بالبارفان، وها هى ذقنك ناعمة، كأنك خارج من حمّام تركى، وملابسك نظيفة ومكويّة... ألا تريد إخبارى يا أبا ضحى، أم أنك تعتقد أننى غبى؟!

ابتسم أبو ضحى، وشدّ على يد الشاويش، وأكّد له أنه سيخبره بكل شىء، بعد الإفطار.

* * *

جاءتنى، كالعادة، بعد أن نام الزملاء، وقبل أن تحملنى تحت جناحها، لفّتنى بأوراق وردة بلون الأرجوان المخملى، وأخذتنى... وشعرت أنها غطست فى بحر، ثم مررنا بسراديب طويلة معتمة، لنُطلّ، بعدها، على مدينة منطفئة ساكنة، كأن أهلها عميان نيام أو أموات. مدينة، لا ترى فى أفقها إلا نتوءات قباب، وشبه مآذن خرساء مهجورة. شاسعة، حتى لا ترى آخرها، كانت سطوحها كابية كالمرآة المهترئة، باردة، لا غيمة تعلوها ولا غراب.

شوارعها مهجورة، والصمت المُفزع يعوى أمام حوانيتها المقفلة. لا شجر يتمايل فيها ولا ماء. يضىء غَبشَها قمرٌ رمادى كئيب. مدينة موحشة، كأنّها بُنيت تحت سقف مغارة خرافية، وكأنّ سقف المغارة قد طار، فظلّت مُحاطة بجدرانها المسكونة بالعظائيات والعشب المتشابك الهائش. وفى جحور تلك الجدران الجبلية، تتقافز السناجب والعرسات والجرذان والخفافيش المعتمة.

قالت لى: هذه المدينة يسكنها مصّاصو الدماء الذين يجرّون ملابسهم السوداء الطويلة خلفهم، كأنهم يكنسون الشوارع بها، فى الليل البهيم... ويقفون خلف الأبواب الصامتة، لينقضّوا على مَنْ تحمله الريح إليهم، أو الذين يتدحرجون ويسقطون، من أعالى الجبل. لأنفاسهم النتنة رائحة الموت، ولأنيابهم الحادّة صعقته المُهلكة.

- وأين سكّان هذه المدينة؟

قالت: هم سُكّانها

- لِمَ لا تُخلّصين المدينة منهم؟

قالت: أنتم الذين يجب أن يخلّص المدينة منهم..

- كيف؟

قالت: بأن لا تغيب الشمس.

- لكنها تغيب..

قالت: أشعلوا شمسًا من دمكم وأبدانكم.. وتجاوزنا المدينة... وحطّت بى، فى غرفتى... وقبل أن تزيح الشمسُ لحافَ البحر عنها... عادت بى إلى خيمتى.

وما أنْ أنهى أبو ضحى كلامه، ونظر إلى شاويش القسم، حتى وجده ذاهبًا فى نومه!

* * *

وأبو ضحى شابٌ اعتقلته سلطات الاحتلال صبيحة يوم عرسه، وفى القسم، بدأ أبو ضحى الاختفاء ساعات طويلة، لا يراه أحد، لكنه يظهر، كاملاً، وينبع من بين المعتقلين، ساعة «العدد» فلا يجرؤ أحد على سؤاله أين كان، حتى لا يسخر منه ومن سؤاله، إذ كيف له أن يختفى وأين..؟؟

لكن أبا ضحى يختفى فجأة مثلما يظهر فجأة! والأكثر غرابة أنه ظلّ بعافيته، لا يطلب طعاماً، بل يوزّع حصته على زملاء خيمته، ومعها بعض السجائر الفاخرة..

- منْ أين هذه السجائر يا أبا ضحى؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب!

- هل أنت صائم، لماذا لا تأكل معنا، ألا تجوع؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب!

- أين حلقت ذقنك، وتطيّبت بهذا العطر، من أين؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب.

وعندما يتسلل السائلون إلى الخيمة التى ينام فيها أبو ضحى، يرون، كالحلم، أن بُرْشه دون جسد، وفجأة يرون أبا ضحى بكامل سخونته يتقلّب على فراشه يقظًا!!

حار مسؤولو القسم فى أمر اختفاء أبى ضحى، وفى مسائل نظافة ملابسه وعطره الفوّاح وسجائره الفاخرة.

رصدوه خطوة بخطوة، وعيونهم على بوابة القسم التى تظل مغلقة بالمفاتيح الكبيرة والجنازير.. لكنه يختفى، كيف، وأين، وماذا؟؟

ذات مساء اجتمعت لجنة القسم فى خيمة أبى ضحى، واتخذت زاويةً للحديث معه، لسؤاله عن اختفائه المؤكد الغريب المبهم.

ابتسم أبو ضحى، وقال لهم بصوت هادئ: لن تصدّقوا إن قلتُ لكم!

- سنصدّقك، قُلْ ولا تخف، وسنتفهّم ظروفك، احكِ لنا بالتفصيل، ولن نقول لأحد شيئًا.. كُنْ مطمئنًا.

كانوا يُهيّئون له لكى يعترف، كأنه مشبوه!! وهم على ثقة بأن أبا ضحى أكثرهم صلابة وعطاء ووطنية، لكنّ الفضول يقتلهم وينهرهم ليعرفوا السرّ.

كرّر أبو ضحى قوله لهم: لن تصدّقوا روايتى. والأفضل أن تثقوا بأن كل شىء على ما يرام. ولا حاجة لأن تقلقوا.. لكنهم ألحفوا فى الطلب، وأصروا عليه وألحّوا..

– لى أخت تحملنى، متى شئت، وكلما اشتهى قلبى الذهاب إلى ما أريد.. تحملنى تحت ثوبها، وتحطّنى، فى لحظة، حيثما حلمت.

ثم تعيدنى برمشة عين، حيث كنت.

تلعثم أعضاء لجنة القسم، ونظروا بعضهم إلى بعض، مستغربين مندهشين، لا يعرفون، هل يصدقونه أم يطبقون بأيديهم على رقبته.. أدرك أبو ضحى هول مفاجأته لهم، فراح يشرح لهم الأمر بشىء من التفصيل، وبداية علاقته بتلك «الأخت» التى تلفّ به الكرة الأرضية، قبل أن يرتدّ جفن إلى جفن.

* * *

كان أبو ضحى نائمًا، ولمّا أحسّ بأن يدًا تمسّد جبينه ووجهه برفق، غير مرّة، فتح عينيه، فوجد زوجته ممددة إلى جانبه، تبعث غمّازتاها ابتسامة الرضا.. ولمّا اكتملت يقظته، وعلم أنه فى السجن.. هزّ رأسه كأنه يطرد حُلمًا غطّا عينيه! ثم جال بنظره فى أرجاء الخيمة فلم ير سوى المعتقلين النيام المتقلّبين.. استعاذ بالله من الشيطان، وعاد إلى نومه.. وقبل أن يغفو تمامًا جاءه صوتها، بأنها تنتظره وتطلبه، فما عليه إلاّ أن يدير ظهره ليجدها بين ذراعيه بكامل نبيذها!

أدرك أبو ضحى جيدًا، أن هذا الصوت لم يكن قادمًا من رؤيا أو حلم، بل إنه صوت من لحم ودم.. ومما زاد من خوفه أن يدير ظهره فيجد عروسه، بالفعل، إلى جانبه، وفى حضنه!!

لكن أبا ضحى رجل شجاع، ولا يخشى المفاجآت، وقرر أن يفعلها، فأدار وجهه، فأحسّ بدوار خفيف، ثم توازَنَ وفتح عينيه على مصراعيهما، فوجد نفسه فى سرير غرفة بيته!!

نهض عن السرير، وترجّل، وراح يلمس أُكرة الباب، فوجدها حقيقية، ثم توجه إلى النافذة، وفتحها، فهبّ ريح الطوابين من أرجاء «دير السودان» وقرى مزارع النوباني وعارورة وعجّول.. وها هو الجبل الذى يحمل قرية أم صفا..؟!

نظر إلى عروسه، وغرق فى لثمة الحياة.. وما أن انتهى وحاول أن ينهض، حتى وجد نفسه على بُرشه فى الخيمة رقم ٢٦ وفى القسم ٣.

فى الليلة الثانية، استيقظ على اليد التى تمرّر فروها على جبينه، مرّة أخرى. كان أقل خوفًا ودهشة، فتح عينيه فوجد عروسًا بكامل خلاخيلها وكحلها المرسوم. اعتدل فى جلسته، وابتسم لها كأنه يطمْئِن نفسه، ويشكرها على رحلة ليلة أمس. لكنها أشارت له أن يتبعها.

نهض أبو ضحى، وفتح باب الخيمة، فوجد نفسه محمولاً، دون أن يعى، وبعد أقل من لحظة، رأى حاله يقف أمام تلك العروس التى اقتعدت حجرًا أملس عند حافة بئر كأنها حفرة عظيمة معتمة.

– مَنْ أنتِ، وأين نحن، وماذا تريدين منى؟

ابتسمت له العروس..

* * *

توقف أبو ضحى عن الكلام المباح، وقال لأعضاء لجنة القسم.. هذه هى القصّة، ولن أزيد!

أما مَنْ سيتفوّه بحرف واحد منكم عن حكايتى هذه، فأنا لستُ مسؤولاً عمّا سيقع له! إنّى أحذركم، وقد أعذر مَنْ أنذر.

انسلت لجنة القسم، وهم ينتفضون رهبةً وخوفًا.. فى اليوم الثانى، طلبت اللجنة من أبى ضحى أن يتم توظيف هذه «الأخت» لخدمة أهداف المعتقل.. وعد أبو ضحى أن

يطرح الأمر على «أختـه» التى لم تحضر ليلة أمس أو اليوم. وفى المساء، جاءت «الشحرورة» تُنادى على رقم أبى ضحى ضمن أرقام المعتقلين المُفرج عنهم.

وقبل أن يخرج أبو ضحى من بوابة القسم، سأله رئيس اللجنة: كيف سنتصل بـ «الأخت»؟

ابتسم أبو ضحى، وهمس له قائلاً: كانت أحلام يقظة رائعة يا صديقى.

* * *

فى الأزمات، يكتشف الإنسان كنوزه المدفونة فيه! ويدرك، ربما، بعد فوات الأوان، أن أشياء كثيرة سقطت منه، وهو غير آبه لها، وأن هذه القطرات، هى نسغ حيويته، وماء روحه.. وما عليه إلاّ أن يلملم نفسه من جديد، ليندفع فى دفاعه عن سماوات جسده وأرض قدميه. لهذا، وبعد حين من الصراع والمساجلة والمغالبة مع العدو الذى يسعى لإلغائه تمامًا، يكتشف أن فيه من القوة، ما يفوق خياله، وأن فيه قدرة احتمال تعزّ على الجبال، وأن شرايينه تتسع لكل الغابات.

إن الإنسان أقوى مما يعتقد، وإنه لم يوظف أكثر من عشرين بالمئة من إمكانات وقدرات روحه وجسده وعقله، وإن فيه من الجبروت والغرابة وغير العادى ما يفهق أمامه مثل النيزك، إذا ما تعرّض للإنهاء أو الإفناء.

ولعل السجن، بكل ما يمثله من نظرية للتغريب والكسر والاحتواء، هو ما يستفزّ كوامن الإنسان الذى يبدأ الردّ، حتى يُشكّل نظرية مضادة، هى نظرية التحدّى والبقاء... وفى طريق تأصيل هذه النظرية، تنكشف جواهر البشر غير المرئية فيهم، ولآلئ الاختراق والخوارق المُغطاة تحت قشرة الرتابة ونمط الحياة.

وإلا، فكيف يمكن أن نفهم تحمُّل السجين آلام الجوع مدة تزيد على الشهر؟ أو البقاء يقظًا، دون أن يغمض له جفن مدة خمسة أيام متواصلة؟ أو استيعاب ضربات العصيّ والهراوات مدة خمس ساعات، دون أن تتكسر فيه إصبع؟ أو أن يهجم على الجنديّ الذى يسدّد فوهة بندقيته نحو صدره.. ولا يتردد فى الانقضاض عليه.. أو تقطيع الأسلاك الشائكة بالأيدى المجرّدة!

لا أبالغ، لأنّ مَنْ يمكث عامين أو أكثر، فى زنزانة عزل انفرادى، لا يرى أحداً ولا يكلّمه أحد، ويخرج عاقلاً معافى، ويكامل توازنه ووعيه، ليس آدميًا عاديًا، لكنه، وفى كل هذه الأحوال وما شابهها، يظلّ إنسانًا فلسطينيًا طبيعيًا، ومن الممكن أن يكون فيتناميًا طبيعيًا، أو جزائريًا طبيعيًا، أو جنوب أفريقى، أو برازيليًا طبيعيًا.

هل تصدقون أن معتقلاً فلسطينيًا، كان سيتمّ نقله إلى سجن آخر، وهو مضطر لحمل رسالة مهمة، قرأها مرة واحدة فحفظها كاملة عن ظهر قلب، دون أن ينقص منها حرف؟!

وأن معتقلاً آخر، تم نقله إلى مستشفى السجن، لإجراء عملية «الزائدة» له، قطع عضوه التناسلى بشفرة حلاقة، عندما خشى من أن تغريه مُجنّدة إسرائيلية، وتسقطه فى شباكها!

هل تريدون أسماء هؤلاء، غير العاديين، حسنًا! إن أسماءهم معلومة لدى كل مَنْ دخل معتقلاً من معتقلات الاحتلال!

* * *

عندما اعتقلونى للمرة الثالثة، وحملونى إلى مركز اعتقال الظاهرية، مرة أخرى، ومكثنا فى جحيمه أسبوعين تقريبًا، أخرجونا إلى ساحة المركز، وكالعادة، ربطوا كل اثنين من المعتقلين بكلبشة واحدة، يومها تقاسمت مع الأخ المناضل راضى الجرّاعى

شرف الارتباط بقيد واحد.. وقبل أن نصل، بعد عشرين ساعة، إلى قسم «٥» فى «أنصار٣»، وقبل أن تحرمنا إدارة المعتقل من الأخ راضى؛ بإعادته إلى مركز التحقيق فى مدينة «ملبّس» الإسرائيلية «بيتاح تكفا».

كُنّا نقف فى طابور ثنائى، فى ساحة مركز الظاهرية، فى انتظار الإجراءات وتعصيب العيون وركوب الحافلة، وعندها جاء ضابط إسرائيلى، وأشار إلى أحد المعتقلين، بعدها حمل جندى يهودى قضيبًا حديديًا غليظًا، ووقف على صندوق خلف المعتقل المُشار إليه، وهوى بكل قوته وحقده على رأسه.. فوقع السجين، وأسقط معه الشاب الذى كان مربوطًا وإياه بالكلبشة.. وبعد دقائق استيقظ «المضروب على رأسه»، ووقف بكامل وعيه كأنما سقط على رأسه عمود ماء. عندها همس لى راضى الجراعى قائلاً: يبدو أن هذا المضروب خليلى! فرأسه يابس، ولن يتأثر ولو ضربوه بقنبلة نووية.

أما، فكيف رأسك الآن، بعد كل هذه السنوات من السجن والمسؤولية؟ هل أحالت الليالى شَعرك إلى فضّة من نهار؟... طوبى لك فى كل أحوالك أيها الرجل الباسل.

* * *

وفى معتقل المسكوبية، الواقع على ضفة شارع يافا فى القدس الغربية، حجزتنى المخابرات الإسرائيلية يومين، قبل أن ترسلنى فى «البوسطة» سيارة نقل المعتقلين، إلى مركز التحقيق فى طولكرم... والمسكوبية مركز توقيف حقير وخشن ودموى، وكان قد سبقنى إليه أخى وصديقى د. سمير شحادة، وكان حينها فى زنازين التحقيق فى المسكوبية كما علمت لاحقًا... وأدخلونى إلى إحدى غرف السجن.. فاعتقد السجناء أننى د. سمير شحادة.. فأوضحت لهم أننى صديقه، وعلمت حينها أنه هناك، كما كان هناك، وفى الغرفة التى أدخلونى إليها، فتى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، أمضى فى التحقيق المركزى، وتحت التعذيب المهول شهرين، ولم يعترف بأنه كان يعدّ «المولوتوف»... وأنه أحرق أكثر من خمس دوريات عسكرية، إلاّ أن واحداً ممَّن لم

يحتملوا التعذيب اعترف بكل شيء، ورغم ذلك فالفتى لم يعترف، وتمت محاكمته، لاحقًا، على اعترافات رفيقه!!

هل تذكر ذلك الفتى يا أبا نزار؟ ربما يقضي -حتى الآن- فترة سجنه، مع نزار في معتقل عسقلان، وربما أصابته رصاصات سوداء، في قلبه، مثلما أصابت ذلك الفتى «رامي»؛ ابن أخينا عزّت الغزاوي، الذي سقط شهيدًا، تاركًا حَمام الدار دون قمح أو غناء.

* * *

وكُلّما التقيت المناضل يوسف عزريل، أو صديقًا آخر يذكّرني بأيام كتسيعوت «الجميلة»! وبما فعله شاويش قسم ٤ الأخ الجسور أنور النابلسي. وقتها لم يصدق أحد ما رأى بأم عينه.. حتى سأله أحدهم: هل أنت من الأولياء، أصحاب الحظوة يا أنور؟!

لكن أنور لا يزيد عن كونه مناضلاً شريفًا صلبًا، مثل كل هذه الآلاف التي تفترش رمل الصحراء.

- إذًا، ما الذي جرى؟

حدث أن رمى أحد المعتقلين رسالة، بوساطة «الحمام الزاجل» من قسم ٢ إلى قسم ٤، لكن الرسالة وقعت بين أسلاك السياج «الشيك»، وكان مستحيلاً، أن يتم التقاط الرسالة - التي تحتوي على معلومات أمنية خطيرة تتعلق بأحد التنظيمات - من بين الأسلاك الشائكة، وكان لا بُدّ من إحضارها، عندها مَدّ أنور النابلسي ذراعه كاملاً بين الأسلاك، وراح يدفعها، كأنه يمددها، فاستطالت أكثر من خمس إنشات، حتى وصلت أصابعه إلى الرسالة، فالتقطها وسلّمها للفصيل المعني بالأمر، دون أن تنخدش ذراعه، أو ينقدّ كُمّ قميصه!!

أين أنت الآن يا أبا رامي؟ هل ما زلت تطرق بيمينك القادرة على الحديد، حتى تقوّمه، وتصنع منه بوّابات لبيوتات القدس! على ذراعيك الرضا والبركة!

* * *

وحدث أن كُنّا عائدين من زيارة المحامين، وفى طريق عودتنا إلى الأقسام، قام الجنود بتفتيشنا، تفتيشًا دقيقًا، وصل، كالعادة، إلى تحسيس ما بين أرجلنا، لكن جنديًا بذيئًا حاول أن يُجبر أحد المعتقلين على الانحناء ليفتش مؤخرته، فرفض المعتقل... فقام الجندى التعس وصفع المعتقل على وجهه. بعد ذلك لم نر إلاّ والجندى يطير فى الهواء... ويسقط فى جهة، ورشاشه فى جهة أخرى.. لقد وقع بين يدى مدرب كاراتيه! ولم يوقف ذلك الشاب إلاّ جديّة الجنود الذين سحبوا أقسام أسلحتهم فى وجهه، إذا ما استمرّ فى ضرب زميلهم، وبعد شهر ظهر ذلك المدرب الحزين، بعد أن أكلت العصىّ من جنباته، وهو مقيّد فى الزنزانة ليل نهار.

* * *

فى إحدى جلسات اللجنة النضالية العُليا، خلال فترة اعتقالى الثالثة عام ١٩٨٩، دار نقاش ساخن حول مفهوم الوحدة الوطنية، والتمثيل النسبى، ومدى نفوذ «فتح» وسيطرتها على القرار، ومدى المركزية التى تتمتع بها قيادة حركة «فتح» داخل بناءاتها التنظيمية الفضفاضة.. وكُنّا، على ما يبدو، وقتها، لم نتعلّم ما يكفى لنكون مستمعين جيدين! حيث إن دفاعنا «العشائرى» عن الحركة، هو ما دفع القوى الأخرى لتكون عشائرية، هى الأخرى! لقد كان الجميع ينتمى إلى «دين» سياسى، لا يقبل له خدش أو نقد. وبعد أن انتهت الجلسة، مضيتُ أنا وممثل الجبهة الشعبية فى اللجنة، إلى رياضة المشى فى الساحة.. وفجأة، وقف زميلى الرفيق فريد، وقال لى: سأُخبرك بشىء!

– ما هو يا فريد؟ ذهبنا، وجلسنا بعيدين عن الزملاء، وبدأ شرح السيناريو السياسى القادم... عندها أحسست بأنه يبالغ، أو أنه مغرم بالفنتازيا والتحليل اللا معقول.

هل تدرون ما الذى قاله الرفيق فريد؟

لقد قال لى، تقريبًا، كل ما جرى لاحقًا فى مؤتمر مدريد، وفى أوسلو.. وأنّ الحلّ سيكون حكمًا ذاتيًا.. وحتى سنوات طويلة! عندها لم أصدّقه! فهل تُصدّقون الآن، أم صدق المحللون السياسيون ولو كذبوا؟

عذرًا يا فريد.. لم يعد الأمر سرًا.

* * *

كثيرًا ما كانت «الشحرورة» تأتى، وبيديها أوراق الإفراج، وأحيانًا تكون الأوراق التى بين يديها أوراق تجديد الاعتقال الإدارى ستة أشهر أُخرى.. وبهذا، فإن «الحفلة» التى كُنّا نحرص على إقامتها ليلة يوم الإفراج الموعود والمحدد تنقلب إلى جلسة تضامن مع المعتقل الذى جددّوا حجزه نصف سنة كاملة! أما الذين يتم ذكر أرقامهم كمُفرج عنهم، على ذمّة الشحرورة، فإنهم يبدأون تسليم ملابسهم الداخلية النظيفة لصندوق التموين، وبمصافحة المعتقلين وتوديعهم.. وبالتأكيد، فإن عليهم أن يحفظوا الرسائل الشفوية من المعتقلين إلى أهاليهم أو أصدقائهم، ونقل الأمانات إلى أصحابها، وغالبًا ما يكون آخر المودّعين شاويش القسم، الذى يدعو الله بقوله «عُقبالنا».. فيجيبه كامل جبيل: إن شاء الله لمّا تروّح أنت وغسان الحرامى تنفقسوا!

– ما هى الفقسة هذه يا كامل؟

يقول كامل: عندما أفرجوا عن «فلان» بعد سنة كاملة، ووصل إلى بيته، وسلّم كلُّ أهل البلد عليه.. وذهب للنوم.. انفقس! كانت امرأته «جاييتها» (العادة الشهرية).. وعقبال عند المُفرج عنهم يا شباب..

يضحك الجميع، وينصفق الباب، وتلوح الأيادى للذاهب إلى صغاره وأم عياله على جناح الحرية العزيز!

* * *

ناعم.. ناعم.. هالريحـان
كُلّه ريحـه.. هالريحـان
قَطْفـه منّو.. هالريحـان
تغنى عنّو.. هالريحـان
يا حْليل إمـو.. هالريحـان
مـا فى منّو.. هالريحـان

.. ويكون العريس قد خرج من حَمّام العُرس، وجلس ليتزيّن، فيبدأ «الحلاق» كشط لحيته، وتسريح شعره، ودهنه بالأطايب والعطور.. وصوت الشبان حوله:

خفف موسك يا حلّاق اعملْ لهُ غُرّة.. يا حلاق

هكذا تبدأ حفلة زفاف المعتقل الذى يجلس بين يدى (حسام الحرامى) ليشذّب لحيته، ويهندس شَعره، ويهيئه للقاء يوم غدٍ، يوم الإفراج.

والمعتقل، حتى يخرج إلى بهاء اللقاء الموعود، عليه أن يجتاز «فقستين»: الأولى «فقسة» أن يتم تجديد اعتقاله ستة أشهر أخرى، وإذا تجاوز هذه، فعليه أن يجتاز «فقسة» كامل جبيل، وهى أن تكون الزوجة مستعدة! وعلى رأى كامل (مش جاييتها) وعلى رأى المثل:

مَنْ حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فقد وقع كامل «أبو أيمن» فى الفقسة الثانية، بعد أن انفقس فى الأولى، وها قد مرّ عام كامل على كامل وهو يحلم.. ويستاهل!

* * *

يلد السَحَرةُ وقت الغروب، حتى يكونوا قادرين على تأصيل هذه الغربة! والغروب فى الصحراء لوحة تتداخل فيها ألوان المغيب مع بياض الغيوم الرقيقة، فتكتسب الغيوم

لون الحنّاء الحزين. ودائمًا، ثمة دمعة كبيرة، فى السماء، تظل حتى الخيط الأخير الذاهب إلى البحر، كأنها وردة جُلنار فقدت أُمها، وأتت لتشاركنا الأسى الطريّ.

وعلى مرمى عينيك، ترى العوسج يستعد للنوم، تحت لحاف الندى. وثمة زهرة يتيمة تذبل عند حمأة الظهيرة، لتستعيد تفتّحها!

وكم تجمّعت حدقاتنا حولها، وحاولنا أن نستقدمها نحونا... لكن دونها خرط القتاد والبساطير.

وفى حضرة هذا الغروب الرسولى، وبعد يوم من سقوط الشهيدين الشوّا والسمّودى، أى يوم ١٧ / ٨/ ١٩٨٨، وقبل يوم إفراجى الأول بساعات، جلس المعتقلون، وما زال وحى المأساة يُجلّل المكان، ليشاركوا فى الأمسية الشعرية التى أحياها الصديق وسيم الكردى وأنا.. وكان لا بُدّ من أن تكون القصائد، مُكملة للمشهد الدامى، ولحالة الغضب والحزن، والصمت المتوتر الذابح. وراح وسيم يقرأ قصائده، ماسكًا الأوراق بيده اليسرى، فيما كانت يده اليمنى تكسر هواء الصمت، وتعيد تشكيل الغيوم، حتى سقط العندم، وتقاطر من ذراعه! كان الصمت مدوّيًا، أكاد أسمعه!! لكن وسيم، استطاع بصوته العميق المنفعل، وبحركة يده المُتّسقة مع صور الكلام الواضح، أن يكون أقوى من الصمت، وحلّ الليل برداء مصاصى الدماء السوداء، وما زالت كلمات وسيم الكردى ترمى نداءاتها، وتردد الصحراء أصداءها حتى الساعة.

* * *

وأنت يا سامى، يا شقيق الشاهد والشهيد.. كيف ستُهرب قصائدك وقصصك القصيرة؟ وأنت يا صديقى وسيم، كيف ستحمل «جدار الدم» وباقى القصائد التى تلوّنت بالعوسج والندى والنجمة العاشقة؟ وأنت يا أخى عبد الناصر، كيف ستحمل روحك المطرزة بأرجوان الشهيدين وصراخ المذبوحين... كيف سينحنى مجد القصيدة

أمام هراوات التفتيش؟؟ هل ستحفظون قصائدكم عن ظهر قلب، وتعيدون كتابتها، مرّة أخرى؟؟ أجبنى يا جمال.. ويا كل الكُتّاب المحبوسين!

* * *

لا بأس. فالحاجة أم الاختراع، وثمة «الكبسولات» اللواتى سيحملن كل الآيات الذهبية، باطمئنان وأمان، وستصل كل القصائد إلى المنصّة كاملة، دون نقص أو اعتداء.

ثمة ورق شفاف، يكتب على صفحته المعتقلون قصائدهم وحكاياتهم وأخبارهم، بقلم رفيع، وبخط صغير، يشبه النمل الأسود المتراص، حيث بالإمكان كتابة خمس صفحات على ورقة شفافة بحجم كفّ اليد، ومن ثم يتم ثنى الورقة وطيّها وجمعها حتى يصبح حجمها بحجم حبّة الفول، وتتم تغطيتها غير مرّة، بالنايلون، وتذويب نايلون إضافى على جنباتها.. حتى تصبح شبه كبسولة الدواء المُغلقة، لا يخترقها الماء أو الهواء. وقبل الخروج من القسم، يقوم السجين بِبَلْع عدد من الكبسولات، مع قليل من الماء.. وعندما يصل إلى بيته.. يذهب لقضاء حاجته، فتخرج الكبسولات.. ويتم غسلها جيداً، وفتحها، وبهذا تمّ نقل وحفظ كل أدبيات وأسرار السجون!

* * *

بعد ثلاثة اعتقالات إدارية، فى المعتقل نفسه، والانتقال من قسم إلى آخر، أصبح وجهى شبه مألوف للشحرورة، التى جاءت فى اليوم الأخير من الأشهر الستة الأخيرة، ونادت على رقمى، ضمن المفرج عنهم!

- كان رقمى فى الاعتقال الأول (٣٥٨٩)، وفى الاعتقال الثانى كان رقمى (٦١٦٨)، وفى الاعتقال الثالث (٩٥٧٦)، أليست أسماء جميلة؟!

– هل أقول إننى فرحت؟ أم أقول إن الأسى حلّ فجأة فى صدرى، وانقبضتُ، وأصابتنى كآبة غامضة!!

* * *

لم يكن «أنصار٣» يشبه «كاميلوت» إلاّ بجسارة مواطنيها، وتفانيهم الحقيقى دفاعًا عنها، لتظل المدينةُ الذهبيةُ، حارسةً للبحر والمراعى. بل إنّ كل معتقل فى «أنصار٣» كان يطاول الملك الشهيد، الذى حلم طوال عمره بالمرأة، وبرؤية مدينته ناصعة النقاء والعدل. وحتى، حين كاد يتزوج الأميرة المستنجِدة – وكان يشكّ فى أنها تعشق «لانسيلوت» الليث الآدمى الذى ربته الغابات – لم يشأ أن يحضن جسداً، روحه فرّت منه إلى غيره، لهذا كان يقول للأميرة:

تزوجى الملك، واعشقى الرجل الذى يلبسه الملك، وإلاّ فابتعدى!

لكن الملوك الحقيقيين، لا يموتون إلاّ شهداء، أمام النبال وطعنات الرماح، وعيونهم شاخصة نحو شمس الشروق، التى تتطالع من العيون الدامعة.

ربما كانت أرض «كاميلوت» المُمرعة بالزهر والعسل ساحرة إلى حدّ الخوف، أما أرض «أنصار٣» الرملية، فكانت مسحوقًا بشرياً ناشفًا، قلّبته الرياح بعد أن تآكلت الأجساد، وتحلّلت إلى حبّات تذروها الأيام منذ آلاف السنين.

* * *

هنا المدينة الجهنمية الكاملة الفاضلة! «أنصار٣» الذى حقق «لتوماس مور» حلمه كاملاً على هذه الرمال، وأكاد أصرخ أن هذا المعتقل هو «جزيرة الشمس» التى تجاوزت مدينة الفارابى الفاضلة، لأن حىّ بن يقظان – الذى تشبه أيامه الأولى أيام النبى موسى عليه السلام – أخذته الغزالةُ إلى حليبها، قبل أن يكشف له البرقُ الحقيقة!

مثلما تجاوزت جمهورية أفلاطون التى أبقت على التمايز الطبقى، بل كيف لها أن تكون «فاضلة» وقد أقصت الشعراء والمبدعين، على اعتبار أن «الفن» صورة مشوّهة عن واقع مشوّه أصلاً؟؟!

لقد تخطى «أنصار٣» كل الأحلام التى تطلعت لإنشاء عالَم عادل ومعقول. لكن مدينتنا الكاملة «أنصار٣» تجمع بين كثبانها كل ما قاله يوليوس فوتشيك فى «تحت أعواد المشانق»، وأوراق معين بسيسو الفلسطينية، وشرقَ عبد الرحمن منيف المتوسط، وأشعار ناظم حكمت. وتنطبق عليها، انطباق الحديد على الحديد، نفحات خريجي المعتقلات الصحراوية والرطبة من المحيط إلى الخليج، ورواية «المفاتيح تدور فى الأقفال» لعلى الخليلى، ورسائل عزت الغزاوى الرائعة التى لم تصل بعد، وما قاله عدنان جابر فى «القيد والحرية»، وكتاب «السجن ليس لنا» لمعتقلى سجن نفحة الذى أعدّه وحرّره عطا القيمرى، و«سجينات الوطن السجين»، وكل ما كتبه جبريل الرجوب وعبد الستار قاسم وفاضل يونس وحسن عبد الله وناهدة نزال، عن المعتقلات الإسرائيلية..

* * *

هنا المدينة الجهنمية «الفاضلة»، و «الكاملة». «أنصار٣»، الذى حقق «العالم الجديد والشجاع» كما تصوره ألدوس هكسلى بقمعهِ ووحشيتهِ وسلبهِ روحَ وإرادة الإنسان، وتحويله إلى مجرد هيكل عظمى دون أدنى مقومات.

ومن عجب أن العقلية الاستعمارية الإمبريالية تشرب من نبع واحد؛ «أنصار٣»، هو ذاته عالم ألدوس هكسلى، وهو ذاته جزيرة العقاب كما تصورها فرانز كافكا. العقلية الإمبريالية الاستعمارية تعتقد واهمة أنها تستطيع حمل الإنسان إلى نقطة يتخلى فيها عن روحه وإرادته وأحلامه وطموحاتهِ.. باستعمال القوة، العزل، التعذيب، القمع، زرع اليأس فى النفوس، تذويب الإحساس بالتمييز، قتل الإبداع، إنهاك الجسد من أجل إنهاك الروح.

«أنصار٣»، المدينة الجهنمية الفاضلة، آخر ما وصلت إليه عقلية فاشية عنصرية من أساليب فى تنميط جزيرة عقاب صحراوية بعيدة ومنعزلة، مستفيدة من سرمدية الصحراء وأبدية الشمس، من عقاب القرّ وخناجر الحر.

«أنصار٣»؛ معسكر اعتقال، أو قل، معسكر تجميع يشبه معسكر تربلنكى أو أوشفيتس، أريد له أن يكون تقطيراً لكل معسكرات الإمبرياليات السابقة، وتركيزاً لكل تجارب إجهاض الثورات والشعوب، من خلال هذا الاحتكاك اليومى بين القاتل وضحيته، بين السجان وسجينه.

مدينة جهنمية كاملة هو معسكر «أنصار ٣»؛ وكان علينا أن نطوّع أجسادنا أولاً، وكان علينا أن نحصّن إرادتنا، وكان علينا أن لا نرى من خلال عيوننا، وإنما من خلال هذه الأرواح التى تسكننا لتجعل من أجسادنا لا تشعر بحرٍ أو بقرّ، ولنحتمل صحراء فلسطين الجنوبية القارسة الموحشة، ولندرّب أفاعى تلك الصحراء لتخدم «التنظيم». كان علينا أن نجعل من مدينتهم الجهنمية الكاملة، وعالمهم الجديد مجرد أضحوكة ليس إلا، وقد فعلنا.

كان الوقت عصراً، وبعد ثلاث ساعات، انفتح الباب وخرجت.. بعد عناق ودموع ووشوشات، وبلعت كبسولات ديوانى الشعرى الثالث (رغوة السؤال) الذى رأى النور فى كتسيعوت. وكالعادة ساقونا إلى الساحة التى تم استقبالنا فيها، سلّمنا العهدة (البنطال والقميص)، وأعادوا لنا لباسنا المدنى الذى اعتقلونا ونحن متلبّسون فيه. وأعطوا كل واحد منا ورقة بالعبرية مختومة، تفيد بأن حاملها مُفرج عنه من معتقل «كتسيعوت»، تبقى معنا، حتى نذهب لاستعادة « أماناتنا» من المركز الذى اعتقلونا فيه، وحوّلونا منه إلى «كتسيعوت». والأمانات هى: الهوية الشخصية، ساعة اليد، الفلوس، الخاتم، حزام البنطلون، قيطان الحذاء.. وركبنا الحافلة التى ستوصلنا إلى مفترق بلدة راهط البدوية الواقعة ما بين الخليل شرقًا وبئر السبع غرباً، وهناك، علينا أن نجد وسيلة لتوصل كل منّا إلى بلدته.

وصلنا إلى مفترق راهط منتصف تلك الليلة.. وكنّا نخشى من أن تمر سيارة عسكرية أو متطرفون إسرائيليون يرشقوننا بالرصاص.. وينتهى أمرنا. لهذا كان عرْق الرقبة ينبض بصوت مسموع. وبعد نصف ساعة توقفت سيارة تحمل نُمرة منطقة

الخليل، ركبناها، بعد أن اعتاد سائقو السيارات على التقاط المُفرج عنهم.. ونقلتنا السيارة الصغيرة، وكنّا ثلاثة، حتى دخلنا بلدة الظاهرية، وهناك نزلنا...

وأمام أحد البيوت، ظهر شاب، سألَنا عن أمر وقوفنا؟!

فشرحنا له الأمر،.. فما كان منه إلاّ أن عانقنا بحرارة، حتى أصابتنى الريبة من مبالغته فى الترحاب بنا.. لكننا تبعناه إلى بيته، ودخلنا، فأوسع لنا الجلوس، فى غرفة الصالون المتواضع، وذهب إلى داخل البيت، وعاد مبتسمًا مُرحبًا بنا.. وبعد دقائق كان البيض المقلى وطبيخ العنب والجبنة البيضاء والخبز وإبريق الشاى يُعبئ طاولة الوسط التى كانت أمامنا!

ورغم الجوع، لم نأكل، كُنّا مشغولين بالوصول إلى بيوتنا، لكنه أصرّ على أن نأكل ونشرب الشاى ونُدخّن.. حتى يحضر لنا سيارة توصلنا إلى رام الله!

تَركَنا وحدنا فى بيته.. فازداد خوف واحدٍ منا، حتى كاد يهرب من البيت، لولا أننا تداركناه، وأقنعناه بأن هيئة الرجل تطمئن.. وبالفعل حضر، بعد قليل، مع رجل سمين، لم يمشط شعره، كأنه أيقظه من نومه.. وسألَنا الرجل: أين ستذهبون؟ فقلنا:

إلى رام الله، فقال: تدفعون ثلاثمئة شيكل، فوافقنا، وقلت له:

سنعطيك المبلغ فور وصولنا إلى البيت، اطمئن.

وقبل أن نخرج من البيت، سألت صاحبه: ما اسمك؟

فضحك، وقال: فاعل خير، الله معكم!

ركبنا سيارة الأجرة، وبدأنا نتجاذب الحديث مع السائق، وكان اسمه مصطفى، (أبا درويش).. وسألت أبا درويش: مَنْ ذاك الرجل الذى استضافنا فى بيته؟ فقال: هذا ابن محمود أبو شرخ، وهو رجل طيّب، وله أخ فى سجن عسقلان... وصلنا إلى مدينة الخليل، وقبل أن نخرج منها، وفى وسط الشارع المؤدى إلى بلدة حلحول شمالاً،

فى منطقة «رأس الجورة» أوقفنا حاجز للجيش الإسرائيلى.. لنمضى ساعة كاملة فى استجواب ممضّ، وتفتيش دقيق.. وسمحوا لنا بمواصلة الطريق . ووصلنا إلى القدس!! لقد كانت مدينة أشباح، تجوبها دوريات عسكرية خائفة، وجنود يقعقعون بأسلحتهم، كأنهم يوقظون الجنّ من حولهم، ليطردوا الرعب المحيط بهم. وعلى الساعة الثالثة صباحًا، وصلت إلى بيتى الواقع على مشارف رام الله، فى منطقة ضاحية البريد، شمال القدس، وطلبت من أبى درويش والشابين المفرج عنهما معى، أن يتفضلّوا لكى أُعطى السائق أجرته، ولأقوم بواجب الضيافة!! لكن أبا درويش نظر إلىّ، وقال: اذهب لعائلتك، حقّى وصلنى، وسأحرص على إيصال الشباب كلٍّ إلى بيته فى رام الله وبيتونيا، لا تقلق!

- ولكن يا أبا درويش..

لا تكمل، قال أبو درويش، «فأنتم لستم وطنيين أكثر منى، وهذا واجبى..»

* * *

أُكتُبْ رسالتك الجديدةَ للصغارْ يا ليْلكَ الأطفالِ يا نُوّار يا نَغَمَ الهزارْ سيجيء فجرُ الانتصارْ وستشهدون نهاركم والليلُ، يومًا، لن يعودْ.. فلتشهدوا هذا زمانُ الانتفاضة إنّه زمنُ الصعود.

* * *

ربما لن أعرف أبا درويش، إن رأيته مرّة أخرى. لكننى أراه وأرى ابن محمود أبو شرخ وآلاف الوجوه المعفرة بالرمل والشمس، فى كل الوجوه التى تطالعنى أنّى ذهبت.. من عكا إلى رفح، ومن يافا إلى أريحا، ومن البيوت التى تعجن حنّاءها، الآن، تحت شبابيك الجزّارين، إلى الطرقات التى جعلت صدورها العارية سواتر، تردّ الدخلاء الذين يتراجعون، وسيتراجعون حتى يدخلوا فى التيه القادم الطويل، ما داموا مرهونين لعقدة الأغيار، وحلّ المقاصل المثالى!

وما دام الطفل الفلسطينى مضطرًا ليحمل أمته العربية الإسلامية على كتفيه.. ويمضى بها إلى فضاءات الزمن الجديد.

ملح يافا حلو

(عن موت أُمِّى والحواجز)

فصل من كتاب "مرايا الدم والزلزال"

٢٠٠١

لم تكن تلك الليلة رقراقة نهارية، كما نشتهى ليل الربيع. كانت كابية لزجة، وصل دبق الدم البعيد، فيها، إلى وسائدنا، وضمّخ مرايانا.

هذه الليلة ثقيلة قلقة، جاءتنى أكثر من عشرين مكالمة تليفونية من الأهل فى قلقيلية، تحاول جميعها طمأنتى على صحة الوالدة، وأن وضعها مستقرٌ، وهى ترقد فى غرفة العناية المكثفة فى المشفى التخصصى فى نابلس.

قبل يومين لم يستطع أحد من أشقائى اصطحابها بسيارة إسعاف لنقلها إلى نابلس بسبب الأحداث، ومنع الرجال من الخروج من قلقيلية، ومنع السيارات من التنقل، وإن سُمِحَ لسيارة فيكون معها تصريح من إدارة جيش الاحتلال، أو تقرير طبى يوضّح أن المنقول هو مريض سيتم إيصاله إلى أحد المشافى.

على الحاجز الشرقى الذى أقامه جنود الاحتلال فى الطريق المؤدى إلى نابلس، فى منطقة صوفين، أوقف الجنود سيارة الإسعاف، وراحوا يدققون فى الأوراق والتقارير، وأنزلوا شقيقتى التى صاحبت أمها الممددة على أرضية السيّارة، وبرابيج الأكسجين الرفيعة متصلة بين جهازها التنفسى وأسطوانة الأكسجين. أخذ الجندى الهوية الشخصية الخاصة بشقيقتى، وراح يفحص، وبعد ساعة أو يزيد، قال لها:

عليك أن ترجعى إلى البيت، فليس لديك تصريح خروج، وذهبت كل كلمات شقيقتى أدراج الرياح، وأبقوا المريضة وحدها، وبعد ساعة سمحوا لسائق سيارة الإسعاف بمواصلة الطريق، ليواجه أربعة حواجز متلاحقة فى الطريق، بالقرب من بلدة عزون، وجينسافوط، وكفر قدوم، ورفيديا؛ ومكث السائق – كما أخبرنى– ساعة أو أكثر عند كل حاجز، ووصل المشفى بعد ست ساعات من انطلاقته من مشفى قلقيلية، وكادت الوالدة تختنق وتموت بسبب نفاد الأكسجين والتفتيش والصراخ.

اضطرت شقيقتى أن تسير وحدها أربعة كيلومترات عبر الطرق الفرعية والجبلية الموحشة، لتصل إلى بيتها باكية منهكة.

وصلت سيارة الإسعاف إلى المشفى، وليس مع الوالدة غير سائق السيارة، وبعد اتصالات وتوضيحات، أدخلوها إلى غرفة العناية المكثّفة، وتوجه أحد أنسبائنا القاطنين في نابلس، لمتابعة وضع الوالدة ودفع المبالغ المطلوبة لإدارة المشفى، ولم يستطع، على مدار ثلاثة أيام، أحد من أبنائها أن يزورها في رقدتها. وفي صبيحة اليوم الرابع، كانت الوالدة قد أسلمت روحها لبارئها.

اتصل بي نسيبنا من نابلس، ومن رجرجة صوته ولعثمته عرفت أن الوالدة قد توفّاها الله.

حزمت أمري للسفر إلى قلقيلية، وبعد بحثٍ مضنٍ واتصالات مُلحفة، تم الإجماع على أنني لا أستطيع الوصول إلى مسقط رأسي إلا بوساطة سيارة إسعاف! اجعل نفسك مريضًا، وتمدد على سرير متنقل، واحمل أوراقًا من أي طبيب، وضَعْ جهاز التنفس الاصطناعي، وأغمض عينيك. وتوكل على الله.. يا متوكل.

انطلقتُ بسيارة الإسعاف، وقمت باللازم، وبعد سبعة حواجز، وخمس ساعات ونصف الساعة وصلت إلى قلقيلية. كان الأهل قد رجعوا من المقبرة، ودفنوا أعزّ الناس، وعادوا باكين، وصوت الشيخ عبد الباسط يضوّع المكان الحزين.

منذ اندلاع الانتفاضة لم أرَ أمي، وكنت أرجئ سفري إلى قلقيلية، لعل الأمور تيسّر لي فرصة لتقبيل يديها ونيل رضاها.

في المساء، ومن بين المعزّين الذين امتلأ بهم الديوان والممرات، أطال رجل الوقوف معزّيًا مع أشقائي - الذين يكبرونني كلهم - ولمّا وصل إليّ شدّ على يدي، وقال لي حرفيًا: عليك أن تكتب لكل العالم كيف أهانوا أمّك وهي ميتة، وطفقت من عينه دمعة عزيزة، واتخذ مجلسه بين الناس.

في ساعة متأخرة من ذلك المساء الطويل الدامع، ذهب الأهل إلى بيوتهم، وظلت كلمات سائق سيّارة الإسعاف تضج في رأسي، مثل طحن الحجارة الصمّاء.

أحضر نسيبنا سيارة إسعاف، ووضع الجثة فى صندوقها الخلفى.. وكان السائق من أهل البلد، ويعرفنا جيداً، كانت الساعة السابعة صباحًا، واتجه غربًا من نابلس إلى قلقيلية، وأراد أن يُمضى مُبكرًا قبل أن تقع حادثة هنا أو صدام هناك، وتتعقّد إمكانية إيصال الجثة.. لكن الحواجز دائمة الاستنفار، وتعرف مهمتها فى تعذيب الأحياء والأموات، وإهانة البشر والشجر.

يقول السائق: لم يصدقوا أنها ميتة، كانوا يكشفون عن جسدها وينخسونه بالهراوات أو أفواه البنادق. وكنتُ أحاول أن أصرخ أو أحتجّ، لكننى كنت أبلع غيظى وأطبق على فمى، بل إن جنديًا عند حاجز عزّون قرر أن يفتش جسد الميتة خوفًا من احتوائه على متفجرات أو مواد ممنوعة -إنكم أيها الفلسطينيون تهرّبون السلاح فى عوراتكم- وعندها، يقول السائق: صرخت، وكان صراخى وحشيًا وخشنًا، وكنت أرتعش، وحضر الجنود والضباط، وبعد أربع ساعات من ذلك العنت والتفتيش والوخز فى الجثة.. وصلنا إلى قلقيلية.

بعد أربعة أيام من تقبّل العزاء والبكاء، لا بدّ من العودة إلى رام الله، وعليه، لا بد من الاتصال بسيارة الإسعاف نفسها، وتمثيل الدور السخيف نفسه.

لقد كان ممكنًا أن أصل بعد الجنازة بثلاث ساعات قبل العام ونصف العام، إلى قلقيلية، وأتقبل التعازى. وأحمد الله تعالى أنها لم تمت هذه الأيام، بعد الاجتياح وإعادة الاحتلال، فعندها كان من المستحيل الوصول إلى البلد، والوقوف أمام شاهدة القبر وقراءة الفاتحة على روح الحاجة عفيفة رحمها الله.

عندما تموت الأم يصيح ملاكٌ فى السماء يقول لابنها: مات أول من يحبّك وآخر من يحبّك.

لقد رحلت الحاجة عفيفة قبل أن يخلعوا عليها باب دارها، وقبل أن ترى كل أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والتين والرمان مخلوعة فى أرضها، لقد عادت أرضك يا أمى حمراء دون زرع، كأنها رحم امرأة تنتظر من يفترعها بالصغار والشجر والطيور.

وربما – رغم موت أمي– كنتُ محظوظًا أكثر من ذلك الرجل، الذى أجبره جنود الاحتلال على خلع ملابسه كلها، هو وكل الرجال الذين اعتقلتهم قوات الاحتلال عند ذلك الحاجز، ثم أمر الجنود النساءَ المتواجدات أن يخلعن ملابسهن كلها، ولولا ذلك الاشتباك الطاحن الدامي الذى وقع فيه شهيدان.. لرأى ذلك الرجل أمه عارية! بسبب صمت العرب والمسلمين والمسيحيين والسيخ والبوذيين والفودو والطوطميين.. و...

* * *

ماتت أمى والطبول البعيدة تقترب من نافذتى، فيترنّق الأصيص، ويبدأ حلم طفل يلهث بالحجارة فى برارى الشقائق والشمس الصغيرة.

ماتت، والقوس بكامل توهّجه فى سماء الانتفاضة، واضح الأطياف، يفتح الأبواب للبرق المخزون فى غيوم الأرض.

ماتت الحاجة عفيفة والدم لم يتخثّر فى أرض الرباط، والبطن المبقور يشهد على الجلّنار المذبوح على صدر أُمه، واللجوء ما زال يفرد غربانه من هناك إلى هناك.

ماتت، وامرأة نائحة تقول لآخر أبنائها: اذهب حتى لا تغلبنى الخنساء أو تجد نساءُ المخيّم ما يكسر عزائى. وامرأة تقول لضفيرتها: احترقى حتى يحفظ ابنى خارطة الغناء. والمفتاح الثقيل يقول لحامله الشيخ:

ما زلت قادراً على فضّ الرمّانة وفك الصدأ. وطفل يولد الآن يقول: امسحوا دموعَ فاطمة حتى لا ترمد عيون مريم.

ماتت أُمى، والحجر الفلسطينى ما زال يهشّم وصايا التائهين الذين أحالوا المكان المؤوّل بالوهم، حيث تصل البساطير، إلى سجن يدوّى بالغضب. ماتت وعرق الشيوخ يختلط بشرايين أبنائهم، ويدهم على جراح أحفادهم كأنها يد الله على كتف الأنبياء.

ماتت الحاجة عفيفة، والناس هنا فى فلسطين يتقاسمون الرغيف والنزيف الذى يصهد الصخر، فتنحلّ خاصرته ويصبح ذراعًا تشهد على تعالى النسغ والضفيرة

والرغيف الذى يسقط قمحه فى جرحٍ غائر أو قبرٍ صغير أو حديقة لا تنام، ليشقوا العتمة، ويفتحوا ذلك المسرب السرّى للبراعم والطيور، لتكون كمشيئة الله، لا يهتك بها غازٍ أو عارٌ أو دخيل، وحتى نصحو بعد ليل طويل على صوت مولودة لها اسم إيمان أو فتى له اسم محمد، وحتى ننسى عرائس الموت وقشعريرة الإعدام الجماعى، أو نحتفى بأولئك المصلوبين، خلف القضبان، على العقرب المخاتل.

ماتت أمى، والسيدة العمياء «العدالة»، لم تسترجع بعد بصرها أو بصيرتها، لكننا ماضون.

* * *

غالبًا ما يضع أهل المريض سيناريو موته، كأنهم يهيّئون روحهم للحدث الغليظ الذى سينزع عزيزهم من بين ضلوعهم، وكأن المرض توطئة للموت أو أولى درجاته المعتمة، رغم أن عظام المرضى لا تزال مبتلّة بالحياة، وبخار أنفاسهم ينسرب بهدوء إلى النوافذ الكئيبة. وربما كان هذا السيناريو مداراة لصعقة الموت، أو استعداداً لاستقبال الخبر الواقع لا محالة، أو تفادياً لجزع الفراق وضربته المصوّحة!

أما أهل الميت الذى يغادرهم فجأة فإنهم يلجأون إلى غير حيلة من حيل الدفاع الآلى، لينتصروا على المفاجأة الفظة العارية التى تسقط فى رؤوسهم مثل قنبلة عمياء.

بمعنى، أن مرض الأعزاء أواخر أيامهم عزاء، بما يحمله من رسالة أولى تجعلنا نتخيّل أنفسنا وحالنا عند موت أحبابنا، وما إن يموتوا، راضين مرضيين، حتى نحيل أنفسنا وحالنا إلى معايشة الواقع الذى مررنا به وجرّبناه، واحتملناه، لهذا يكون دمعنا أقل، وحزننا أبهى وأعمق.

* * *

كانت تقول أمى - رحمها الله - دائمًا: «ملح يافا حلو!»، وعندما خطبنى أبوك كنت فى العشرين من عُمرى، على أبواب العنوسة آنذاك، العام ١٩٤٢ أخذنى إلى يافا

لشراء كسوة وجهاز العروس، وما إن دخلت تلك المدينة التي كانت تضفضف بذهب البيارات وشهد الخيول، حتى أيقنت أنها مدينة معبأة بالسحر، تأخذك إلى امتلائها وروائحها وتفتحها الحذق. كانت مدينة واسعة مزدحمة وغنيّة بحريرها وأضوائها وأطعمتها الفوّاحة.. غادرتها ذلك المساء لأزورها في أحلامي، كأنها مدينة ملوك الجان، أو عليّات ابن الأمير، عدت إليها، غير مرة؛ لمعاودة طبيبة الولادة، وللسينما، ولابتياع أوّل خزانة ملابس بدل صندوق العروس!

وقبل النكبة بعام واحد، كنتُ على شفير الوضع، وكان حملي صعبًا، وما إن أجلسني أبوك على رصيف أحد مطاعم المدينة حتى وقعت عدة انفجارات، فتراكض الناس، وعمّ الهلع والصفير واصطخبت المدينة، ولا أدري كيف وجد أبوك سيّارة أقلّتنا إلى قلقيلية.. ومن يومها لم أذهب إلى يافا!

ماتت أمي، ولم آخذها إلى يافا، حتى لا يحتشد قلبها، وتنفجر رمانة صدرها، لأن يافا لم تعد هناك، لقد أصبحت خرائب منكسرة وبيوتات مُرهقة ومحلات خاوية، كأن يافا تختصر سيرة المَظْلمة، وتقدم مشهد النكبة كاملاً، ودون مبالغة!

لقد ماتت أمي صبيحة يوم التاسع من نيسان ٢٠٠١، يوم ذكرى مذبحة دير ياسين، وعشية معركة القسطل، كأنها – رحمها الله – ظلت تحمل غصّة الخبر المروّع ثلاثة وخمسين عامًا، وأرادت أن تلتقي أرواح المذبوحين في ذكرى ترويعهم وبقر بطونهم واتساع جروحهم وسحجات صدورهم، أو كأنها تريد أن تشحذ الحزن وتبعثه فينا، لنعرف طعم اليُتم، ومعنى أن نهيل التراب بأيدينا على مَنْ نحب.

اليتيم يتيم الأم، لأن الإنسان يظل طفلاً حتى يفقد أمّه، عندها يشيخ ويهرم ويكبر فجأة ألف عام. ويكتشف، مرة واحدة، أنه كهل، وأن له أبناءً كبروا وطاولوه، وأنّه لم يبق من العمر أكثر مما مضى! وربما لا يتغضن وجه اليتيم، لكن قلبه يتجعّد، وتأخذ ملامحه بالغروب، ولو كان مَصوغًا من تبرٍ وأرجوان..

* * *

«تخيّل، لقد دفناها بأيدينا، وعندما أصعد درجات البيت لن أجدها»، قال أحد أشقائي وراح يبكي كأنه لا يصدّق موتها.

الحاجة عفيفة «عِفّو» عندما كنّا ندلّعها حتى آخر أيامها فتنسكب ضحكتها المرتاحة، كانت مرهونة للبكاء الهادئ.

من أين تأتين بالدمع يَمّا؟ ولماذا؟

عندما يُرزق أحدهم بمولودة أنثى كانت تبكي. وعندما تسمع بموت أحدهم، آخر البلد، كانت تبكي. وعندما يتأخر المطر كانت تبكي.

عندما كان يسافر أحدنا أو يُعتقل كانت تبكي، وعندما يعود كانت تبكي. كانت تبكي وهي تشاهد المسلسلات التلفزيونية. وتبكي إذا جاء العيد، أو هلّ شهر رمضان. وإذا تزوّجت حفيدتها تبكي، وإن جاءها المخاض تبكي. كانت تعتقد أنها بدموعها تناصر المغلوب والمصاب، وتشارك الفرحان فرحته، وقلّما حرّكت شفتيها وهي تبكي، لكنها أحيانًا كانت تقول: الله يعينها، أو الله يعين أُمه، كان بكاؤها خفيفًا طاهرًا، وغالبًا ما ينتهي بضحكة صغيرة تقنع بها مَنْ حولها بأن بكاءها طبيعيٌّ وواجبٌ لا بد منه.

لكن بكاءها كان يمتد ويطول ويصبح ضاريًا ومؤلمًا عندما تذكر يافا وبيّارات البلاد وأيام السعْد هناك، أو عندما تسمع بخبر استشهاد أحد الشبان الاستشهاديين الذين يفجرون أنفسهم. كانت تبكي على أشلائهم، وتخاف عليها من النجس والعرى والحرمان من الدفن، كانت تعتقد أن الأعداء يرمون أشلاء الشهداء في مكبّات النفايات للجرذان والقطط الضالة، وتبكي.

لقد اعتدنا على بكاء الحاجة عفيفة، لكن الغريب أن رموشها الطويلة كانت تزداد طولاً ولمعانًا، كأنها كانت تسقيها بهذا الدفق الحنون، حتى بقيت حزمة السنابل السواء شاهدة على عينيها المصقولتين اللتين تترجرجان بذلك الماء الزجاجي السهل، وبقيت الحاجة عفيفة معافاة ناشطة، محافظة على عاداتها، كارهة كل التقنيات الجديدة وكل

الأجهزة الحديثة، فهى لم تستعمل «الشامبو» ولم تصبغ شعرها، وظلّت تمشطه أو «تكدّه» بمشط العظم المسنّن من جهتيه، وكانت تفرك أسنانها بالملح، وظلت مخلصة للصابون النابلسى، وتلوك الزعتر عراق والميرمية لتطيّب أنفاسها، مثلما تنصح النساء من حولها بوضع الحبق الجاف الملفوف بقطعة قماش خفيف فوق أماكن الجسد أو فركها بورق الليمون الطرى بعد الاستحمام، أو استعمال حزمة من الشجيرية (الميرميّة) لتلييف الجسد بدل الليفة أو الإسفنجة.

وكانت الحاجة عفيفة لا تثق إلا بالدنانير، بل تعتبر الشواكل (العملة الإسرائيلية)، مثلاً، عملة غير محترمة ولا تساوى شيئًا، ولا يمكن أن «يحوّشها» الإنسان العاقل.

كانت تحبّ المرأة المدبّرة غير المبذّرة، وتكره الرجل البخيل أو العنيف الذى يضرب بناته أو يشتم زوجته وتعتبره «مُش زلمة»، لأنه «يتشاطر على الولايا» مثلما كانت تنفر من الرجال الذين يحلقون شواربهم، ومن النساء اللواتى يبالغن فى المكياج ووضع الأحمر والأخضر للرايح والجاى!

كيف قبلتِ الزواج من أبى – رحمه الله – وهو أكبر منك بثلاثين سنة.

تقول لى أمى: لأننى كنت متيقّنة من أنه سيأخذنى إلى يافا.. كان بإمكانك أن تذهبى مع أبيك إلى هناك!

تقول: لم يكن من عادة الآباء اصطحاب أبنائهم، وبالذات البنات، إلى «شم الهوا» أو إلى أى مشوار، ثم كان أبوك أنيقًا شابًا.. وهو فى الخمسين؟

تقول: لم يكن فى الخمسين من عمره، بل أقل بكثير، ثم إننى «شفقت عليه»، لقد كان خارجًا من سجن عكا، بعد أن أمضى سبع سنين معتقلاً، وكان أرمل غنيًا، ثم إن أبى – جدك – رحمه الله أجبرنى على الزواج منه.. الله يسامحه!! ثم ماذا تريد الواحدة منّا! لقد أعطانى كل ما أريده؛ أولادًا وخيرًا كثيرًا، ثم كان أبوك حنونًا كريمًا إلى حد التبذير، لقد عشت معه أكثر من عشرين عامًا كلّها عسل ولوز، وكان يجلب لى من يافا،

كل شهر، هديّة؛ مروداً أو عطراً، أو إسوارة، أو أكْلة حلو، أو «مشاوى عالفحم»، أو عباءة.. أو ماذا يا «عِقّو»؟!

تضحك، وتذهب إلى هناك، وتغيب عنا وهى جالسة بيننا، وتبرق عيناها بالزجاج الرخو، بهدوء رسولى عميق.

* * *

كانت أمى -مثل أهل زمان- تعتبر ذهابها إلى يافا قبل النكبة، أو إلى القدس للصلاة فى الحرم، بضع مرات، سفراً بعيداً، كانوا يستعدّون له ويودّعون بعضهم قبل أن «يخطروا» إلى تلك المدن، وبعد عودتهم يظل سفرهم هذا مدار حديثهم عدة أسابيع، ثم كانوا يعرضون الهدايا التى جلبوها من هناك لكل مَنْ يأتى للسلام عليهم وتهنئتهم بسلامة العودة، كانت الأرض حينذاك صغيرة، وأفقها القريب بعيداً إلى حد السذاجة والاستغراب.

أما عقد الذهب العسملّى الذى كانت تضعه الحاجة عفيفة على صدرها، فى المناسبات، فهو عبارة عن اثنتى عشرة ليرة ذهبية رشيدية، اشتراها زوجها من عند أبى حنا، من «نُصّ يافا» قبل ما تروح البلاد بسنتين، وكانت الحاجة تتحسس عقدها كأنها تمسّد حبّات برتقال يافا «الناصح»، أو تمسح حبّات الشتاء عن زهرة ليمون تضوّع الأرض بأريجها الأخّاذ.

ربما عرفتُ لماذا أصرّ والداى - رحمهما الله - على زرع بيارة برتقال فى أراضينا شرق قلقيلية، بعد النكبة. كأنهما يريدان أن تحمل قلقيلية عن يافا بياراتها وأراضيها المرعة العطرة التى أخذها اليهود. لكن أمى كانت تفضّل تناول البرتقال بعد تقشيره، وتكره عصير البرتقال!

والسبب أن أحد أخوالها، واسمه «أبو زهدى»، كان يملك بيارة وبئراً ارتوازية بين يافا والرملة، وكانت له «حسبة» خضار فى يافا، يبيع فيها برتقاله وخيرات المواسم

الباذخة. ولمّا وقعت النكبة هاجر أبو زهدى هذا إلى قلقيلية، وحرّم على نفسه أكل البرتقال أو شرب عصيره ما دامت البلاد تحت الاحتلال، لكن أحد الشبان تآمر على أبى زهدى ولم يكن يقصد أن يؤذيه. لقد صبّ عصير البرتقال فى إبريق الفخّار الذى اعتاد أبو زهدى الشرب منه فى الصيف، وما إن وصل العصير إلى جوف أبى زهدى، حتى نزل كأنه السمّ الزعاف، ونقلوا أبا زهدى إلى المشفى، وضاقت أنفاسه، ولم يلبث يومين حتى مات.

* * *

كانت أمى تقول: لولا رحمة الله لسقطت قلقيلية مرتين فى أيدى اليهود! فالمرة الأولى عندما أطبقت العصابات الصهيونية خناقها على المثلث الفلسطينى (جلجولية، الطيرة، الطيبة)، وهى قرى تحيط بقلقيلية من الشمال والغرب والجنوب، ولا يبعد بعضها عن قلقيلية مسافة ثلاثة كيلومترات، وتتصل أراضى هذه القرى بأراضى قلقيلية التى راح معظمها مع النكبة، حيث خسرت قلقيلية أربعين ألف دونم زراعى خصب، من أصل خمسين، عندها هاجر بعض أهالى يافا إلى قلقيلية، فيما وصل معظم أهالى قرى كفر سابا ومسكة وخربة عزون وسيدنا على وملبّس والعباسية وراس العين إلى قلقيلية، أيضًا، فاستقر بعضهم فيها، وواصل الآخرون هجرتهم شرقًا وإلى كل الجهات. والمفارقة أن أهالى قلقيلية، عندما وصل اليهود إلى قرى المثلث واحتلوها، حملوا أنفسهم وهاجروا شرقًا بضعة كيلومترات إلى منطقة تسمى «حنيش»، لكنهم لم يطيلوا فيها المقام، وعادوا إلى بلدتهم بعد أقل من أسبوع.

أما المرّة الثانية، فكانت ظهيرة حرب حزيران ١٩٦٧ عندما هاجر كل أهالى قلقيلية شرقًا، وعادوا بمعجزة بعد شهر إلى بلدتهم، بعد أن كان الاحتلال الإسرائيلى قد هدم وحرق أكثر من ثمانين فى المئة من بيوتها، حيث كانت تنوى إسرائيل هدم البلدة وتسويتها بالأرض، لاقترابها وتداخلها مع حدود أراضى ١٩٤٨، كما فعلت بقرى اللطرون (بيت نوبا، وعمواس، ويالو).

* * *

وقد شهدت قلقيلية العام ١٩٥٦ عملية نسف مبنى «العمارة» التى كانت تقع شمال المدينة، حيث تسللت عصابة عسكرية صهيونية، وقامت بتفجير المبنى بمَنْ فيه، ليلاً، ليستيقظ أهالى قلقيلية مع سقوط سبعين شهيداً قضوا فى العملية الغادرة. كما قامت عصابات يهودية أخرى بنسف ست آبار ارتوازية ومحطتى الوقود فى البلدة خلال العامين ١٩٦٤ و ١٩٦٥ م. كما يتذكر أهالى قلقيلية كوكبة من الشهداء الذين وقعوا ضحايا الرصاص اليهودى، وهم يهمّون بالتسلل إلى الدولة العبرية، الناشئة آنذاك، لتنفيذ عمليات ثأر ضد مَنْ أخذوا أرضهم وطردوهم منها.

* * *

ماتت أمى وهى تحتفظ «بالكواشين» الأصلية، فى علبة معدنية، تضعها بعيداً عن الأيدى والعيون، فى خزانتها، وفى تلك العلبة تضع عقدها العسملّى، وما تيسّر لها من نقود ورقية. وفى السنوات الأخيرة، كانت توصينا بالكواشين، حقّنا فى فلسطين، أكثر من مئتين وستين دونمًا تمتد من شمال جلجولية حتى جنوب غرب قلقيلية، فى منطقة اسمها «مارس السعيد»، والسعيد، بالمناسبة، هو زوجها أو والدى سعيد البكر بن صالح طه بن نزّال الممتد نسبه إلى الشيخ على الغمرى بن الشيخ عبد الدايم، الذى تسمّت باسمه قرية الدوايمة غرب مدينة الخليل، والمنتمى إلى الأشراف -هكذا تعتقد العشيرة-، والأشراف هم أحفاد أبناء الحسنين ابنىْ على بن أبى طالب كرّم الله وجهه.

* * *

ورحم الله أحمد بن الحسين الجعفى الكوفى الشاعر المتنبى الذى قال (وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام)، لأنه صدق فى قوله هذا، حيث رفض والدى سعيد بكر طه نزّال، دون أهالى قلقيلية، أن يتسلم «كرت اللاجئين» الذى تم توزيعه من «الأونروا» (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين) على كل أهالى قلقيلية «دعمًا» لهم على خسارتهم أرضهم التى نهبتها الدولة الجديدة، وسبب رفض والدى هو أن

الأشراف لا يجوز لهم أخذ الزكاة من المسلمين أو قبول صدقاتهم، فكيف لهم أن يتقبّلوا صدقات الكفّار المتآمرين على فلسطين؟

* * *

يافا - أم القرى - والبلدات المحيطة بها نداّهة تغوى الجميع؛ من رآها أو سمع عنها، كانت مدينة تحرس البحر وتسامره فلا ينام، حتى لا تتركه وحيداً مستوحشاً، أو حتى لا يتسلل إلى البيارات ليلاً فيمتصّ رحيقها ونسغ قناديلها الذهبية، ويعود عذباً يزيد عطراً وزهراً، بعد أن يترك الشجَر ضعيفاً كابياً.

ربما فعلها البحرُ مرّة، فاكتسب حلاوة البرتقال وعذوبة عسل زهره الضوّاع، فصار الماء الأجاج سُكّراً، لهذا قال الناس: ملح يافا حلو.

فى فيروز الشهد، غمست أمى ساقيها، وانفتح البحر أمامها منصة زرقاء لا نهائية، وكانت شاشة السماء تطرّز غيومها البيضاء الخفيفة طيوراً من قطن وخيال.. وما إن عادت ذلك المساء إلى قلقيلية، حتى أحسّت بأعراض الحمل، وأن ثمة نطفة مائية تكبر فى رحمها.. لقد كان البحر!!

أزهر وجه «عفو» فرحاً، ستلد نهراً أو عروساً تلتقط لها حبات اللؤلؤ من القيعان الزرقاء، لكن وجه أبى، الذى علِمَ بأمر الحَمل، ظلّ على حاله صلباً محايداً، أقرب إلى التجهّم والحزن منه إلى الفرح والحبور. ولم يخالجه شكٌّ بأن زوجته امرأة عادية قابلة للحمل الطبيعى أو الإجهاض أو العُقم. وانتفخ بطن الحامل، وبدت عليها ملامح الوهن والإرهاق. وفى منتصف شهر أيار من العام ١٩٤٨ استيقظت الحامل، وكم كانت دهشتها من أن بطنها عاد كبطن الغزالة دون نتوء حمل أو علامات ولادة، لقد كان الحمل كاذباً! وراحت أحلام العروس، لكن المرأة ظلت قادرة على الحمل والولادة.

المؤلف فى سطور:

- المتوكل طه

صدر له فى الشعر:

- مواسم الموت والحياة.
- زمن الصعود.
- فضاء الأغنيات.
- رغوة السؤال.
- ريح النار المقبلة.
- أو كما قال (مختارات).
- قبور الماء.
- حليب أسود (عن هارون الرشيد والبرامكة).
- نقوش على جدارية محمود درويش.
- الخروج إلى الحمراء (عن أبى عبد الله الصغير وتسليم غرناطة).

* وقد صدرت الأعمال الشعرية المذكورة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت العام ٢٠٠٣.

- الرمح على حاله.
- أحلام ابن النبى - صدر عن مكتب المؤسسات الوطنية - كانون ثانى ٢٠٠٦.
- قال الفتى لبنان، صدر عن دار الرعاة - رام الله ٢٠٠٧.
- نصوص إيلياء ويبوس، صدر عن دار الراية ٢٠٠٩.

في الدراسات:

- بعد عقدين.. وجيل (الثقافة الوطنية الفلسطينية فى الأراضى المحتلة بعد عشرين عاما من الاحتلال) - بالاشتراك.

- دراسات فى الأدب واللغة (الإنسان، الشعر، المسرح، اللغة).

- الثقافة والانتفاضة (بعد ألف يوم من الانتفاضة، أثر الانتفاضة فى الثقافة وأثر الثقافة فى الانتفاضة)، بالاشتراك.

- إبراهيم طوقان (دراسة فى شعره).

- الكنوز (ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان)، وصدرت الطبعة الثالثة منه بعنوان «من أوراق الشاعر».

- هذا ما لزم، رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى طوقان.

- دراسة فى قصيدة «الثلاثاء الحمراء»، البحث عن شاعر آخر.

* وقد صدرت الكتب الأربعة الأخيرة من هذه الدراسات فى مجلد واحد بعنوان "حدائق إبراهيم طوقان" عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت العام ٢٠٠٤.

- مقدمات حول الشعر الفلسطينى الحديث والثقافة الوطنية - صدر عن دار البيرق العربى برام الله - ٢٠٠٤.

- صورة الآخر فى الشعر الفلسطينى - صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية- رام الله ٢٠٠٥.

- وهم الوصول (مقالات فى الأدب والفن والثقافة)، صدر عن المركز الفلسطينى للدراسات والنشر والإعلام، رام الله - ٢٠٠٧.

النصوص (الأعمال النثرية) :

- رمل الأفعى (سيرة كتسيعوت ، معتقل أنصار ٣).
- عباءة الورد (نصوص الانتفاضة).
- طهارة الصمت (عن الكتابة وهموم الثقافة).
- الانتفاضة، مرايا الدم والزلزال (شهادة - عامان على انتفاضة الأقصى).
- وقد صدرت الأعمال النثرية المذكورة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت العام ٢٠٠٣.
- كشكول الذهب- سرد، صدر عن دار الراية - رام الله - ٢٠٠٨.
- سرديات الجنون - نصوص ٢٠٠٨.
- عرش الليمون - قلقيلية فى أدب المتوكل طه - صدر عن دار الماجد برام الله العام ٢٠٠٤.

وقد تناولت العديد من الأبحاث والدراسات الأكاديمية أشعار وكتابات المتوكل طه فى غير دراسة ومؤتمر.

المصحح اللغوى : **عبد الحميد الصياد**

المشرف الفنــى : **محمود مراد**

ماتت أمي والطبول البعيدة تقترب من نافذتي، فيترنّق الأصيص، ويبدأ حلم طفل يلهث بالحجارة في براري الشقائق والشمس الصغيرة. ماتت، والقوس بكامل توهّجه في سماء الانتفاضة، واضح الأطياف، يفتح الأبواب للبرق المخزون في غيوم الأرض.

ماتت الحاجة عفيفة والدم لم يتخثّرُ في أرض الرباط، والبطن المبقور يشهد على الجلّنار المذبوح على صدر أُمه، واللجوء ما زال يفرد غربانه من هنا إلى هناك.

ماتت، وامرأة نائحة تقول لآخر أبنائها: اذهب حتى لا تغلبني الخنساء أو تجد نساءُ المخيّم ما يكسر عزائي. وامرأة تقول لضفيرتها: احترقي حتى يحفظ ابني خارطة الغناء. والمفتاح الثقيل يقول لحامله الشيخ: ما زلت قادرًا على فضّ الرمّانة وفك الصدأ. وطفل يولد الآن يقول: امسحوا دموعَ فاطمة حتى لا ترمد عيون مريم.

ماتت أُمي، والحجر الفلسطيني ما زال يهشّم وصايا التائهين الذين أحالوا المكان المؤوّل بالوهم، حيث تصل البساطير، إلى سجن يدوّي بالغضب.





الغلاف: محمود مراد